جمال الدين فالح الكيلاني

الشيخ عبد القادر الكيلاني
رؤية تاريخية معاصرة

(١٠٧٧-١١٦٦م - ٤٧٠-٥٦١هـ)

تقديم

المؤرخ عماد عبد السلام رؤوف

مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي

دكتور/ جمال الدين فالح الكيلاني

الإمام عبد القادر الكيلاني

رؤية تاريخية معاصرة

مراجعة وتقديم

الاستاذ الدكتور/ عماد عبد السلام رؤوف

تنسيق وترتيب

الأستاذ: نصر الدين أجدير

جامعة تلمسان الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر خاص لكل الأياد البيضاء التي ساهمت في خدمة تراث الباز الأشهب

الطبعة الثانية : دار الفكر 2014 Pittsburgh, PA 15213 USA بيتسبورغ،
ب.أ. 15213 الولايات المتحدة الأميركية .

تلفون: (412) 441 5226
فاكس: (775) 417 0836

الطبعة الأولى : مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي | بغـــــداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 126 لسنة 2011

الاهـــــــداء

إلى والدي... حبا وعرفانا

إلى الذين ابتلوا فصبروا وثبتوا فما وهنوا وما استكانوا

إلى كل عراقي شريف غيور على وطنه

إلى التي علمتني الصبر لاجل النجاح

زوجتي .... ليلى علي يوسف الكيلاني

إلى اولادي... عمر ا يمن رامي ...دارين

إلى الاخت الفاضلة لطيفة...خالتهم

إلى صالحي امة محمد صلى الله عليه واله وسلم

جمال الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

للههذه الدنيا سوق بعد ساعة لا يبقى فيها احد، عند مجيء الليل يذهب أهله منه ، اجتهدوا أنكم لا تبيعون ولا تشترون في هذه السوق الا ما ينفعكم غدالله

للهاعمل الخير لمن يستحق ولمن لا يستحق والأجر على اللهلله

للهمن رضا بالقضاء والقدر استراح ومن لم يرض به زاد همه وتعبه ولا يحصل من الدنيا
إلا ما قسم له الله

للهأود لو أن الدنيا بيدي فأطعمها للجياعلله

الإمام عبد القادر الجيلي

مقدمة الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

بسم الله الرحمن الرحيم

ليست مهمة الكتابة في سيرة فذة متعددة الجوانب كسيرة الإمام عبد القادر الجيلي -قدس الله روحه _ ميسورة، ممهدة مهما أوتي المتصدي له من اسباب القدرة والمكنة، فهذا الانسان الكبير استطاع_بخلق وعزم نادرين_أن يتحدى عصرا بكامله، يموج بانواع من التناقضات الاجتماعية، وضروب من الاضطراب ات النفسية والسياسية والاقتصادية، فقدم لمريديه وتلامذته البديل الافضل لمتناقضات ذلك العصر ومشاكله العديدة، ودل ابناء عصره، والعصور التالية، على طريق السلامة والنجاة من ادران الواقع واشواكه الخطرة.

ولم تكن عظمة الإمام تكمن في مبادىء مثالية مطلقة كان يدعو اليها فحسب، وانما في فهمه العميق لمجتمعه، وللمجتمع الانساني بوجه عام، وادراكه جوهر المشاكل الاساسية الذي يعاني منها ذالك المجتمع، فهو على رغم زهده وقناعته الكاملة، لم يقف موقف الضد من الحياة، بما تستوجبه من سعي في سبيل الرزق، وسيطرة على اسباب الدنيا، بل انه اكد على ضرورة العمل من اجل ان يضع الانسان (الدنيا بين يديه)ولكن مع ملاحظة الا تنتقل إلى قلبه فتفسد ذالك القلب، وتقطع اسباب اتصاله بالله سبحانه وتعالى ، وهذا_لعمري_فهم للاسلام سليم، وادراك عميق لجوهره ومعانيه.

لقد توضح لدى الناس، منذ ان غادرهم الإمام ملتحقا بالرفيق الاعلى، ضرورة تسجيل معالم سيرته الطيبة، لتكون نبراسا فتفيد منها الاجيال، وقدوة يتاسى بها السالكون في طرق الحياة، فانبرى عدد غير قليل من المؤلفين والمصنفين إلى جمع اخباره، والتقاط شوارد مواقفه واحواله، ليؤلف صنيعهم كتبا ورسائل مهمة تناقلها الناس وكانت موضع احترامهم وتقديرهم، بل وجدنا في كل عصر من ينبري إلى اعادة كتابة سيرته وجعلها موضوعا يفيد منه اهل ذلك العصر.

وفي العقود الاخيرة من السنين اصبحت سيرة الإمام محورا لعدد من الرسائل الجامعية تناولها اصحابها فيها حياته الثرة، بماتضمه حياته الثرة، بماتضمه من دين وفكر وتعليم وادب.

والكتاب الذي بين ايدينا يقف شاهدا اخر على اعجاب الجيل من ابنائنا بهذه السيرة الوضاءة، واحساسهم باهمية تعاليم صاحبها في هذا العصر ايضا.

والسيد جمال الدين فالح الكيلاني، وهو الذي ينتسب إلى الإمام عبد القادر دما، فضلا عن انتمائه اليه فكرا وعملا، عبر عن قوة هذا الاعجاب وتدفق ذالك الاحساس، بتاليفه كتابه هذا ، وهو يرجو، كمال ارجو، ان ينال به رضا ربه ، وثوابه، فجزاه الله خير الجزاء.

الاستاذ الدكتور: عمادعبدالسلام رؤوف

استاذ التاريخ بجامعة بغداد_كلية التربية_ابن رشد

1998/11/28

تمهيـــــد:

إن الاهتمام بسيرة علم من الأعلام لداع كفيل للتجديد في الطرح في كل ما اعتراه من جوانب حياته سواء من حيث التفصيل في حيثياتها أو الفصل في جلب المآخذ التاريخية على ما ورد و إيراد جملة من الشواهد بالاعتبار للترجيح على وجه يفضي بالناظر إلى الاذعان فيما سيق .

ولقد نهزتني جملة من البواعث إلى النظر في سيرة الإمام عبد القادر الجيلي، ما فتات منذ زمن طويل أتتبع كل ما كتب عن الإمام الإمام عبد القادر الجيلي كمطبوعات قديمة أو ما أعيد نشره حديثا من دراسات ورسائل جامعية وقد دفعني ذلك إلى تقديم محاولة لعرض واف ورؤية معاصرة لسيرة الإمام الجيلي بكل أبعادها دينيا وسياسيا وثقافيا واجتماعيا وعن دور ه في صناعة التاريخ في عصره مما كان له صدى خيب في العصور التي تلت- في نفوس المسلمين - من مملكة ماليزيا إلى مملكة المغرب وفي غيرها من بلدان المعمورة.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى قسمين: الأول وفيه عرض لسيرة الإمام الجيلي بكل تفاصيلها الرئيسة. أما الثاني فكان مختارات لنصوص قادرية في تربية وتهذيب النفس .

أرجو أن أكون قد أسهمت في تقديم مادة مفيدة وآمل أن تثير هذه الدراسة الطلاب والباحثين على سواء وان تشجع على مواصلة البحث فالموضوع مهم و متشعب يتطلب المزيد بعد المزيد من الجهود ، وأتمنى أن تسد هذه الدراسة نقصا وثغرة في المكتبة العربية الإسلامية.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

جمال الدين فالح الكيلاني

بغداد

مع الإمام عبد القادر الجيلي

أولاً : اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم وشيوخه :

1- اسمه : هو ابو صالح عبد القادر بن موسى الثالث بن عبدالله الجيلي بن يحيى الزاهد بن محمد المدني بن داود الاميربن موسي الثاني بن عبد الله الصالح بن موسى الجون بن عبد الله المحض، ويلقب أيضاً بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه (1) .

وفي هذا النسب الطاهر يقول :

أنا الجيلي محيي الدين اســـــــمي	**وأعلامـــــي رؤوس الجبـــــــال**
وعبد القادر المشهور اســــــمي	**وجدي صاحب العين الكمـــــــال**
نبي هاشمي مكي حجــــــازي	**هو جدي بــه نلت الموالــــــــي** (2)

2- كنيته ولقبه : تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته أبو محمد ونسبته الجيلي (3). وأما الألقاب التي أطلقت عليه فهي كثيرة توحي بدلالات متعددة وهي تشبه في عصرنا الإجازات العلمية والأوسمة التي تمنح للعلماء والعظماء إقراراً بفضلهم وبيانا لعلو منزلتهم، فمن الألقاب التي أطُلقت عليه لقب الإمام، أطلقه عليه السمعاني فقال إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. نقله عنه ابن رجب (4) . ومنها لقب شيخ الإسلام أطلقه عليه الذهبي (5).

3- ولادته : ولد الإمام عبد القادر في بلدة الجيل وهي قرية عراقية تابعة لمدينة المدائن قرب بغداد ، وي، والنسبة إليها جيلي و اما جيلاني كيلاني فهي نسبة متاخره والاصح الجيلي لا غيرها رغم اشتهار غيرها في حقب متاخره ، وذلك سنة سبعين وأربعمائة للهجرة (6) .

---

[1] أعلام سير النبلاء (439/20) الإمام عبد القادر الجيلي ص 27.
[2] الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (290/1).
[3] المصدر نفسه ص 28.
[4] الإمام عبد القادر الجيلي للقحطاني ص 28.
[5] سير أعلام البنلاء (439/20).
[6] جغرافية الباز الاشهب 43.

4- طلبه للعلم ورحلاته : رحل الإمام عبد القادر الجيلي من بلده ومسقط رأسه جيلان العراق إلى بغداد حيث دخلها سنة 488هـ وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة والتقى في بغداد بمجموعة من مشاهير العلماء الذين نهل من مناهلهم واستفاد من معارفهم حتى أصبح عالماً في مختلف العلوم إذ يصفه الذهبي في ترجمته له بانه : الإمام الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ومحي الدين (7) .

كما يصفه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة بانه : شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف (8)، وقد أمضى في طلب العلم اثنين وثلاثين سنة درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للتعليم والوعظ سنة 520هـ (9)

كان خلال فترة طلبه للعلم رغم طولها يعاني من ضيق العيش ويكابد مرارة الحرمان إلا أن ذلك لم يفت في عزيمته ولم يعوقه عن المثابرة في طلب العلم (10) ، وقد نقل ابن رجب ما يصّور لنا تلك المعاناة من كلام الإمام نفسه حيث يقول : وكنت أقتات الخرنوب (11) ، الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد أن بقيت أياماً لم آكل طعاماً بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها يوماً من شدة الجوع لعلي أجد ورق الخس أو البقل، أو غير ذلك، فاتقوت به فما ذهبت إلى موضع إلاّ وغيري قد سبقني إليه، وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فاتركه حياءاً، فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك فدخلت إليه ووقعت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب ومعه خبز صاف وشواء وجلس ياكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي فقلت : ما هذا وقلت ما ههنا إلاّ الله أو ما قضاه عليّ من الموت إذا التفت إليّ الشاب فرآني فقال : بسم الله يا أخي فابيت فاقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها فاقسم أيضاً فاجبته فاكلت متقاصراً، فاخذ يسالني ما شغلك ومن أين أنت وبمن تُعرف فقلت : أنا متفقه من جيلان فقال : وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر فقلت : أنا هو فاضطرب وتغير وجهه وقال : والله لقد وصلت إلى بغداد

[7] سير أعلان البنلاء (439/20).

[8] ذيل طبقة الحنابلة لابن رجب (290/1).

[9] المصدر نفسه (291/1).

[10] الإمام عبد القادر الجيلي ص 32.

[11] الخرنوب : شجر بري ذو شوك ذو حمل كالتفاح لكنه بشع.

ومعي بقيت نفقة لي فسالت عنك فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلاّ مما كان لك معي وقد حلَّت لي الميتة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي فقلت له : وما ذاك فقال : أمك وجهّت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا للاضطرار فانا معتذر إليك فسكَّنُه وطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف (12).

5- شيوخه : ونتحدث عن بعضهم :

أ- أبو سعيد : المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة تفقه بالقاضي أبي يعلي وبنى مدرسة باب الأزج درّس بها بعده تلميذه الإمام عبد القادر الجيلي بعد أن طوَّرها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة 513هـ.

ب- أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي : الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف ولد سنة 431هـ وكان يتوقد ذكاءاً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير (13) . وقد نقل عنه الذهبي قوله : عصمني الله في شبابي بانواع من العصمة وقصر محبتي على العلم وما خلطت لعاباً قط ولا عاشرت إلاَّ أمثالي من طلبة العلم وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدَّة النظر بالعين لرؤية الأهلة الخفية إلاَّ أن القوة ضعيفة (14) . قال ابن الجوزي : كان ابن عقيل ديناً حافظاً للحدود توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه وكان كريماً ينفق ما يجد وما خلفَّ سوى كتبه وثياب بدنه توفي سنة 513هـ (15) ، وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل : حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل لملتقطه مائة دينار فرددته عليه فقال : خذ الدنانير فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد فاويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع فقدموني فصليت بهم فاطعموني وكان أول رمضان فقالوا : إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر ففعلت فقالوا : لإمامنا بنت فتزوجت بها وأقمت معها سنة وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في

[12] الذيل عن طبقات الحنابلة لابن رجب (298/1).

[13] سير أعلام النبلاء (428/19).

[14] الإمام عبد القادر الجيلي ص 38.

[15] سير أعلام النبلاء (446/19).

نفاسها فتاملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر فقلت لها : لهذا قصة، وحكيت لها، فبكت وقالت : أنت هو والله لقد كان أبي يبكي : ويقول : اللهم أرزق ابنتي مثل الذي رد العقد عليَّ وقد استجاب الله منه ثم ماتت فاخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد (16).

ج- حماد بن مسلم الدباس : كان الإمام عبد القادر من تلامذته (17) وقد أثنى ابن تيمية على الجيلي وشيخه حماد حيث قال : فامر الإمام عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم : بانه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق (18).

ح- أبو محمد جعفر بن أحمد البغداي السراج : الإمام البارع المحدث المسند بقية المشايخ كتب بخطه الكثير وصنَّف الكتب كان صدوقاً ألفَّ في فنون شتَّى وكان ممن يفتخر برؤيته ورواياته لديانته ودرايته ثقة مامون عالم صالح ولد سنة 417هـ وتوفي سنة 500هـ (19).

س- أبو عبد الله يحي بن الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي : كان الحافظ عبد الله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويطريه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته ولد سنة 453هـ وتوفي سنة 531هـ (20).

ش- وهنا نشير إلى تلمذته على يد الإمام ابي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، فقد اثبتت الدراسات الاكاديمية والبحث التاريخي ، تلمذة الإمام الجيلي على يد الإمام الغزالي ، فقد التقيا ببغداد، لفترة وجيزة ، وهناك تطابق في منجيهما في الاحياء والغنية ، وهؤلاء من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته ، واول كلامه ((غواص الفكر يغوص في بحر القلب على درر المعارف فيستخرجها إلى ساحل الصدر فينادى عليها سمسار ترجمان اللسان فتشترى بنفائس اثمان حسن الطاعة في بيوت اذن الله ان ترفع وبذكر فيها اسمة)) وانشد قائلا :

على مثل ليلى يقتل امرء نفسه ويحلو له مسر الأماني ويعذب (21).

---

[16] المصدر نفسه (447/19).

[17] المصدر نفسه (449/19).

[18] فتاوى ابن تيمية (455/10).

[19] سير أعلام النبلاء (228/19).

[20] المصدر نفسه (6/20).

[21] الإمام عبد القادر الجيلي للقحطاني ص 43.

6- **مكانته العلمية** ، ويكفي في معرفة مكانة الإمام عبد القادر الجيلي العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بانه من الشيوخ الكبار (22). ثم شهد له بانه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء فيقول : والإمام عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر من أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية (23) .

وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي، قال : سمعت شيخنا موفق الدين بن قدامة يقول : دخلنا بغداد سنة 561هـ فإذا الإمام الإمام محي الدين عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وافتاء وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء (24) .

وكان يبذل أوقاتاً كثيرة في سبيل تعليم الناس الذين كانوا يحرصون على حضور دروسه على اختلاف مستوياتهم يقول ابنه عبد الوهاب : كان والدي رحمه الله يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس أربعون سنة أولها 521هـ وآخرها 561هـ ومدّة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته 33 سنة أولها 528هـ وآخرها 561هـ وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة (25).

وأما ذكاؤه وفطنته وقدرته على حل المعضلات من الحوادث والمسائل فيشهد لذلك ما ذكره ابنه عبد الرزاق بقوله : جاءت فتوى من العجم إلى بغداد فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شافٍ وصورتها : ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لابّد له أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فيما يفعل من العبادات ؟ قال : فاتى بها إلى والدي فكتب عليها على الفور : ياتي مكة ويخلي له المطاف ويطوف أسبوعاً – أي سبعاً – وحده وتنحل يمينه قال : فمابات المستفتي ببغداد (26) .

[22] فتاوي ابن تيمية (463/10).

[23] المصدر نفسه (488/10).

[24] الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (294/1).

[25] بهجة الأسرار للشطنوفي ص 95.

[26] الذيل على طبقات الحنابلة (294/1).

وعندما ترجم له ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة قال : شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محي الدين أبو محمد صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة (27).

ويقول ابن الجوزي عنه : تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير ويشير هو إلى انه واصل بالعلم إلى اعلى المراتب :

درست العلم حتى صرت قطبـــــا ونلت السعد من مولى المواليـــي

كساني خلعه بطراز عـــــــزم وتوجني بتيجان الكمـــــــال (28).

- بدء الدعوة وأسلوبه في ذلك : يعُيد المؤرخون ظهور عبد القادر إلى عام 521هـ/1127م [29]. والواقع أن عبد القادر بدأ دعوته قبل ذلك، فهو يذكر أنه سبق جلوسه للوعظ فترة التهيؤ النفسي وتشجيع الأصحاب والمحبين وأنه بدأ مجلسه بالرجلين والثلاثة ثم تزاحم الناس حتى صار مجلسه يضم سبعين ألفاً [30]، ثم تزايد الإقبال حتى ضاقت المدرسة فخرج إلى سور بغداد بجانب رباخه، وصار الناس يجيئون إليه ويتوب عنده الخلق الكثير [31]، ومنُذ ذلك الوقت بدأ عبد القادر دعوته والتي تميزت بامور منها :

1- اعتماد التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة : كان الإمام أبو سعيد المخرمي قد أسس مدرسة صغيرة في باب الأزج (حي من أحياء بغداد) فلما توفي آلت إلى تلميذه عبد القادر الجيلي فعمد إلى توسيعها وإعادة بنائها، كما أضيف إليها عدد من المنازل والأمكنة التي حولها ولقد بذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بانفسهم [32]. وروى لنا المؤرخون - أثناء ذلك - صوراً من البذل والتضحية يكشف عن مدى تعلقّ الأتباع بالشيخ، من ذلك امرأة فقيرة قررت المساهمة في عمارة المدرسة فلم تجد شيئاً. وكان زوجها من العمال فجاءت إلى الإمام عبد القادر

---

[27] المصدر نفسه (290/1).

[28] المصدر نفسه (291/1) الإمام عبد القادر ص 69.

[29] نشأة القادرية د. ماجد الكيلاني ص 79.

[30] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

[31] المنتظم (219/10).

[32] المنتظم (219/10) طبقات الحنابلة (291/1).

تصحب زوجها وقالت : هذا زوجي ولي عليه من المهر قدر عشرين دينار ذهباً ولقد وهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، ثم سلمَّت الإمام خط الاتفاق الذي وقعته مع زوجها، فكان الإمام يشغله في المدرسة يوماً بلا أجرة يوماً باجرة، لعلمه أنه فقير لا يملك شيئاً، فلما عمل بخمسة دنانير أخرج له الخط ودفعه له، وقال له : أنت في حِل من الباقي [33]. ولقد اكتمل بناء المدرسة عام 528هـ/133م، وصارت منسوبة إلى الإمام عبد القادر حيث جعلها مركزاً لنشاطات عديدة منها التدريس والافتاء والوعظ [34] وأما تمويل المدرسة فقد أوقف الأتباع والأغنياء عليها أوقافاً دائمة للصرف على الأساتذة والطلاب [35]. ومنه من أوقف الكتب لمكتبتها [36]، وكان لها خدم مهمتهم العناية بامورها وخدمة الأساتذة والطلاب [37].

وكرّس الإمام عبد القادر معظم أوقاته للمدرسة فكان لا يخرج منها إلا يوم الجمعة إلى المسجد أو الرباط ولقد قام أسلوبه في التدريس والتربية على مراعاة استعدادات كل طالب والصبر عليه، وكان يعتز بمهنة التدريس هذه ويعتبرها " أشرف منقبة وأجل مرتبة. وأن العالم محبوب من أهل الأرض، وأنه سيُميَّزُ يوم القيامة عمن سواه ويعطي درجات أسمى من غيره [38]. لقد أمضى الإمام عبد القادر في التدريس ثلاثاً وثلاثين سنة بدأها عام 528هـ/1133م حتى وفاته عام 561هـ/1116م [39] ، ولا تزال المدرسة باقية إلى اليوم [40] ولها مكتبة فيها مخطوطات شهيرة وتعرف باسم المكتبة القادرية [41] ، والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه عبد القادر، يكشف عن تاثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الإمام عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف

---

[33] طبقات الحنابلة (291/1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

[34] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

[35] شذرات الذهب نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

[36] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

[37] المصدر نفسه ص 187.

[38] سر الأسرار، لعبد القادر الجيلي نقلا عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 188.

[39] قلائد الجوهر ص 32 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 188.

[40] مدارس بغدا في العصر العباسي ص 154.

[41] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 188.

باسم الإمام عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون [42]، وإليك تفاصيل البرنامج المذكور.

أ - الإعداد الديني والثقافي : يتحدد هذا الإعداد بحسب عمر الطالب أو المريد وحاله، فإذا كان ممن يقصدون تصحيح العبادة كالكبار من الناس والعامة درسه الإمام عقيدة أهل السنة وفقه العبادات اللذين تضمنهما كتابه " الغنية لطالبي طريق الحق " الذي صنّفه على طريقة كتاب " إحياء علوم الدين للغزالي " واقتفى الموضوعات نفسها التي عالجها الغزالي في كتابه المذكور. ويضاف إلى ذلك دراسات تستهدف إعداد النابة من الدارسين ليكون داعية بين الناس مثل أهيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووسائله وأساليبه، ودراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة والفرق السائدة [43] بالإضافة إلى التدريب على الوعظ والخطابة والتدريس [44] وأما إذا كان الدارس طالباً من طلبة المدرسة، فإنه يتلقى إعداداً أوسع يتضمن حوالي ثلاثة عشر علماً تشمل على التفسير والحديث والفقه الحنبلي، والخلاف والأصول والنحو والقراءات بالإضافة إلى ما سبق ذكره، على أنه كان يستبعد علم الكلام والفلسفة وينهى عن مطالعة كتبها السائدة [45]، وكان الجمع بين الفقه والتصوف السني شرطاً أساسياً للمريدين، فقد روى ابن تيمية - في مجلدي التصوف وعلم السلوك - من الفتاوى كيفية تقيد منهج عبد القادر بالأصول الواردة في القرآن الكريم والسنة والتزامه تزكية النفس في منهاجه التربوي [46].

ب- الإعداد الروحي : يستهدف الإعداد الروحي تربية إرادة المتعلم أو المريد حتى يصبح صفاء بلا كدر ويصير مع النبي صلى الله عليه وسلم في عقله ومشاعره ومعناه ويكون دليل قدوته [47].

ولكي يصل المتعلم إلى ذلك، عليه أن يلتزم السنة في كل شيء وأن يتصف بصفات أساسها المجاهدة والتحلي باعمال أولي العزم وقد بينت تلك الصفات عند حديثي عن موقفه من العلم والعمل. وكان يرافق الممارسات العملية التي دعا إليها الإمام دراسات نظرية حول مقصود المجاهدات والعبادات التي يمارسها المريد في حياته اليومية وبذلك أقام التزكية الروحية على قاعدة فكرية

[42] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 189.
[43] الغنية (1/71 - 84).
[44] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 435.
[45] قلائد الجوهر ص 3.
[46] الفتاوى ، علم السلوك ج 10 ، كتاب التصوف ج 11.
[47] الفتح الرباني ص 206 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 190.

تستهدف إقناع المريد بما يمارسه فكان هناك دراسات حوال الأوراد والأذكار [48] ، ودراسات عن التقوى والورع، ودراسات عن أحوال النفس ومداخل الشيطان ودراسات عن الأخلاق التي يجب أن يكون المريد عليها ويحتوي كتاباً (الغنية) " وفتوح الغيب" فصولاً مطولة مما اعتمده الإمام عبد القادر في ذلك [49].

ج- الإعداد الاجتماعي : ويستهدف هذا الإعداد توثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات والقضاء على أسباب التفكك الاجتماعي الذي ساد المجتمع في عصره والميدان الذي كان يتم به هذا الإعداد هو المدرسة القادرية نفسها حيث يتدرب المريد على ما يجب أن يتحلى به الفرد خارج المدرسة في المجتمع الكبير. ويشمل هذا الإعداد تنظيم حياة المريد الخاصة، وعلاقات المريدين بالقيادة المتمثلة بالشيخ، وعلاقاتهم ببعضهم البعض، وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط، أما عن حياة المريد الخاصة، فقد حدد المنهاج القادري آداباً تنظم دقائق السلوك اليومي للفرد كاللباس والنوم والدخول والخروج والزينة والجلوس والسير والطعام والشراب، ومعاملة الزوجة والأبناء والوالدين، والإقامة والسفر، وفي جميع هذه الآداب يسترشد بما ورد في السنة النبوية.

كذلك حرص الإمام عبد القادر أن يبتعد بالمريد عن كل ما ينزل من مكانته الاجتماعية كالبطالة والعيش على هبات المحسنين، وسؤال الناس، وحثه على الاشتغال بالكسب والتجارة مع مراعاة قواعد الأخلاق والأمانة [50]. وأما عن تنظيم علاقة المريد والطالب بالشيخ، فقد أوجب عبد القادر على المريد طاعة الإمام في الظاهر والباطن وأن لا ينقطع عنه وأن يستشيره في جميع شؤونه وفي المقابل أوجب على الإمام أن يعامل مريديه بالحكمة والشفقة، وأن يؤدبهم ابتغاء مرضاة الله، وأن يكون لهم ملجا وسنداً وراعياً فإذا لم يكن في هذه المنزلة فليترك شيخه وليعد إلى شيخ يؤدبه [51] . وحدد القاعدة التي يعتمدها المريد في صحبة الأغنياء والفقراء بما يلي : أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل ... وعليك بصحبة الفقراء والتواضع وحسن الأدب والسخاء .. وعلى المريد أن يحذر من الضعف أمام عطاء الأغنياء، أو يطمع بنوالهم، لأن تملقهم من أخطر الأمور على دين المرء وعلى خلقه. شريطة أن لا يحقد عليهم، وأن يحسن الظن بهم وأن لا يتعالى عليهم [52].

---

[48] الغنية (86/81/2) الفتح الرباني ص 85.

[49] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 192.

[50] المصدر نفسه ص 193.

[51] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 194.

[52] الغنية (128/2 - 154) فتوح الغيب ص 75 ، 167.

2- الـوعظ وموضـوعاته : بـالرغم مـن اشـتغال عبـد القـادر بالتـدريس وإعـداد المـربين، فإنـه لم ينقطع عـن مجالس الـوعظ العامـة الـتي اسـتهدفت إيصـال دعوتـه إلى عامـة النـاس، فخصـص لـذلك ثلاثـة أيـام في الأسـبوع : صـباح الجمعـة، ومسـاء الثلاثـاء في المدرسـة، وصـباح الأحـد في الربـاط [53] ويـذكر التادفي أن الحضور كانوا يدونون هذه المواعظ حتى عُدُّ في مجلسه مقدار أربعمائة محبرة [54].

وقـد جُمـع قسـم كـبير مـن هـذه المـواعظ - أو المجـالس كمـا كانـت تسـمى- في كتـاب يُعـرف باسـم " الفـتح الربـاني " مـع تحديـد تواريخهـا وأمكنـة إلقائهـا، كـان الإمـام عبـد القـادر - في مواعظـه - شـديد الحماسـة للإسـلام مشـفقاً لما آلـت إليـه تعاليمـه في حيـاة النـاس ويـود لـو اسـتطاع اسـتنفار الخلـق جميعـاً لنصـرة الإسـلام يقـول في أحـد مجالسـه : ديـن محمـد صـلى الله عليـه وسـلم تتواقـع حيطانـه ويتنـاثر أساسـه. هلمـوا يـا أهـل الأرض نُشـيّد مـا تهـدم ونقـيم مـا وقـع : هـذا شـيء مـا يـتم يـا شمـس ويـا قمـر، ويانهـار تعـالوا [55] ويقـول في موعظـة أخـرى : سـبحان مـن ألقـى في قلـبي نصـح الخلـق وجعلـه أكـبر همـي. إنـي ناصـح ولا أريد علـى ذلـك جـزاء. آخرتـي قـد حصـلت لـي عنـد ربـي عـز وجـل. مـا أنـا بطالـب دنيـا، مـا أنـا عبـد الـدنيا ولا الآخـرة، ولا سـوى الحـق عـز وجـل. فرحـي بفلاحكـم وغمـي لهلاككـم إذا رأيـت وجـه مريـد صـادق قـد أفلـح علـى يـدي شـبعت وارتويـت واكتسـبت وفرحـت كيـف خـرج مـن تحـت يـدي [56] ومـن أقولـه كـذلك : ألا إنـي راع لكـم، سـاق لكـم، نـاخور لكـم مـا ترقيـت هـا هنـا وأرى لكـم وجـود الضـر والنفـع بعـد مـا قطعـت الكـل بسـيف التوحيـد. ألزمـت هـذا المقـام. حمـدكم وذمكـم وإقبـالكم وإدبـاركم عنـدي سـواء. كـم مـن يـذمني كـثيراً ثـم يتقلـب ذمـة حمـداً. كلاهمـا مـن الله لا منـه، إقبـالي علـيكم لله، أخـذي مـنكم لله لـو أمكنـني دخلـت مـع كـل مـنكم القـبر وجاوبـت عنـه منكـراً ونكـير رحمـة وشـفقة علـيكم [57]. بهـذا الحمـاس، انطلـق الإمـام عبـد القـادر يسـتنفر المسـلمين إلى الالتفـاف حـول الإسـلام، ويـدعوهم إلى العـودة إلى تعاليمـه وحمـل رسـالته. وكـان يـرى أن صـلاح ديـن الفـرد لا يـتم إلا بإصـلاح القلـب وفـك إسـاره مـن حـب الـدنيا والأخـلاق الذميمـة ومـن كـل مـا يشـغل عـن الله، ومـن هنـا كثـرت في مواعظـه دعـوة النـاس إليـه للتربيـة والتزكيـة [58] ، وكانـت مواعظـه وخطبـه بعضـها موجـه لنقـد العلمـاء، والحكام والدعوة لإنصاف الفقراء والعامة.

[53] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 195.
[54] قلائد الجوهر ص 18.
[55] الفتح الرباني ص 295.
[56] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 196.
[57] الفتح الرباني نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 197.
[58] المصدر نفسه ص 197.

أ- انتقاد العلماء : كان الغالبية من العلماء من العلماء في عهده يتنافسون فيما بينهم على اعتلاء منابر الوعظ والخطابة في الأماكن المشهورة ويسعون في إيذاء بعضهم بعضاً عند الخليفة والوزراء والحكام ومنهم من عرف بسوء الخلق، ومنهم من اشتغل بالخصومات المذهبية، شاهد الإمام عبد القادر عن كتب كل ذلك وأمثاله فشن حملة شديدة على هذا النوع من العلماء واعتبرهم تجاراً يتاجرون بالدين ويساهمون في ارتكاب المحظورات ومن مواعظه العامة في ذلك قوله : يا سلّابين الدنيا بطريق الآخرة من أيدي أربابها. يا جهالاً بالحق، أنتم أحق بالتوبة من هؤلاء العوام، أنتم أحق بالاعتراف بالذنوب من هؤلاء، لا خير عندكم [59] وقال في موعظة ألقاها في المدرسة في 9 رجب 546هـ/1151م : لو كانت عندك ثمرة العلم وبركاته لما سعيت إلى أبواب السلاخين في حظوظ نفسك وشهواتها العَالِم لا رجلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق والزاهد لا يَدَيْن له ياخذ بهما أموال الناس، والمحب في الله لا عينين له ينظر بهما إلى غيره [60].

وحذّر عامة الجماهير من حضور مواعظهم والاستماع إلى أحاديثهم فقال : يا عباد الله ... لا تسمعوا من هؤلاء الذين يُفرحون نفوسكم. يذلون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر لا يامرونهم بامر ولا ينهونهم عن نهيه. إن فعلو ذلك فعلوه نفاقاً وتكلفا خهر الله الأرض منهم ومن كل منافق أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه إني أغار إذا سمعت واحداً يقول : الله الله وهو يرى غيره [61].

وهاجم المتعصبين للمذاهب ومن ذلك قوله : دع عنك الكلام فيما لا يعنيك. اترك التعصب في المذاهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة [62]. ولم تنقطع حملات عبد القادر على العلماء والفقهاء [63]. المنحرفين على هدى المصلحين والعلماء الربانيين وكان هجوم الإمام عبد القادر على العلماء المنحرفين يريد به تصحيح الوضع السائد والمساهمة في تخريج جيل من العلماء الربانيين الذين يقومون بوعظ الناس وهدايتهم وتزكيتهم ونشر التعاليم الصحيحة في أوساط الأمة حتى يخرج جيل النصر المنشود الذي يتحقق على يديه وعد الله بالنصر للمؤمنين وقد حالف الإمام عبد القادر الكثير من النجاح بحمد الله في تحقيق هذه المهمة.

ب- انتقاد الحكام : وخص الإمام عبد القادر - الحاكمين بانتقاداته وحذر الناس من الانصياع لهم بما يخالف الشريعة يقول في أحد مجالسه : صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة. قد صارت الدنيا

[59] المصدر نفسه ص 198.

[60] المصدر نفسه ص 202.

[61] الفتح الرباني ص 245 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 199.

[62] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 199.

[63] المصدر نفسه ص 201.

والغنى والعافية والحول والقوة آلهة، ويحكم جعلتم الفرع آصلاً، المرزوق رازقاً، والمملوك مالكاً، الفقير غنياً، العاجز قويا الميت حياً، .. إذا عَّظمت جبابرة الدنيا وفراعينها وملوكها وأغنياءها ونسيت الله عز وجل ولم تعظَّه، فحكمك حكم من عبد الأصنام، تصّير مَنْ عِظّمت صنمك [64] ، وانتقد الولاة والموظفين الذين يجتهدون في تنفيذ أوامر السلاخين دون تحرز : يقول في إحدى مواعظه : يا غلام : .. أخدم الحق عز وجل ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاخين الذين لا يضرون ولا ينفعون أيش يعطونك ؟ يعطونك مالم يقَّم لك ؟ أو يقدرون يقسمون لك شيئاً لم يقسمه الحق عز وجل ؟ لا شيء مستانف من عندهم، إن قلت أن عطاءهم مستانف من عندهم كفرت [65] . ولم تتوقف انتقادات عبد القادر للحكام عند المواعظ العامة، وإنما تناولت المواقف الخاصة التي تبرز فيها انحرافات أو مظالم، ففي عام 541هـ/1146م ولى الخليفة المقتفي يحي بن سعيد المعروف بابن المرجم القضاء. فمضى الأخير في ظلم الرعايا ومصادرة الأموال وأخذ الرشاوي، فكتبت ضده المنشورات وألصقت في المساجد والشوارع دون أن يستطيع أحد أن يجهر بمعارضته. ويذكر سبط ابن الجوزي أن الإمام عبد القادر اغتنم وجود الخليفة في المسجد وخاخبه من على المنبر قائلاً : وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غداً عند رب العالمين، فعزل الخليفة القاضي المذكور [66] ولقد تكررت هذه المواقف مع الوزراء والرؤساء والحجاب، وتذكر المصادر التاريخية أن هؤلاء كانوا يستمعون لملاحظات عبد القادر لاعتقادهم بصلاحه وصدق أغراضه وكراماته [67]، فلقد حرص عبد القادر على أن يبقى بعيداً عن مواخن الشبهات أو التقرب للحكام، فقد ذكر عنه أنه ما ألمّ بباب حاكم قط وأنه تتناولها يده [68].

ج - انتقاده للأخلاق الاجتماعية السلبية في عهده :

نظر الإمام عبد القادر إلى المجتمع المعاصر له على أنه مجتمع : الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام. وهذه صفات أحالت كل شيء فيه إلى مظاهر خاوية فيها ولا معنى [69]، يستوي في ذلك المتدينون وغيرهم. يقول في إحدى مواعظه : هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق. قد كثر من يصلى ويصوم ويحج ويزكي، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار

---

[64] المصدر نفسه ص 201.

[65] المصدر نفسه ص 201.

[66] مرآة الزمان (265/8) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 202.

[67] خبقات الحنابلة (292/1).

[68] قلائد الجوهر ص 19-30 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 203.

[69] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 203.

معظم الناس بلا خالق. كلكم موتى القلوب أحياء النفوس والأهوية خالبون للدنيا [70] وقال في إحدى المواعظ : ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاخين والأغنياء. أكل فلان، واستغنى فلان، افتقر فلان كل هذا هوس ومقت وعقوبة، وتوبوا واتركوا ذنوبكم وأرجعوا إلى ربكم دون غيره، أذكروه وانسوا غيره [71].

س - الدعوة لإنصاف الفقراء والعامة : ركز الإمام عبد القادر على نصرة الطبقة العامة والفقراء خاصة، فجعل الاهتمام بشؤونهم من شروط الإيمان، وشن حملة شديدة على الولاة الذين يظلمونهم وعلى الأغنياء الذين يخصون أنفسهم دون إخوانهم من الفقراء " باخيب الأخعمة وأحسن الكسوة وأخيب المنازل وأحسن الوجوه وكثرة الأموال " فافتى بان انتسابهم للإسلام دعوى كاذبة وذريعة لحقن دمائهم بالشهادتين [72].

ولقد جعل عدم التفرقة بين الغني والفقير من شروط تقدم المريد في مقامات التزكية، أو نجاة المسلم من عقاب الله [73]. وشدّد في وصيته المشهورة لولده عبد الرزاق على خدمة الفقراء وحسن صحبتهم والتعامل معهم : حسبك من الدنيا شيئان : صحبة فقير وحرمة ولي. وعليك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل [74] ولم يقف اهتمام الإمام عبد القادر بالفقراء عند حد الوعظ، وإنما ترجمه لعمل واقع. فكان يفتح بابه للفقراء والغرباء ويقدم لهم المنام والغذاء ويحضرون الدرس ويعطيهم ما يحتاجون [75].

كان يرى هذا الأسلوب من أفضل الأعمال فلقد نقل عنه قوله : فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إخعام الطعام ولا أشرف من الخُلُق الحسن، أودُّ لو كانت الدنيا بيدي أخعمها الجائع، كفى مثقوبة لا تضبط شيئاً لو جاءني ألف دينار لم تبت عندي [76]. لهذا كله، أقبلت العامة والفقراء

---

[70] المصدر نفسه ص 203.

[71] المصدر نفسه ص 203.

[72] الفتح الرباني ص 64 ، 65 هكذا ظهر حيل صلاح الدين ص 204.

[73] المصدر نفسه ص 52 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 205.

[74] الفيوضات الربانية ص 35 - 37.

[75] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 205.

[76] المصدر نفسه ص 205.

على عبد القادر إقبالاً شديداً وتحمسوا له [77]. وتاب على يديه أعداد كبيرة من أهل بغداد، فقد روي عنه قوله : وتاب على يدي من العيّارين والمسالحة أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير [78].

4- إصلاح التصوف : أعطى الإمام عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف، وأعادته إلى مفهوم "الزهد" ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان.

أ - تنقية التصوف مما طرأ عليه : من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية، هدفها الأساسي في غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح. ويمثل كتاباه " الغنية لطالبي طريق الحق " وفتح الغيب " خلاصة أفكاره في هذا المجال. ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى " كتاب السلوك " وقدّمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث والوعظ وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه [79].

ب- الحملة على المتطرفين من الصوفية : حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على من تلسبوا بالتصوف أو شّوهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان : بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عمّا سوى مولاه عز وجل [80]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحن والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة وقّرر أن المريد الصادق لا يهيّجه كلامٌ غير كلام الله وهو في غنى عن " الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدعين، وشركاء الشياطين ركاب الأهوية، مطايا النفوس والطباع، أتباع كل ناعق وزاعق [81].

ج- محاولة التنسيق بين الفرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها : في الفترة الواقعة بني عامي 546هـ - 550هـ (1151م - 1155م) جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون ولتحقيق هذا الهدف عقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة

[77] المنتظم (219/10).
[78] قلائد الجواهر ص 19 للتادفي.
[79] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 209.
[80] المصدر نفسه ص 209.
[81] المصدر نفسه ص 209.

علـى المسـتوى التنظيمـي والمسـتوى النظـري، وتصـدر الإمـام عبـد القـادر الزعامـة وكـان أول الاجتماعـات الـتي اسـتهدفت توحيـد القيـادة عقـد في ربـاط المدرسـة القادريـة الكـائن في منطقـة الحلـة في بغـداد، حيـث حضـر الاجتمـاع مـا يزيـد علـى الخمسـين مـن شـيوخ العـراق وخارجـه، وكـان الاجتمـاع الثـاني - خـلال موسـم الحـج حيـث حضـره شـيوخ الطـرق الصـوفية مـن مختلـف أرجـاء العـالم الإسـلامي، حضـر هـذا اللقـاء الإمـام عبـد القـادر الكيلانـي مـن العـراق، والإمـام عثمـان بـن مـرزوق القرشـي الـذي شـاعت شـهرته وانتهـت إليـه المشـيخة في مصـر، والإمـام أبـو مـدين المغربـي الـذي يعـود إليـه نشـر الزهـد في المغـرب - في ذاك العصـر) كـذلك حضـر الاجتمـاع شـيوخ مـن الـيمن حيـث أرسـل معهـم الإمـام عبـد القـادر رسـولاً يـنظم أمـورهم [83]. وفي نفـس الفـترة جـرت اتصـالات بـين الإمـام عبـد القـادر والإمـام رسـلان الدمشـقي الـذي انتهـت إليـه تربيـة المريـدين ورئاسـة المشـايخ في الشـام [84]. ثـم تـلا ذلـك اجتمـاع موسـع، حضـره جمـع كـبير مـن الشـيوخ الـذين يمثلـون مـدارس الإصـلاح في مختلـف أقطـار العـالم الإسـلامي، واسـتطاع الإمـام عبـد القـادر الجيلـي أن ينقـل التصـوف السـني إلى حركـة منظمـة في العـراق وعلـى مسـتوى العـالم الإسـلامي، ولقـد ترتـب علـى هـذه اللقـاءات المسـتمرة للمشـايخ والعلمـاء آثار هامة منها.

- وحـدة العمـل لـدى مـدارس الإسـلام عامـة فقـد أصـبح للـزعيم الإمـام عبـد القـادر اجتماعـات متواليـة مـع كبـار الشـيوخ، يناقشـون مـا تحيلـه إلـيهم المـدارس والأربطـة في العـالم الإسـلامي مـن قضـايا ومشكلات.

- إن المـدارس والرباطـات المختلفـة أخـذت ترسـل إلى المدرسـة القادريـة النـابهين مـن خلابهـا والمتقـدمين مـن مريبهـا الـذين تـرى فـيهم مـؤهلات المشـيخة في المسـتقبل، كمـا فعـل الإمـام أبـو مـدين المغربـي حـين أرسـل أحـد مريديـه - صـالح بـن ويرجـات الزركـالي - إلى بغـداد حيـث أكمـل علـوم الفقـه وسلوك الزهد على يد الإمام عبد القادر لإكمال سلوك الزهد وعلوم الإرادة [85].

- إن إحكـام الـربط بـين تعلـيم الفقـه وسـلوك الزهـد أدى إلى خفـة - بـل ربمـا اختفـاء - معارضـة الفقهـاء وإلى التعـاون بـين الطـرفين، بـل صـار الفقهـاء يجمعـون بـين الفقـه والزهـد ويسـمون ذلـك تكامـل الشـريعة والطريقـة. وهـذا الأمـر جعـل ابـن تيميـة يعتـبر عبـد القـادر وأقرانـه مـن قيـادة مـدارس الإصـلاح

[82] طبقات الحنابلة (306/1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 245.

[83] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 245.

[84] المصدر نفسه ص 245.

[85] بهجة الأسرار ص 107 هكذا ظهر جيل صلاح ص 247.

نماذج فريدة في الجمع بين الفقه والزهد، فاخلق عليهم إصطلاح " الشيوخ الكبار المتاخرين " ونوّه في فتاويه بمزاياهم وتجردهم، واستقامتهم [86] الاتفاق على رؤية مشتركة للعمل والتعاون على تحقيق الأهداف المتفق عليها، وتقليل مساحة القضايا المختلف فيها مع وضع الخلاف في إطاره الطبيعي.

- خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف، وإسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحّران وجبال هكار ودمشق ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين فصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد ورباطاتها، وبَنَيا لها فروعاً جديدة وأوقف عليها الأوقاف في المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعّالة ناجحة [87].

5- النهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يرى الإمام عبد القادر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة أساسية لبقاء المجتمع وسيادة الخير فيه، فإن تُرك تطرق الفساد إليه. وهو واجب على كل مسلم ولكل حسب مستواه ودوره: فالسلاطين: إنكارهم باليد والعلماء إنكارهم باللسان، والعامة إنكارهم بالقلب [88]، والعلماء هم الفئة التي تقرر ما هو معروف مباح، وما هو منكر محرم، أما السلاطين، والعامة فعملهم تنفيذ ما يقرره العلماء في هذا المجال وللعلماء الذين يتسنمون هذه المنزلة صفات تحددهم في العلماء السالكين لطريق الزهد دون سواهم هذه الصفات هي:

- أن يكون القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالماً.

- أن يكون عالماً بالمنكر الذي ينهى عنه على وجه قطعي لما في ذلك من خوف الوقوع في الظنون والإثم. فالواجب إنكار ما ظهر وعدم بحث ما ستر لأن الله نهى عن ذلك [89].

- أن يكون قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله [90].

[86] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 247.
[87] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 247.
[88] الغنية (1/44، 45).
[89] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 216.
[90] المصدر نفسه ص 216.

وحّدد عبد القادر لأساليب الأمر بالمعروف شروخاً وهي كما يلي :

- أن يستعمل اللين والتودد، لا الفظاظة والغلظة. وعليه أن يتحلى بالشفقة على الخلق لوقوعهم في مصايد الشيطان.

- أن يكون صبوراً متواضعاً زائل الهوى قوي اليقين حكيماً يعرف كيف يعالج الأمور.

- أن يامر العاصي وينهاه في خلوة بما ذلك من إمكانية قبول النصيحة، فإن لم ينفع استعان عليه باهل الخير، فإن لم ينفع فباصحاب السلطان [91].

- عدم الخوض في مسائل الاختلاف أمام من يعتقدونها، فمثلاً في مذهب الحنابلة ينكرون اللعب بالشطرنج بينما يجيزه الشافعية، فالدخول في مثل هذه القضايا يثير تصلب المخالفين من المذاهب الأخرى ويفتح باباً للجدل والخصومة، فالحكمة هنا واجبة وأدب العالم أولى من علمه [92].

6- مدارس النواحي والأرياف والبوادي :

تعتبر مدرسة الإمام عبد القادر الجيلي في بغداد من المدارس المركزية في عاصمة الدولة العباسية في عهد نور الدين زنكي ويعتبر الإمام عبد القادر أحد رواد المدراس الإصلاحية التي أثرت في حركة النهوض ومقاومة الغزاة، إلا أن هناك كانت مدارس متعددة ساهمت في دعم الدولة الزنكية والأيوبية ومن أهمها :

أ- المدرسة العدوية : أسس هذه المدرسة الإمام عدى بن مسافر الذي أدرجه ابن تيمية في قائمة (كبار الشيوخ المتاخرين " وأضاف أنه كان رجلاً صالحاً وله أتباع صالحون [93] ، ونشا عدي في قرية يقال لها "بيت فار" في منطقة البقاع غربي دمشق، تتلمذ على الإمام عقيل المنيحي ثم رحل إلى بغداد حيث صحب الإمام حماد الدباس وغيره واجتمع هناك بالإمام عبد القادر الكيلاني وأبي الوفاء الحلواني، وأبي نجيب السهر وردي، ثم ركز على خاصة نفسه، بانواع المجاهدات والتهذيب زمناً خويلاً، ولذلك كان الإمام عبد القادر يثنى عليه كثيراً ويقول : لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الإمام عدي بن مسافر [94] قضى الإمام عدي زمناً في مجاهدة "خاصة نفسه" بالتزكية، ثم عاد للمجتمع واستقر في منطقة " جبال هكار " في شمال العراق بين قبائل الأكراد الهكارية، حيث بنى له مدرسة وأقبل عليه سكان تلك النواحي إقبالاً هائلاً، لما رأوه من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد

---

[91] نشاة القادرية ص 168.

[92] نشاة القادرية ص 168.

[93] فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف (103/11).

[94] النجوم الزاهرة (362/5).

الناس [95]، ويصف ابن خلكان أثر الإمام عدي في مجتمع الأكراد الهكارية فيقول : سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد [96] ويذكر الذهبي أن من الآثار التي أحدثها الإمام عدي بين الأكراد الهكارية انتشار الأمن في تلك المنطقة وارتداع مفسدي الأكراد وتوبتهم حتى صار لا يخاف أحد في تلك المنطقة الجبلية التي لم تكن آمنة قبل ذلك، وأنه انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره. لقد وصف الحافظ عبد القادر الرهاوي شخصية الإمام عدي ومكانته فقال : ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات ثم سكن بعض جبال الموصل في موضع ليس به أنس، ثم أنس الله تلك المواضع به وعمّرها ببركاته حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل، وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمّر حتى انتفع به خلق، وانتشر ذكره، وكان معلماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، لا تاخذه في الله لومة لائم عاش قريباً من ثمنين سنة، ما بلغنا أنه باع شيئاً ولا اشترى ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم من الجبل ويحصدها ويتقوت، وكان يزرع القطن ويكتسي منه، ولا ياكل من مال أحد شيئاً، وكانت له أوقات لا يُرى فيها محافظة على أوراده وقد خفت معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء ثم لا نراه إلى الصبح. ورأيته إذ أقبل إلى قرية يتلقاه أهلها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالهم ونساؤهم إلا من شاء الله منهم، ولقد أتينا معه على دير رهبان فتلقانا منهم راهبان، فكشفا رأسيهما وقبّلا رجليه وقالاً : أدع لنا فما نحن إلا في بركاتك وأخرجاً خبقاً فيه خبز وعسل فاكل الجماعة وخرجت إلى زيارة الإمام أول مرة، فاخذ يجادلنا ويسال الجماعة ويؤانسهم.. وكان يواصل الصوم الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا ياكل شيئاً قط، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً وأكله بحضرة الناس واشتهر عنه الرياضات والسير والكرامات والانتفاع به ما لو كان في القديم لكان أحدوثة. ورأيته قد جاء إلى الموصل فخرج إليه السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوام حتى آذوه مما يقبّلون يده، فاجلس في موضع بينه وبين الناس شباك بحيث لا يصل إليه أحد إلا رؤية، فكانوا يسلمون عليه وينصرفون ثم رجع إلى زاويته [97].

قال عنه الذهبي : الإمام الإمام الصالح القدوة، زاهد وقته [98].

---

95 وفيات الأعيان (254/3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 225.

96 المصدر نفسه.

97 سير أعلام النبلاء (342،343/20).

98 سير أعلام النبلاء (342/20).

وقد ظهرت الآثار العلمية والعملية لمدرسة عدي بن مسافر في الدور الكبير الذي لعبه أكراد جبل هكار - فيما بعد - في جيش صلاح الدين حيث شكّلوا أهم فرقة، واحتل عدد منهم منزلة الأمراء والقادة الذين حقّقوا الانتصارات وأنجزوا الفتوح [99]. توفي الإمام عدي بن مسافر في بلدة الهكارية ودفن بها عام 557هـ [100].

ب- مدرسة عثمان بن مرزوق القرشي : أسس هذه المدرسة الإمام عثمان في "مصر" وكان يعُتبر من أعيان المشايخ الذين جمعوا بين الشريعة والزهد. كان حنبلي المذهب، وكانت له علاقات مع الإمام عبد القادر الكيلاني. لقد لعب - فيما بعد - دوراً هاماً في تمهيد الأجواء لحملات نور الدين على مصر. استمر الإمام عثمان في عمله بالقاهرة حتى وفاته عام 564هـ عن عمر يناهز السبعين ودفن بجانب قبر الإمام الشافعي [101].

ج- مدرسة أبو مدين المغربي : اشتهرت هذه المدرسة في "المغرب" وعرفت باسم الإمام أبي مدين شعيب بن حسين الأندلسي الذي نشا في منطقة أشبيلية في الأندلس ودرس فيها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ثم سلك طريق الزهد وجال في المغرب واستوطن مدة في مدينة (بجاية) إلى أن استقر به الطواف في مدين "تلمسان " وبدأ في الإرشاد والتدريس حيث تخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها [102]، ويصف الذهبي الإمام أبا مدين بانه كان من أهل العمل والاجتهاد والانقطاع للعبادة والنسك والتربية [103]. كذلك اعتبره ابن تيمية من كبار الشيوخ المتآخرين الذين كانوا على طريقة صالحة ومنهج مستقيم [104]. واستمر أبو مدين مواظفاً على التدريس والعبادة حتى وافاه الأجل حوالي عام 590هـ وكان آخر كلامه : الله الحي، ثم فاضت نفسه [105].

---

99 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 256.

100 قلائد الجواهر ص 85 - 90.

101 المصدر نفسه ص 113 - 114.

102 المصدر نفسه ص 108 ، 109 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 237.

103 سير أعلام النبلاء (219/21، 220).

104 فتاوى ابن تيمية ، كتاب التصوف (604/11).

105 سير أعلام النبلاء (220/21).

ح- مدرسة أبو السعود الحَريمي : درس في المدرسة القادرية وتربّى على الإمام عبد القادر وصار المشار إليه بعده وصار له القبول التام عند الخاص والعام، وأسس مدرسة خاصة به ونجح نجاحاً قويا بين جماهير الفقراء وفتح لهم بابه [106].

خ- مدرسة ابن مكارم النعال : تنُسب هذه المدرسة إلى محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الذي كان يُشرف على رباط الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية ثم استقل بعد وفاة عبد القادر وصار يخرج باصحابه لينكروا المنكر ويريقوا الخمور ويتعرضوا للأذى في سبيل ذلك [107].

د- مدرسة عمر البزاز : تنسب هذه المدرسة إلى عمر بن مسعود البزاز الذي وصُف بانه من أعيان أصحاب عبد القادر. شاع ذكره وأقبل عليه الأتباع، وتاب على يده خلق كثير من مماليك الخليفة، ويذكر ابن النجار أنه كان يحضر مجالسه [108].

ذ- مدرسة الجبائي : أسسها عبدالله الجبائي الذي كان في الأصل مسيحياً من قرية "جبة" في جبل لبنان سُبي وهو فتى ثم نُقل إلى دمشق حيث أسلم هناك، فاشتراه على بن إبراهيم بن نجا أحد أصحاب عبد القادر، فاعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام 540هـ/1145م حيث لازم الإمام عبد القادر وصحب ابن قدامة في الدراسة، وتدل أخباره أن الإمام عبد القادر كان يرعاه ويوده. نال الجبائي منزلة عالية في بغداد وظل يعمل مع الإمام حتى وفاته، فرحل إلى أصبهان حيث درس وأفتى حتى وفاته عام 605هـ/1208م عن أربع وثمانين سنة [109].

ر- مدرسة الإمام ماجد الكردي : أسس هذه المدرسة ماجد الكردي في منطقة "قوسان" في العراق وكان قد اشتهر أمره في تلك المنطقة وقصده المريدون والأتباع من مختلف أرجائها. وكان على علاقة وخيدة بالإمام عبد القادر الذي كان يجله ويثني عليه ولقد استمر في عمله حتى وفاته عام 562 [110] هـ.

ز- مدرسة حياة بن قيس الحراني : الإمام القدوة الزاهد العابد، شيخ حرّان، وزاهدها، حياة بن قيس ابن رَجَّال بن سلطان الأنصاري الحراني، صاحب أحوال وكرامات وتالهٌ وإخلاص وتعفف وإنقباض، كانت الملوك يزورونه، ويتبرّكون، بلقائه وكان كلمة وفاق بين أهل بلدة وقيل : إن

[106] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 237.

[107] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 237.

[108] نشاة القادرية ص 194 - 212.

[109] ذيل خبقات الحنابلة (45/2 - 47).

[110] قلائد الجوهر ص 107.

السلطان نور الدين زاره، فقَّوى عزمه على جهاد الفرنج ودعا له وإن السلطان صلاح الدين زاره وخلب منه الدعاء [111]. وقد تخرج على يد الإمام حياة الجم الغفير من الأتباع والمشايخ الذين استأنفوا منهجه في الدعوة والإصلاح، وانتمى إليه أعداد عظيمة من الناس وأشار إليه العلماء بالاحترام والتقدير. وكان أهل حران وما حوله يجلّونه ويقصدونه بالزيارة وخلب الدعاء للاستسقاء. لقد استمر في عمله حتى وفاته في حران نفسها عام 581هـ [112].

وقد ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مدارس أخرى كالمدرسة كمدرسة الإمام رسلان الجعبري، ومدرسة عقيل المنيحي، ومدرسة الإمام علي بن الهيتي، ومدرسة الحسن بن مسلم، ومدرسة الجوسقي، ومدرسة الإمام عبد الرحمن الطفسونجي، ومدرسة مولى الزولي، ومدرسة محمد بن عبد البصري، ومدرسة القيلوي، ومدرسة علي بن وهب الربيعي، ومدرسة الإمام بقا بن بطو [113] ومما يكمل الصورة للمدارس التي تناولها البحث في مدارس النواحي والأرياف والبوادي أن نقول إنها كانت تطبق منهاجاً موحداً في التربية والتدريس يتطابق إلى حد كبير إلى التعاليم والمبادئ التي دعا لهما الغزالي والجيلي ، وأنها كانت امتدادات أصغر في الأرياف والجبال والبوادي بحيث يمكن القول أنها بلغت المئات، لأن الأمر لم يتطلب أكثر من استقرار أحد الخريجين في مسجد من مساجد الريف مثلاً، أو الإقامة في رباط أو زاوية وتكريس الوقت للتدريس وسلوك الزهد [114].

7- التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية :

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الإمام عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية [115]. وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصرة الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدوا مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي :

أ- الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناخق الاحتلال الصليبي: قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناخق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناخق الثغور والمرابطة. ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون " باسم المقادسة

111 سير أعلام النبلاء (181/21 - 182).

112 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 230.

113 المصدر نفسه ص 224 إلى 238.

114 المصدر نفسه ص 238.

115 المصدر نفسه ص 187.

" نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد من ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول أن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمران : الأول : حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين : والثاني : ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولابد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة [116] ، فقد توثقت الصلات بين الإمام عبد القادر ونور الدين فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الإمام عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناخق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية [117]، وكانت المدرسة القادرية، والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تاتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا خريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تُعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية ويذكر سبط ابن الجوزي في كتابه " مرآة الزمان " أن والد موفق الدين بن قدامه حين نزح من بلاده إلى دمشق كان يقوم بنشاط دائب لحشد الطاقات في مواجهة الاحتلال الصليبي، وأن داره في دمشق كانت ملتقى القيادات الفكرية والسياسية، وأن نور الدين زنكي نفسه كان يداوم على حضور هذه اللقاءات [118].

ب- هجرة العلماء والعمل في المدارس النورية : تداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل في المدارس التي أنشاها نور الدين وصلاح الدين. ومن ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس المهاجرين إلى هناك موسى بن الإمام عبد القادر الذي قدم إلى دمشق واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام 618هـ/1221م [119] . كذلك بنى نور الدين مدرسة في حرّان وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى (606هـ/1209م) والذي درس على الإمام عبد القادر ثم عاد إلى الشام، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسمارية، وأسند إليه القضاء [120] ، ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد [121] ، كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى في حرّان أسلمها إلى حامد بن محمود (المتوفى عام

[116] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 275.

[117] الإمام عبد القادر الجيلي الإمام الزاهد القدوة ص 275.

[118] مرآة الزمان (8/314،313).

[119] شذرات الذهب (5/199) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 276.

[120] العبر(5/17) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 277.

[121] الدارس في أخبار المدارس (2/115).

570هـ/1174م الذي لازم الإمام عبد القادر ودرس عليه وكان نور الدين يقبل عليه وله فيه حسن ظن [122].

ج- المشاركة في الجيش والجهاد العسكري : وأبرز المدارس التي رفدت هذا الميدان هي المدرسة العدوية وفروعها، التي أسسها الإمام عدي بن مسافر في جبال هكار، فقد شكل خريجو هذه المدارس من الأكراد الهكارية والروادية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده، ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي وهي من الأكراد الروادية، وأصلهم من بلدة "دوين" من أعمال أذربيجان والروادية قبيلة كبيرة. ولقد وُلد أيوب والد صلاح الدين في البلدة المذكورة ومنها خرج والده شاذي مع ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت حيث مات الوالد شاذي، وولد الحفيد صلاح الدين، ثم لم يلبث الأخوان أن رحلا والتحقا بخدمة عماد الدين زنكي [123] وأما الأكراد الهكارية فقد شكّلوا فيما بعد أمراء جيش صلاح الدين وقادته ومن أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة وكانوا يسمونه الأمير الكبير توفي في القدس عام 588هـ وقد وصف القاضي الفاضل موته بانه : تهدم به بنيان قوم والدهر قاض ما عليه لوم ، واذا مااتفقنا على هذا من ان الإمام عبد القادر كان على وعي وقناعة وايمان بان الجهاد على درجات الايمان وان محاربة الظلم والظالمين والعدوان المعتدين افضل انواع العبادة ، فلنا ان نقول باطمئنان ان الإمام ابرز المجاهدين واشهرهم في محاربة الغزاة الصليبيين [124].

8- صفاته ووفاته : وصف موفق الدين ابن قدامة المقدسي الإمام عبد القادر فقال : كان الإمام عبد القادر نحيف البدن ربع القامة عريض الصدر، عريض اللحية وخويلها، أسمر مقرون الحاجبين أدعج العينين، ذا صوت جهوري وسمت وقدر [125] ، وكان وافر النشاط دائم الحركة يرى في الشتاء وكانه في الصيف يتصبب العرق من جسده [126]، وكان يلبس هيئة مخصوصة ويتطليس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه [127].

---

[122] طبقات الحنابلة نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 277.

[123] وفيات الأعيان (7/139 - 143).

[124] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 279.

[125] مرآة الجنان لليافعي (3/352).

[126] طبقات الحنابلة (1/299).

[127] عوارف المعارف ص 356 نشأة القادرية ص 131.

وقد أخنب المؤرخون الذين ترجموا لعبد القادر في وصف أخلاقه، فذكروا أن سكوته كان أكثر من كلامه، فإذا تكلم كان كلامه على الخواخر، وكان دائم البشر شديد الحياء، لين الجانب وكانت له عناية بالفقراء والمساكين فقد كان يجالس الفقراء ويغلي لهم ثيابهم ويقف مع الصغير ولكنه يحرص على أن لا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة وكان لا يرد سائلاً وكان يكرم جليسه بحيث لا يظن أن أحداً أكرم عليه منه، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسال عن شانهم ويحفظ ودهم ويعفو عن سيئاتهم ويصدق من حلف له ويخفي علمه فيه وكان يامر كل ليلة بمد السماط وياكل مع الأضياف والفقراء، وكان إذا أهديت له هدية فرقها أو بعضها على من حضر ويكافيء عليها مهديها [128] ، مع أنه لم يكن يخرج من مدرسته إلا للمسجد أو الرباط فقد كان سريع الذهاب لمشاركة الناس أحزانهم، فلو راجعنا ماكتبه ابن الجوزي، وابن رجب، وسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، وابن العماد الحنبلي لوجدنا الكثير من المتوفين المشهورين من العلماء وأرباب الخير يقال عن أحدهم " صلى عليه الإمام عبد القادر [129] وكان الإقبال على الطاعة والخضوع إلى الله وكان كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة [130] ، وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاق يزرعها له كل سنة وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز له منها ويكون غذاؤه [131] منها وكان لا يمس الذهب بيده فإذا جاء أحد بذهب قال له : ضعه تحت السجادة، فإذا جاء خادمه قال له : ما تحت السجادة وأعطه الخباز والبقال . [132]

- وفاته: أجمع المؤرخون على أن الإمام عبد القادر الجيلي رحمه الله قد توفي عام 561هـ [133] ، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة [134] وقيل : إنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط [135].

وقد ساله ابنه عن مرضه فقال له : لا يسالني أحد عن شيء، أنا أتقلّب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وساله ابنه الإمام عبد الجبار ماذا يؤلمك من جسمك؟

---

128 نشأة القادرية ص 132.

129 المنتظم (85/10، 122) نشأة القادرية ص 132.

130 خبقات الحنابلة (292/1) نشأة القادرية ص 133.

131 نشأة القادرية ص 133.

132 بهجة الأبرار ص 104 نشأة القادرية ص 133.

133 الإمام عبد القادر الجيلي ص 265 للكيلاني.

134 نشأة القادرية ص 133

135 الإمام عبد القادر الجيلي لعبد الرزاق الكيلاني ص 265.

فقال رحمه الله : جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله عز وجل وكان يقول رحمه الله تعالى : أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد : استعنت بلا إله إلا الله سبحانه من تعزَّز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة : تعزز فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد : الله، الله، الله ، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رحمه الله [136] .

وقبل وفاته ساله ابنه عبد الوهاب الوصية فقال له : عليك بتقوى الله عز وجل وطاعته ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً. سوى الله، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل، واطلبها جميعها منه، ولا تثق باحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، وعليك بالتوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد. ثم قال : مّروا باخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ [137] .

وقد تّم دفنه ليلاً في مدرسته ولم يتمكن أهله وأصحابه من دفنه في النهار من كثرة الزحام، إذ خرج أهل بغداد وامتلأت الحلبة والأسواق والدروب، وقد ولد له تسع وأربعون ولدا، سبعة وعشرون ذكراً، والباقي إناثاً وتزوج أربع زوجات، وفيما يتعلق بزواجه قال الإمام عبد القادر : كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله تعالى إليّ أربع زوجات، ما منهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة [138] . ومن أقواله : الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربّك [139] وقال عنه الذهبي : ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الإمام عبد القادر لكن كثيراً منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة [140] .

وقال عنه ابن كثير : وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة وقد كان صالحاً ورعاً وقد صنّف كتاب "الغنية "

[136] المصدر نفسه ص 266.

[137] الفتح الرباني ص 373، فتوح الغيب ص 130.

[138] قلائد الجواهر ص 41 أي أنهن بنات أغنياء أو يعرفن صنعة من الصفات.

[139] سير أعلام النبلاء (450/20).

[140] المصدر نفسه (450/2).

"وفتوح الغيب " وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدّس الله روحه ونّور ضريحه [141].

كان للشيخ عبد القادر تسعة و أربعون ولداً، سبعةٌ و عشرون ذكراً و الباقي إناث[142]، ومنهم:

عبد العزيز بن الإمام عبد القادر (ت 602 هـ)، تفقه على والده، وحدث ووعظ ودرّس و تخرج به غير واحد، ورحل إلى إحدى قرى سنجار و استوخنها[143] في حدود سنة 580 هـ بعد أن غزا عسقلان وزار القدس وكانت ذريته في سنجار في منتصف القرن العاشر والرجل احد قادة جيش صلاح الدين الايوبي ومستشاريه [144].

عيسى بن الإمام عبد القادر (ت 593 هـ)، تفقه على والده وسمع منه الحديث ومن غيره، ودرس وحدث ووعظ و أفتى، وصنف كتاب جواهر الأسرار و لطائف الأنوار في علوم الصوفية، وقدم مصر بعد وفاة والده وحدث بها ووعظ وتخرج به جماعة من أهلها، وتوفي فيها[145]، وقد لبس منه خرقة التصوف القادرية بعض أهل مصر [146].

عبد الوهاب بن الإمام عبد القادر[147] (522 هـ - 593 هـ)، كان فقيهاً حنبلياً واعظاً، قرأ الفقه على والده حتى برع فيه، ودرّس بمدرسة والده وهو حي نيابة عنه في مستهل سنة 543 هـ وقد تجاوز العشرين من عمره، ثم بعد وفاة والده اشتغل بالتدريس، وكان أميز اخوانه، وكان

---

[141] البداية والنهاية (420/16).

(142) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 39، ص 97، نقلاً عن ابن النجار. العمري، مسالك الأبصار، ج 8، ص 196. ابن الدمياطي، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ص 128. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 19، ص 28.

([143]) الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 242. الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 253 (الرقم 926).

([144]) الكيلاني ،جمال الدين فالح، الإمام عبد القادر الكيلاني، ص 91.

([145]) الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 241-242. الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 42، ص 141. التادفي، قلائد الجواهر، ص 90-91.

([146]) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 44، ص 514 (الرقم 704).

([147]) انظر ترجمته في: ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج 1، ص 208. أبو شامة، شهاب الدين ابو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي، (ت 665 هـ). تراجم الرجال القرنين السادس و السابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط 2، (صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره وراجع أصله عزت العطار الحسيني)، دار الجيل، بيروت، 1974. ص 12. الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 241. الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 258 (الرقم 94). تاريخ الاسلام، ج 42، ص 134. وانظر ج 41، ص 77. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 19، ص 204 (الرقم 7412). ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج 1، ص 388 (الرقم 196). التادفي، قلائد الجواهر، ص 89. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 6، ص 514.

فصيح الوعظ حادّ الخاطر وله مروءة وسخاوة، وقد جعله الناصر لدين الله على المظالم فكان يوصل إليه حوائج الناس[148] وكان ذلك سنة 583 هـ[149]، وبنى تربة الجهة الخلاخية سلجق خاتون و تولى وقفها بامر من الخليفة الناصر لدين الله[150]. وروسل من الديوان العزيز إلى الشام[151].

وكان عبد الوهاب قد رحل إلى بلاد الهند في خلب العلم، وتخرج به غير واحد[152]، وقرأ عليه ابن الدبيثي بعض الأحاديث[153].

وفي سنة 588 كفت يد عبد الوهاب عن وقف الجهة الخلاخية وأخرج ابناء الإمام عبد القادر عن مدرستهم و سُلّمت إلى عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597 هـ) وذلك بسبب الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن الإمام عبد القادر[154]، ثم رُدّت المدرسة إلى أبناء الإمام عبد القادر بعد أن قبض على الوزير ابن يونس (ت 593 هـ)[155].

عبد الرزاق بن الإمام عبد القادر[156] (528 – 603 هـ) كان ثقة حافظاً[157] زاهداً عابداً ورعاً " لم يدخل فيما دخل فيه غيره من إخوته[158]" وكان فقيهاً صالحاً[159]، تفقه على والده وحدث

([148]) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج 1، ص 208-209.

([149]) ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج1، ص 389.

([150]) ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص 12. الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 42، ص 135، و انظر: ج 41، ص 77.

([151]) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 42، ص 135. ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 1، ص 389.

([152]) الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 241.

([153]) الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 258.

([154]) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 41، ص 77.

([155]) ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 1، ص 389. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 6، ص 515.

([156]) انظر ترجمته في: ابن نقطة، كتاب التقييد، ج 2، ص 109 (الرقم 437). أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 58. ابن الساعي، الجامع المختصر، ص 214-215. الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 242-243. الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 261 (الرقم 958). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 18، ص 248 (الرقم 6974). ابن كثير، البداية و النهاية، ج 13، ص 56. ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 2، ص 40-41 (الرقم 221). التادفي، قلائد الجواهر، ص 92-93. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 7، ص 18-19.

([157]) ابن نقطة، كتاب التقييد، ج 2، ص 109.

([158]) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 58. وقال ابن كثير في البداية و النهاية " لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات " ج 13، ص 56.

([159]) ابن الساعي، الجامع المختصر، ص 214-215.

وأملـى ودرّس وخـرّج وأفتـى، وتخـرج بـه جماعـة[160]، "لكـن معرفتـه بالحـديث غطـت علـى معرفتـه بالفقـه[161]"، وكـان منقطعـاً في منزلـه عـن النـاس لا يخـرج إلاّ في الجمعـات، "وكـان خشـن العـيش صـابراً علـى فقـره، عزيـز الـنفس عفيفـاً علـى منهـاج السـلف"[162]، وهـو والـد قاضـي القضـاة ابـي صـالح نصر بن عبد الرزاق .

ومـن أحفـاد الإمـام عبـد القـادر الـذين لهـم صـلة بموضـوع البحـث: قاضـي القضـاة أبـو صـالح نصـر بـن عبـد الـرزاق بـن عبـد القـادر الجيلـي[163] (ت 633 هـ)، كـان فقيهـاً حنبليـاً واعظـاً، وكـان مقـدم مذهبـه وشـيخ وقتـه، درّس في مدرسـة جـده وغيرهـا، وقلـد قضـاء القضـاة في خلافـة الظـاهر بـامر الله "ولم يقلـد قضـاء القضـاة حنبلـي سـواه"، فسـار سـيرة حسـنة مـن فـتح بابـه ورفـع حُجابـه والجلـوس للنـاس عمومـاً والاذان علـى بابـه والخـروج إلى صـلاة الجمعـة راجـلاً، ثـم عـزل سـنة 623هـ فرجـع إلى مدرسـة جـده يـدرس ويفـتي، ولما تكامـل بنـاء الربـاط المسـتجد بـدير الـروم جُعـل شـيخاً علـى مـن بـه مـن الصـوفية إلى أن توفي[164]، "وتخرج به في علمي الشريعة والحقيقة أناس من اهل بغداد "[165].

ولـه كـلام حسـن في إشـارات الصـوفية[166]. وكـان مقـداماً مـن الرجـال لا يهـاب، ولـه أشـعار في الزهـد، وفي سـنة 630هـ انفـذ رسـولاً إلى الموصـل واربـل[167]. وقـد ألّـف في التصـوف، وبنيـت لـه دكـة بجـامع القصـر للمنـاظرة، وكـان لـه قبـول تـام، وكـان يحضـره أنـاس كـثيرون، ويبـدو أنـه كـان يتمتـع

([160]) الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 242-243.

([161]) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج 2، ص 41.

([162]) المصدر نفسه، ج 2، ص 41. نقلاً عن ابن النجار.

([163]) انظر ترجمته في: الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 245. مجهول، الحوادث، ص 115-117. الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن احمد الحنبلي، (ت 723 هـ). تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، الجزء الرابع، 3 م، (تحقيق الدكتور مصطفى جواد)، وزارة الثقافة و الارشاد القومي، دمشق، 1962-1965. ج 4، قسم 2، 873 (الرقم 1295). الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 356 (الرقم 1363). تاريخ الاسلام، ج 46، ص 173. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 27، ص 46 (الرقم 36). ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج 2، ص 189 (الرقم 307). ابن العماد، شذرات الذهب، ج 7، ص 281.

([164]) مجهول، الحوادث، ص 115-117. ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج 2، ص 191.

([165]) الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 245.

([166]) الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 356.

([167]) الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، 4،قسم 2، 874.

بمكانة كبيرة عند الناس إلى الحد الذي جعلهم يدفنونه في دكة الإمام احمد بن حنبل، إلاّ أنه قبض على من فعل ذلك، ثم نبش القبر ليلاً بعد أيام ونقل جثمانه إلى مكان آخر[168].

ويبدو ان نصراً قد التقى بالإمام محي الدين بن عربي وجرى بينهما مناظرة في حديث من احاديث الصفات[169]. كما يذكر انه ولي النظر في جميع الوقوف العامة ووقوف المدارس الشافعية والحنفية وغيرها، فكان يولي ويعزل في جميع المدارس حتى النظامية، وكان المستنصر يعظمه ويجله ويبعث إليه أموالاً كثيرة ليفرقها[170].

يستنتج مما تقدم انه استمر احترام الناس، الخاصة منهم والعامة، لأبناء الإمام عبد القادر الجيلي واحفاده، وبخاصة الذين حملوا منهم رسالة الإمام عبد القادر، خيلة القرن السادس وحتى سقوط بغداد بيد التتار سنة 656 هـ. وقد تابع اكثرهم خريق الإمام عبد القادر في الفقه و التصوف فكان منهم محدثون وفقهاء ومفتون ومدرسون وقضاة، وكانوا كلهم حنابلة. وقد كان ارتحال بعض أبناء الإمام عبد القادر إلى خارج بغداد، واستيطانهم وتناسلهم حيث استقروا، من العوامل التي ساهمت في انتشار التصوف خارج بغداد كالجبال وبلاد الجزيرة و الشام ومصر والمغرب والاندلس .

(168) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 46، ص 174-175.

(169) ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 2، ص 190.

(170) المصدر نفسه، ج 2، ص 190-191.

آداب الصحبة عند عبد القادر الجيلي :

1- واجبات المريد : وضع الإمام عبد القادر جملة من الواجبات التي يلتزم بها المريد المبتدئ يمكن حصرها فيما يلي :

أ- الاعتقاد الصحيح هو الأساس .

ب- التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمراً ونهياً أصلاً وفرعاً.

ج- الصدق والاجتهاد والإخلاص مع الله والوفاء بوعده وامتثال امره والاستمرار في عبادته ومرضاته ومحبته وكل ما يؤدي إلى قربه.

ح- الحذر من التقصير ومخالطة المقصرين أبناء القيل والقال أعداء الأعمال والتكاليف المدعين للإسلام.

خ- الإتصاف بصفة الكرم مع اليقين والاعتقاد أن الله لم يخلق ولياً بخيلاً.

س- الرضا بعدم الشهرة وخمول الذكر وترك الغرور وقتل الشهوات والرضا بالجوع والحرمان.

ش- الايثار وتقديم أقرانه عند الإمام وفي مجالس العلم، وعند العلماء وأصحاب الفضل فيجوع هو يشبع الباقون ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.

ر- أن يطلب من الله الستر ومغفرة ما سلف من الذنوب والعصمة فيما بقي من العمر والتوفيق لما يحبه الله سبحانه من الأعمال الصالحة والرضا عنه في حركاته وسكناته.

ز- أن يتحبب إلى الشيوخ وإلى جميع الصالحين وأن يعفو ويصفح عن زلات الغير وإساءات الناس إليه.

ع- أن يزهد في الملذات وأن يقاوم الرغبة في التوسع في الشهوات (171). هذه هي مجمل الواجبات التي ينبغي على المريد أن يقوم بها وهي كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونيل الصفات (172).

2- **آداب المريد مع الإمام :** نظراً لأهمية صلة المريد بالإمام فقد وضع الإمام عبد القادر الجيلي آداباً خاصة بالمريد تجاه شيخه الذي سيصحبه وهي :

أ- طاعته وعدم مخالفته في الظاهر أو الاعتراض عليه في الباطن مع الإكثار من قراءة " ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين ءامنوا " (الحشر، آية : 10).

---

[171] الغنية للجيلاني (163/2) بتصرف يسير.

[172] الإمام عبد القادر الجيلي ص 530.

وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفر منه الإمام بسببه.

ب- أن يستر ما قد يرى من عيوب الإمام ويتهم نفسه فربما وقع ذلك لعدم فهمه مراد الشيخ، فإذا لم يجد للشيخ عذراً استغفر له ودعا بالتوفيق ولا يخبر أحداً بما حدث منه ولا يعتقد أن الإمام معصوم، وإنما حصل منه وإنما هو عن غفلة.

ت- ملازمة الإمام وعدم الانقطاع عنه وإذا حدث وأن عبس في وجهه أو غضب عليه أو ظهر إعراض فليفتش في نفسه وما عسى أن يكون قد وقع منه من سوء أدب أو تفريط بترك أمر الله أو فعل نهيه وعليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل.

ث- أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه وأن يفعل معه ما يسره.

ح- أن يحظى الإمام بثقة مريده ويقينه بانه أهل لأن يتلقى العلم والمعارف على يديه.

ج- أن يحذر من مقارفة الذنوب لأنها تذهب ببركة العلم وتغير الحال كما حدث لآدم حينما أخرج من الجنة بسبب الذنب.

س- ألا يتكلم أمام شيخه إلاَّ للضرورة وأن يسكت إذا دارت مسالة عند شيخه ولو كان الجواب عنده بل ينتظر ما يقوله شيخه ولا يعارض (173).

3- **الآداب المتعلقة بالإمام تجاه مريده :**

أ- أن يقبله لله تعالى ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين فيكون معه كابيه وأمه شفقة ورحمة وألاَّ يحمله مالا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع ومن الرخص إلى العزائم.

ب- إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه باوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.

ح أن يثبته على الطريق وألاَّ يعمل ما من شانه التنفير لأن القصد هو الله وما كان لله دام واتصل.

س- أن يراقب سلوكه فإذا رأى مخالفة للشرع وعظه وزجره وحّذره من العودة ورغبَّة في التوبة إلى الله.

ع- أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق، لأنه محل القدوة والرحمة يرعى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبئه (174).

---

[173] الغنية للجيلاني (164/2).

4- آداب صحبة الإخوان : بدأ الإمام عبد القادر الجيلي تلك الآداب ببيان آداب صحبة الإخوان وما ينبغي مراعاته في التعامل معهم. من ذلك.

أ- الإيثار والصفح عنهم والقيام معهم في شؤونهم وتقديم الخدمة الممكنة لهم.

ب- ألا يرى له على أحد حقّاً ولا يطالب أحداً بحق بل يرى أن لكل منهم عليه حقاً ثم يجتهد في أداء حقوقهم.

ت- أن يظهر لهم الموافقة في جميع ما يقولون أو يفعلون - وهذا محمول بالطبع على قول الحق والفعل الحسن - وأن يتاول لهم ويعتذر عنهم.

ج- أن يجتنب مجادلتهم ومخالفتهم ويتعامى عن عيوبهم فإن خالفه أحد منهم في شيء سلَّم له ما يقول في الظاهر وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقول (175)- وهذا أيضاً محمول على كون الخلاف في الأمور العادية والحياتية أما إذا كان الخلاف في شيء من الشرع فلا بُّد من بيان الحق بدليله وعدم الموافقة على الباطل.

ر- أن يجتنب فعل ما يكرهونه من حق أو أذية أو غيبة (176).

س- أن يكون المعيار لعلاقات الإنسان بالآخرين هو الحب في الله - عز وجل - والبغض فيه يقول في هذا المعنى : إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبَّه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة، فابشر بموافقتك لله عز وجل ولرسوله وإن كانت أعماله فيهما محبوب وأنت تبغضه فاعلم بانك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالماً له ببغضك إياه وعاص لله عز وجل ولرسوله مخالف لهما فتب إلى الله عز وجل من بغضك وأساله عز وجل محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده. لتكون موافقاً له عز وجل، وكذلك أفعل بمن تحبه يعني أعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فاحببه، وإن كانت مبغوضة فابغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك قال عز وجل : " ولا تتبع الهوى فيُضلَّك عن سبيل الله (ص، آية : 26) (177) . وهكذا ومن خلال تلك الآداب فإننا نرى أن الإمام عبد القادر الجيلي لم يجعل من التصوف حالة انفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان لأن كماله وسمو اخلاقه لا تبرز بمجرد حصوله على المعارف العلوم وإنما تظهر في حالة احتكاكه ومخالطته وتعامله بمن يعيش

---

[174] الغنية للجيلاني (168/2) بتصرف يسير.

[175] الإمام عبد القادر الجيلي ص 534 الغنية للجيلاني (169/2).

[176] الغنية (169/2) الإمام عبد القادر الجيلي ص 535.

[177] فتوح الغيب للجيلاني، المقالة العادية والثلاثون ص 75.

معهم في المجتمع بمختلف فئاته وخبقاته وهو المحك الذي يظهر الإنسان على حقيقته ولذا كان لا بد من مراعاة تلك الآداب حتى تنصلح الأحوال وتتقارب القلوب (178).

المقامات :

1- التوبة كان الإمام عبد القادر الجيلي يركز عليها ويهتم بشانها، قال العلامة أبو الحسن الندوي : ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية قوي الإيمان قوي العلم قوي الدعوى قوي التاثير هو الإمام عبد القادر الجيلي فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصرعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى (179).

والإمام عبد القادر الجيلي يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها يقول : اغتنموا باب التوبة وادخلوا ما دام مفتوحاً لكم (180)، ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول : تب واثبت على توبتك فليس الشان في توبتك الشان في ثبوتك عليها ليس الشان في غرسك الشان في ثبوته وتغصينه وثمرته (181) . قد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي إذ يقول : يا غلام لا تياس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل أغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها(182) .

وعن التائبين يصنف الإمام عبد القادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف : توبة العوام وتوبة الخواص وتوبة خاص الخاص ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل، ثم يوضح معنى قوله تعالى : " وتوبوا إلى الله جميعاً أية المؤمنون لعلكم تفلحون " (النور ، آية : 31) بان هذا : خطاب للعموم بالتوبة وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع يقال تاب فلان من كذا أي رجع عنه فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بان الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله عز وجل ومن جنته وتركها مقرب إلى الله عز وجل

---

[178] الإمام عبد القادر الجيلي ص 535 ، 536.

[179] رجال الفكر الدعوة نقلاً عن الإمام عبد القادر ص 597.

[180] الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الرابع ص 18.

[181] الإمام عبد القادر الجيلي ص 597.

[182] الفتح الرباني ، المجلس الثالث عشر ص 48.

وجنته فكانه عز وجل يقول : أرجعوا إلي من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا رحمتي الجنة العليا المعدة للأبرار (183)، كما يقرر الإمام عبد القادر الجيلي أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها (184) .

ثم يعرف الكبائر بانها : ما توعَّد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا وأن بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة : أربع في القلب، وهي الشرك بالله والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله وأربع في اللسان : وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر. وثلاث في البطن وهي : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا. واثنتان في الفرج وهما : الزنا واللواط. واثنتان في اليدين، وهما : القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف، وواحدة في جميع البدن : وهي عقوق الوالدين (185). وتحدث عن صدق التوبة : وصحتها ووضع لها شروط ثلاثة

أولها : الندم على ما عمل من المخالفات :

وثانيها : الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

وثالثها : العزم على ألا يعود إلى ما اقترف من المعاصي، والخطيئات (186) . ووضع الإمام عبد القادر الجيلي للتوبة معياراً دقيقاً هو : توجّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وإنسكاب عبراته فيعزم على ألاَّ يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من شؤم ذلك (187) . ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو أربعة أشياء.

- أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.
- ألاَّ يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة أن يفارق إخوان السوء.
- أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في طاعة ربه (188) .

ويرى الإمام عبد القادر الجيلي أن التوبة على وجهين:

[183] الغنية للجيلاني (116/1).
[184] الغنية (116/1).
[185] المصدر نفسه (117/1).
[186] المصدر نفسه (122/1).
[187] المصدر نفسه (122/1).
[188] الإمام عبد القادر الجيلي ص 600.

أحـدهما : في حـق العبـاد بعضـهم تجـاه بعـض وهـذا لا يتحقـق إلاَّ بـرد المظـالم والتحلـل مـن الحقـوق بإعادتها إلى أصحابها.

والثـاني : يتعلـق بحـق الله تعـالى فتكـون التوبـة منـه بالاسـتغفار الـدائم باللسـان والنـدم بالقلـب والإضـمار علـى ألاَّ يعـود إليـه في المسـتقبل (189) . هـذه هـي التوبـة عنـد الإمـام عبـد القـادر الجيلـي ونظراتـه إليهـا وتوجيهاتـه للتـائبين وقـد أوردهـا بعبـارات جميلـة وترقيقـات بديعـة تـدل علـى حساسـية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها (190).

2- الزهـد : والإمـام عبـد القـادر الجيلـي يفـرق بـين الزاهـد الحقيقـي والمتزهـد الصـوري فيقـول : المتزهد يخرج الدنيا من يديه والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قبله (191)

ويقـول : الصـادق في زهـده تجـيء إليـه أقسـامه فيناولهـا ويلـبس ظـاهره بهـا قلبـه مملـوء مـن الزهـد فيهـا وفي غيرهـا (192) ويقـول : وفي النـاس مـن تكـون الـدنيا بيـده ولا يحبهـا يملكهـا ولا تملكـه تحبـه ولا يحبهـا تعـدو خلفـه ولا يعـدو خلفهـا يسـتخدمها ولا تسـتخدمه يفرقهـا ولا تفرقـه، قـد صـلح قلبه لله عز وجل فلا تقدر الدنيا تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه (193)

ويقـول : المـؤمن لـه نيـة صـالحة في جميـع تصـرفاته لا يعمـل في الـدنيا للـدنيا يـبني في الـدنيا للآخـرة يعمـر المسـاجد والقنـاطر والمـدارس والـربط ويهـذب خـرق المسـلمين وإن بنـى غـير هـذا فللعيـال والأرامـل والفقراء ومالا بدَّ له منه يفعل ذلك حتى يبنى له في الآخرة (194).

وبـين الإمـام عبـد القـادر أن الزهـد لـيس أمـراً سـهلاً يمكـن الإتصـاف بـه دون تعـب أو معانـاة، كمـا أنـه لـيس في قـدرة كـل واحـد أن يكـون زاهـداً ، لأن الزهـد علـى حـد تعـبير الجيلـي : منـة صـالحة وإلاَّ فمـا يقـدر أحـد أن يزهـد في قسـمه. المـؤمن يسـتريح مـن ثقـل الحـرص لا يشـره ولا يسـتعجل. زهـد في الأشـياء قبلـه وأعـرض عنهـا سـرّه واشـتغل بمـا أمـر بـه وعلـم أن قسـمه لا يفوتـه فلـم يطلبـه تـرك الأقسـام تعـدوا خلفـه وتـدل وتسـاله قبولهـا (195) وقـال : يـا غـلام هـذا الزهـد لـيس صـنعة تتعلمهـا لـيس هـو

---

[189] الغنية للجيلاني (126/1).

[190] الإمام عبد القادر الجيلي ص 600.

[191] الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص 106.

[192] المصدر السابق، المجلس الخامس والعشرون ص 89.

[193] المصدر نفسه المجلس الرابع والثلاثون ص 113.

[194] الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس السادس عشر ص 59.

[195] الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثامن والعشرون ص 98.

شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل (196)

والإمام عبد القادر الجيلي يربط بين العلم والزهد، ويرى لا بّد من تلازمهما للوصول إلى الله عز وجل وهذا واضح من قوله : ما وصل من وصل إلاَّ بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها بالقلب والقالب (197).

وقال : من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه (198).

وكان رحمه الله على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الذي قال في الزهد : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخوص الثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين وعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد فقال : وهذا الكلام من الإمام أحمد ياتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد (199)

ثم إن التجربة الصوفية عند الإمام عبد القادر ، بجميع أبعادها وبمراتبها كافة ترتكز أساساً على فعالية الذكر ، وليس في ذلك أدنى مبالغة ، لأن جميع الصوفية في الإسلام ، هم ذاكرون بالضرورة ، ولا يمكن لأي إنسان أن يتزيا بزي الصوفية أو حتى يتشبه بهم وهو تارك للذكر ، فبالذكر تنجلي القلوب بعد صدئها وتتنور بعد عتمتها(1) وتفتح مغاليقها ، وبالذكر تصح النفوس وتتجاوز هفواتها وتسمو على نقائصها ، والذكر وحده هو الذي يكرس العبد لمحبة مولاه ، لأن الحب بادق دلالاته يعني الذكر ، ولا يمكن لأي إنسان أن يتخيل محباً غافلاً عن محبوبه أو عاشقاً ساهياً عن معشوقه ، والذكر أيضاً لا تصح فروضه ، إلا إذا توجه الذاكر بقلبه وعقله ولسانه حصراً نحو الله تعالى ، فهو إذن ياتي بمعنى الصلاة ، والذاكر الصادق في ذكره هو في صلاة حية ومتواصلة مع ربه ، لأنه إذا كان المغزى من الصلاة هو إنشاء معادلة صلة ، طرفاها العبد والرب إذ يواصل

[196] الإمام الرباني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص 107.

[197] المصدر نفسه ص 106.

[198] المصدر نفسه المجلس الثاني والستون ص 232.

[199] مدارج السالكين لابن القيم (12/2).

(1) الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص106 ، والإمام عبد القادر يستشهد هنا بالحديث النبوي الشريف: إن هذه القلوب لتصدأ وإن جاءها قراءة القرآن وذكر الموت وحضور مجالس الذكر.

العبد ربه بالتضرع والخشوع والدعاء ويواصل الرب عبده بالرحمة والقبول والاستجابة ، فان الذكر ما هو في حقيقته إلا محاولة لتحقيق هذه المعادلة على أتم وجه ومن أقرب الطرق فيقول :

وجامعي مجلسي والدرس سنتي ومنبري فكرتي والعلم مطلوبي (1)

وهذا هو موخن الأهمية في الذكر عند الصوفية.

الذكر والتوحيد:

إن اشتغال قلب العبد بذكر المرغوبات والمطلوبات يعد في عرف الصوفية شركاً صريحاً ووثنية ظاهرة ، مما يحتاج معه إلى فاس إبراهيم الخليل (عليه السلام)(1) وإصراره وإخلاصه كي تزال ويتطهر منها معبد القلب فيتاهل من جديد ليكون عرشاً للرحمن. وهذا الفاس لا يعني في الحقيقة ، إلا المداومة على ذكر الله تعالى ، فهذا الفعل هو وحده الكفيل بتحطيم تلك الأصنام التي هي كل ما سوى الله عز وجل ، كما يقول الإمام عبد القادر فان: ((القلب لا يصلح للتوحيد ولا يفلح في المحبة ، حتى يترك كل محبوب ويقطع كل موصول ويزهد في كل مخلوق))(2). أي حتى يخلص في ذكره لمذكور واحد وهو الله تعالى ، ومن غرس هذا الذكر ، يثمر التفريد والتمجيد والتعظيم وتثمر المحبة ويثمر القرب ، وهذه هي مقاصد القوم ومطامحهم.

الذكر والحب الإلهي:

اصل المحبة متعلق أولاً بإرادة المحب وتوجه قصد مرامه لطلب المحبوب ، وهذا ما يجسده الذكر الذي إن داوم عليه العبد فان الله تعالى سيحمله بجناح لطفه إلى مقعد صدق عنده وهذا (المقعد) هو الذي يفضي به إلى المحبة. فاما إذا تمت المحبة ، وملأ المحبوب فضاء قلب المحب كله وملكه عندئذ تسقط الإرادة عن المحب وتكون بواعثه مستمدة من إرادة محبوبه ، وهذه كما يسميها الإمام عبد القادر ((حالة المحبة الخالصة)) (2) وهي للمحبين الذين لا يفترون عن ذكر محبوبهم خاصة فإذا ما سمع هؤلاء المحبون ذكر محبوبهم لهم ، فسيعتريهم حبور عظيم ، لدخولهم في حال

---

(1) التادفي – قلائد الجواهر – ص17. ويتشهد الإمام عبد القادر هنا بالحديث الشريف الذي يسال فيه الإمام علي (عليه السلام) النبي محمد (ρ) عن أقرب الطرق إلى الله تعالى وأفضلها عنده وأسهلها على عباده؟ فاقل (ρ): يا علي عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوات.

(1) الجيلي – فتوح الغيب – ص93.

(2) الجيلي – جلاء الخاخر – ص45.

(2) المصدر السابق – الصفحة نفسها.

جديد وارتقائهم إلى مرتبة أعلى ، وهي مرتبة المحبوبين المرادين الذين خففت عنهم الأحمال وشملتهم يد العناية الإلهية ، استحقاقاً منهم وفضلاً ومنة من الله تعالى والمحبوبون يكونون بهذه المرتبة قد انتقلوا من حالة الشوق التي تنتفي عند تحقق اللقاء ، إلى حالة الاشتياق التي لا ينفذ لها معين والتي لا يزيدها اللقاء إلا حدة واضطراماً. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى تاكيد الإمام عبد القادر على الربط العضوي بين أجزاء نظريته الصوفية ، وكما هو واضح ، فالذكر يفضي إلى كل من الزهد والتوحيد والصدق والمحبة في الوقت نفسه ، على أن هذه النظرية لا تختل ولا تهتز أركانها فيما لو استبدلنا الذكر باي فعالية أخرى من الفعاليات الصوفية لأن النتيجة ستكون واحدة في كل الأحوال.

مصدر الذكر

ولا يفوت الإمام عبد القادر أن يذكرنا أن شوق الإنسان إلى ذكر ربه ، مثله في ذلك مثل كل الأحوال الصوفية الأخرى ، لا يعد فعلاً إنسانياً خالصاً – أي يصدر فقط عن إرادة الإنسان وقصده – وإنما مصدره الأول هو الرحمة الإلهية التي إن هب نسيمها على أرواح الذاكرين ، اهتزت تلك الأرواح طرباً لذلك وسعت إلى الانطلاق من أقفاص أشباحها ، متوهجة بذلك الشوق ، ومن توهجها هذا تستضيء العقول والقلوب وهذا هو معنى الجلاء والتالق الذي يسعى الصوفية ، عن طريق الذكر إلى بلوغه.

وكما نلاحظ ، فان عملية التوهج قد بدأت من الأرواح أولاً ، التي هي الأنفس بعد صفائها والتوهج ما هو إلا عملية تنوير معنوية ، أي معرفية ، يفيض معينها من داخل النفس الإنسانية ، بعد استكمالها شروط الجلي المطلوبة والتي مررنا بها سابقاً عبر محطات الزهد والمجاهدة وأنواع الرياضات الروحية ، والتي جاء عامل الذكر أخيراً ، كي يمنحها القدح المطلوب لكل هذا التوهج. على أن هذه المعرفة وإن كانت ذاتية المصدر إلا أنها لدنية الأصل ، لأن مصدرها الحقيقي هو المعرفة الإلهية المغروسة في أصل الفطرة الآدمية والتي لا تخرج إلى حيز الوجود إلا بعد أن تتواصل مع منبعها الإلهي عبر قنوات النور التي ينشئها الذكر. ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن كون الشوق الإنساني إلى الذكر يبدأ من خارج ذاته ، فان ذلك لا يلغي دور الإنسان في التواصل وهذا هو بالضبط ما يميز الذكر من الحب الإلهي عند الإمام عبد القادر ، فالذكر هو مقام طلب وقصد ، وهو مما يشير إلى الافتقار إلى إرادة العبد ، بينما الحب الإلهي وهو التحفة الربانية الخالصة ، فانه من محض

الاصطفاء وليس للعبد فيه كسب ولا اختيار، ولذلك نجد أن الله تعالى قد قدم ذكرنا على ذكره كما في قوله تعالى : "إذكروني إذكركم"(1).

بينما قدم محبته على محبتنا وذلك في قوله تعالى الذي يصف فيه المؤمنين "يحبهم ويحبونه"(2) وفي الخلاصة فإن الذكر يمكن أن يعد من بين الفعاليات الصوفية المزدوجة المصدر، فهو فتح من الله تعالى من جهة وقصد من العبد من الجهة الأخرى.

3- التوكل : تناول الإمام عبد القادر الجيلي مسالة التوكل وتعرَّض لأربع مسائل.

- الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته : فقال : الأصل فيه قوله تعالى : " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " الطلاق ، آية 3) وقوله عز وجل : " وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " (المائدة، آية : 23). وحقيقته تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير فيقطع العبد ألاَّ تبديل للقسمة فما قسم له لا يفوته ومالم يقَّدر له لا يناله فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه (200).

المسالة الثانية : أقسام التوكل ودرجاته : يرى الإمام عبد القادر الجيلي أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض : فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه (201) ولكن ابن القيم يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات :

الأولى : معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه صدورها عن مشيئته وقدرته وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية : إثبات الأسباب والمسببات.

الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكل معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلاَّ برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

---

(1) البقرة /152.

(2) المائدة / 54.

200 الغنية للجيلاني (189/2).

201 الغنية للجيلاني (189/2).

الرابعة : اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها لأن اعتماده على الله وسكونه إليه ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا ياوي إلاَّ إلى ربه سبحانه.

الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة : استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه ولهذا فسَّره من قال : أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة : التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً، واختياراً لا كرها واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه (202).

المسالة الثالثة : ثمرات التوكل : ويرى الإمام عبد القادر الجيلي أن للتوكل ثمرات فقد قال : من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب لا تتوكل على درهمك، ودينارك وأسبابك فإن ذلك يعجزك ويضعفك وتوكل على الله عز وجل، فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب (203) .

وهذا ما أكَّده شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو يوضح معنى ما نقل عن الإمام عبد القادر الجيلي من أنه رؤي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه : من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنَّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال فالأوَّلتان : العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى : في الحديث القدسي : من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة (204)

[202] مدارج السالكين (112/2).

[203] الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثاني والأربعون ص 134.

[204] البخاري رقم 7536 مسلم رقم 2675.

والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه فإنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله وفي الأثر : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله (205). وعن سعيد بن جبير قال التوكل جماع الإيمان (206) ، وقال تعالى " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " (الطلاق ، آية : 3) .... وقوله : ومن اتبع مرادنا يعني المراد الشرعي، كقوله تعالى : " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " (البقرة ، آية : 185) وقال تعالى : (يريد الله أن يخفف عنكم " (النساء، آية : 28) وقوله تعالى : " ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتُم نعمته عليكم " (المائدة آية : 6) ... وفي الحديث الصحيح : لئن سالني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه (207) .

وقال تعالى : " ويستحيب الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله " (الشورى ، آية ك 26) وقوله : ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد يعني : ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله، رجاءاً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر (208) وقد قال الله تعالى : " إنّما يُوَفى الصابرون أجرهم بغير حساب " (الزمر ، الآية : 10).

المسالة الرابعة : الأسباب : بين الإمام عبد القادر الجيلي اعتقاده حولها والمتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها فقال : اعتقاد المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عز وجل يقطع به وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله عز وجل المحرق بها وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله عز وجل يشبع به وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله عز وجل المروي به. وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله عز وجل المتصرف فيها وبها وهي آلة بين يديه يفعل ما يشاء (209)، وهذا لا يعني دعوته إلى ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب، بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الإمام الجيلي هو الأخذ بالسبب والتوكل على مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد : إعط نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب (210) .

4- الشكر : تحدث الإمام عبد القادر الجيلي عن الشكر من خلال ثلاث مسائل :

---

[205] الإمام عبد القادر ص 612.

[206] السنة، عبد الله بن أحمد رقم 776.

[207] المصدر نفسه.

[208] البخاري رقم 7536.

[209] فتاوى ابن تيمية (549/10) الإمام عبد القادر ص 613.

[210] المصدر نفسه ص 167.

الأولى : حقيقة الشكر : فقال رحمه الله : وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع (211).

وأما أقسامه : فإنه - رحمه الله - قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال : ثم الشكر ينقسم إقساماً إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهور بإدامة حفظ الحرمة (212).

وفي موضع آخر يصف الإمام عبد القادر الجيلي كيفية الشكر فيقول : أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله عز وجل وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجودها والسبب لها هو الله عز وجل والقاسم هو الله والمجري هو فهو أحق بالشكر من غيره. وأما الشكر بالقلب. فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المنبرم أن جميع مابك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل ولا من غيره ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك وأما شكر الجوارح : فبان تحركها وتستعملها في طاعة الله عز وجل دون غيره من الخلق فلا تجب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى ، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة بحيث تجعل طاعت الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً (213).

وأما أصناف الشاكرين : فقد جعلهم ثلاثة أصناف :

الأولى : من وصفهم بالعاملين وهم السواد الأعظم من العباد وشكرهم يكون من جملة أقوالهم.

والثاني : من وصفهم بالعابدين وهم المؤمنون على وجه العموم والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم يكون نوعاً من أفعالهم.

والثالث : من وصفهم بالعارفين والمقربون وشكرهم باستقامتهم لله عز وجل في سائر أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله عز وجل بتوفيقه سبحانه (214) .

---

[211] الغنية للجيلاني (193/2).

[212] الغنية للجيلاني (194/2).

[213] فتوح الغيب للجيلاني ص 134.

[214] الغنية للجيلاني (194/2) الإمام عبد القادر الجيلي ص 621.

5- الصبر: تحدث الإمام عبد القادر الجيلي عن الصبر، فقال الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى " يا أيها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون " (آل عمران، آية : 200) وقوله تعالى : " واصبر وما صبرك إلا بالله " (النحل، آية : 127) وقوله صلى الله عليه وسلم : إنما الصبر عند الصدمة الأولى (215)، وأما أنواع الصبر فقد ذكر الإمام عبد القادر أنه على ثلاثة أضرب :

الأول : صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

الثاني : صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

الثالث : صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والثواب في الدار الآخرة (216) . وقال عن أصناف الصابرين بانهم : ثلاثة أصناف : متصبر وصابر وصبار (217) . وأخيراً فإن الإمام عبد القادر الجيلي عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين : أحدهما : صبر على ما هو كسب من فعل أوامر الله وترك نواهيه.

والثاني : صبر على ما ليس بكسب له مما يقدر الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم فيصبر على ذلك (218) . وبالجملة فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضى بالمقدورات وهو واضح في كلام الإمام عبد القادر الجيلي -رحمه الله (219).

6- الرضا : قال الإمام عبد القادر الجيلي :فاما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله - عز وجل - خير من قضاء المرء لنفسه وما قضاه الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عز وجل لك فيما تحب فاتق الله تعالى وأرض بقضائه قال تعالى : وعسى ان تكرهو شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شُرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (البقرة ، آية 216،). يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم فالله عز وجل خوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في المقدرو والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة واستاثر هو عز وجل بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما

[215] البخاري رقم 1702 مسلم رقم 926.

[216] الغنية (195/2).

[217] المصدر نفسه (195/2).

[218] المصدر نفسه (195/2).

[219] الإمام عبد القادر الجيلي ص 625.

قسم الله له ولا يتهمه (220) وقال : وأعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعته للقدر والمقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء فكل من رضى بالقضاء استراح وكل من لم يرضى به طالت شقوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلاَّ بما قسم له (221).

7- الصدق : والأصل فيه عند الإمام عبد القادر الجيلي قوله عز وجل " يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (التوبة ، آية : 119).وما روي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (222) .

والإمام عبد القادر يحدثنا عن صدقه في أحلك الظروف، فقد كان مثالاً للصدق منُذ شبابه وهذه القصة تبين مدى صدقه حيث قال : عندما استاذنت والدتي للسفر إلى بغداد طلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاطتها تحت إبط قميص وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فاخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد فاجتازني أحدهم وقال لي : كم معك يا فقير؟ فقلت أربعون ديناراً فقال : وأين هي ؟ فقلت مخاطة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهزئ به فتركني وانصرف. ومرَّ بي آخر فقال لي : مثل ما قال الأول، فاجبته كما أجبت الأول فتركني وانصرف وتوافيا عند مُقَدَّمِهم فاخبراه بما سمعاه مني فقال : عليَّ به فاتِىَ بي إليه، وإذا هم على تَلَّ يقتسمون أموال القافلة فقال لي : ما معك ؟ قلت أربعون ديناراً. فقال : وأين هي ؟ قلت مخاطة في قميصي تحت إبطي : فامر به فَفُتِقَ فوجد فيه الأربعين ديناراً فقال : ما حملك على الاعتراف ؟ قلت : إن أمي عاهدتني على الصدق وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم. وقال : أنت لم تَخُنْ عهد أمك وأنا لي كذا وكذا سنة أخون عهد ربي، فتاب على يديَّ فقال له أصحابه : أنت كنت مقدماً في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم (223).

وللصدق عند الإمام عبد القادر الجيلي منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي ذلك يقول : وأعلم بان الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله عز وجل : " ومن يطع

---

[220] الغنية للجيلاني (197/2).

[221] المصدر نفسه (197/2).

[222] البخاري رقم 6094 مسلم رقم 2607 الإمام عبد القادر الجيلي ص 633.

[223] الإمام عبد القادر الجيلي ص 64.

الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " (النساء ، آية ك 69).

وقد فرّق الإمام عبد القادر الجيلي بين الصادق والصديق بقوله : والصادق هو الاسم اللازم من الصدق والصديق هو المبالغة منه وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه فالصدق استواء السر والعلانية والصادق هو الذي صدق في أقواله والصديق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله (224).

وهكذا يتبين اهتمام الإمام عبد القادر وتاكيده على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة (225).

ثامناً : تاسيس الطريقة القادرية : تنتسب الطريقة القادرية إلى الإمام عبد القادر الجيلي الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم والقائم على جمع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتاديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقه واحدة إلا في عهد الإمام عبد القادر الجيلي والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الإمام عبد القادر الجيلي (226) ، والمطلع على سيرة الإمام عبد القادر يرى في توجيهاته ووصاياه التي وصّى بها أتباعه الحرص على التمسك بالكتاب والسنة والالتزام بالأخلاق الحميدة وفيما يلي عرض لأبرز معالم الجانب النظري لهذه الطريقة :

1 - التاكيد على التمسك بالكتاب والسنة يقول رحمه الله وهو يوجّه وصيته إلى ولده عبد الرزاق : أوصيك بتقوى الله وطاعته ولزوم الشرع وحفظ حدوده، وتعلم يا ولدي وفقنا الله وإياك والمسلمين أن طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة وسلامة الصدر وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان (227)، ويقول في موضع آخر : أدخل الظلمة بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن خطر خاخر (228)، أوجَّد الهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم الزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق

[224] الغنية (200/2).

[225] الإمام عبد القادر الجيلي ص 634.

[226] المصدر نفسه ص 636، 637.

[227] الإمام عبد القادر الجيلي ص 639.

[228] الإمام عبد القادر الجيلي ص 640.

والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك وأهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بانه من الشيطان اللعين (229). ومن تركيز الإمام الجيلي على أهمية التمسك بالكتاب والسنة أن جعلهما المقياس في ربط العلاقات الشخصية بالآخرين بقوله : إذا وجدت في نفسك بغض شخص أو حبه فاعرضه على الكتاب والسنة ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (230).

2- خلو طريقته من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة في عصره نتيجة ترجمه المعارف اليونانية وتاثيرها على العقول والأفهام، حتى وقع في حبائلها كثير من المتصوفة فاستخدموا ألفاظها ومصطلحاتها مثل الهيولي (231) ، والعرض، والجوهر (232) .

3- تركيزه على الاهتمام بالجوانب العملية : وتجنب الإغراق في الأمور النظرية والمقدمات الجدلية العقيمة دليل ذلك ما طبقه في حياته ومارَبّى عليه أتباعه وما وضعه من أصول لطريقته التي تعتمد على سبعة أصول هي : المجاهدة، التوكل، حسن الخلق، الشكر، الصدق، الرضا، الصبر (233) . وقد تحدثنا عن هذه الأصول بالتفصيل في مبحث المقامات والأحوال.

4- وضعه لمجموعة من الأداب والتعاليم التي يجب أن يتعامل بها المنتسب لطريقته سواء مع النفس أو مع الإمام أو مع الناس، وقد تكلمنا عن ذلك.

5- تاكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها والبعد عن نواهيه واجتنابها والرضا باقدار الله والاستسلام لها يقول : رحمه الله : لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثله ونهي يجتنبه وقدر يرضى به، فاقل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغي أن يلزم همها قلبه، ويحدث بها نفسه ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله (234) .

وقد شرح ابن تيمية - كلام الإمام عبد القادر واستحسنه بقوله : هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهي مطابقة لقوله تعالى : " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " (يوسف، آية : 90) ولقوله تعالى : " وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً " (آل عمران، آية : 120) . ولقوله تعالى : " وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم

[229] فتوح الغيب الجيلي ص 640.

[230] الإمام عبد القادر الجيلي ص 640.

[231] الهيولي : لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وهو جوهر في الجسم.

[232] الجوهر ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع وهو مختصر في خمسة أشياء هيولي وصورة وجسم ونفس وعقل .

[233] الغنية للجيلاني (182/2).

[234] فتوح الغيب للجيلاني المقالة الأولى ص 6.

الأمـور "(آل عمـران ، آيـة : 186) فـإن التقـوى تتضـمن فعـل المـامور وتـرك المحظـور والصـبر يتضـمن الصـبر علـى المقـدور فالثلاثـة ترجـع إلى هـذين الأصـليين، والثلاثـة في الحقيقـة ترجـع إلى امتثـال الأمـر وهـو طاعـة الله ورسـوله وهـو أن يفعـل في ذلـك الوقت مـا أمـر بـه في ذلـك الوقـت وطاعـة الله ورسـوله هـي عبادتـه الـتي خلـق لهـا الجـن والإنـس كمـا قـال الله تعـالى : " ومـا خلقـت الجـن والإنـس إلا ليعبـدون " (الـذاريات ، آيـة : 56) وقـال تعـالى " يـا أيهـا النـاس اعبـدوا ربكـم الـذي خلقكـم والـذين مـن قـبلكم لعلكـم تتقـون " (البقـرة، الآيـة : 21). والرسـل كلـهم أمـروا قـومهم أن يعبـدوا الله ولا يشـركوا بـه شـيئاً وقـال تعـالى : " ولقـد بعثنـا في كـل أمـة رسـولاً أن أعبـدوا الله واجتنبـوا الطـاغوت فمـنهم مـن هـدى الله ومـنهم مـن حقـت عليـه الضـلالة فسـيروا في الأرض فـانظروا كيـف كـان عاقبـة المكـذبين " (النحـل، آيـة : 36). وقـال تعـالى : " وسـئل مـن أرسـلنا مـن قبلـك مـن رسـلنا أجعلنـا مـن دون الـرحمن ءالهـة يعبـدون " (الزخـرف، آيـة : 45) ثـم مضـى - رحمـه الله - في توجيـه كـلام الإمـام عبـد القـادر الجيلي وشرح مراده من تلك العبارات (235

تمثـل رؤيـة الإمـام عبـد القـادر للـنفس الإنسـانية، امتـداداً طبيعيـاً للرؤيـة الصـوفية السـابقة عليـه. فهـي عنـده أيضـا تمثـل مجموعـة الصـفات السـيئة الـتي يحملـها الإنسـان، بينمـا الـروح تمثـل الحسـنة منهـا، وهـو أيضـا يـرى أن لا وجـود لـنفس وروح مسـتقلة أحـداهما عـن الآخـرى، وإنمـا هنالـك ، فقـط ، حـاجز وهمـي يفصـل بينهمـا ، فـالنفس فيمـا لـو صـفت وتخلصـت مـن الصـفات الرديئـة، فانهـا سـتؤول حتمـاً إلى إن تكون روحاً صافية خالية من الصفات الذميمة.

الـنفس إذن تُعـدُّ عنـد الإمـام عبـد القـادر، خصـماً للإنسـان وغريمـاً، وهـو يحـذّر ميرديـه منهـا، بكونهـا خدّاعـة مـاكرة مراوغـة، تظهـر خـلاف مـا تـبطن وتـدعو إلى عكـس مـا تريـد(1) ولـذا فـان العلاقـة معهـا - أي علاقـة الإنسـان مـع نفسـه-(2) لا بـد مـن إن تكـون علاقـة تـربص وعـداء ، يصـل إلى حـدّ التشـفي منهـا، فيمـا لـو لحـق بهـا أذى أو أصـابها ضـرّ، إنهـا تشـكل ثانيـة العقبـتين اللـتين تحـولان بـين العبـد وبـين

[235] فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (456/10).

(1) الجيلي - جلاء الخاطر من كلام الإمام عبد القادر الجيلي - ص41.

(2) على الضدّ من الفلاسفة ، يرى الصوفية ان الإنسان يتكون من وحدات متعددة، يعمل احدها بشكل مستقل عن الآخر، وانه يمكن التحكم ببعضها دون الآخر، وايضاً تسليط بعضها على بعضها الآخر وكان الصورة تبدو امامنا كعملية فصل للسلطات ، اذ يفصل الإنسان بين كل من نفسه وعقله وقلبه مما يتيح له مجالاً اوسع للتعامل مع ذاته فالإنسان لا يؤخذ كله ولا يترك كله، اذ ان فيه اجزاء بيضاء واجزاء سوداء، وانه يمكن الاستعانة بتلك على تلك.

نجاتـه، فإمـا الأولى منهمـا فهـي الـدنيا. وأمـا إذا قطـع العبـد هـاتين العقبـتين فانـه سـيكون حتمـاً قريبـاً مـن ربه وبعيداً عن مكامن الخطر.

وقبـل إن نسترسـل مـع وصـف الإمـام عبـد القـادر للـنفس الإنسـانية، لا بـدّ مـن إن نشـير إلى إن الحـديث عـن الـنفس بوجههـا الكـالح، ينطبـق عنـده ، فقـط ، علـى المرتبـة الأولى أو الـدنيا مـن مراتبهـا، وهـي الـتي اصـطلح الصـوفية علـى تسـميتها بــ (الـنفس الأمّـارة بالسـوء) وهـي قرينـة السـوء الـتي لا تـامر صـاحبها إلا بإتيـان الشـرور والمنكـرات ، والـتي لا يمكـن إن يـتخلص الشـخص مـن أذاهـا، إلا إذا تخطاهـا إلى المرتبـة الـتي تليهـا وحتـى آخـر مراتبهـا وهـي (الـنفس الكاملـة) ، عنـدها سـوف تـتخلص هـذه الـنفس من الدور الشائن الذي تقمصته، وثم فانها لن تعود ذلك الخصم المعاند أو العدو اللدود .

الفرق بين النفس والروح

ويمكننـا إن نلاحـظ هنـا، إن الإمـام عبـد القـادر ، كـان اكثـر وضـوحاً مـن سـابقيه في ترسـيم الحـدود بـين الـنفس والـروح ، وهـذا إشـكال واجهـه الكـثير مـن المفكـرين المسـلمين، إذ ورد ذكـر الإنسـان في القـران الكـريم ، مقرونـاً بـالنفس مـرةً وبـالروح آخـرى، فانقسـم النـاس بحسـب ذلـك علـى مـذاهب، فمـنهم مـن اقـرّ بوجـود الاثـنين معـاً ومـنهم مـن قـال بوجـود الـنفس دون الـروح، ومـنهم مـن عـدّ الـنفس خاصـة بالـدنيا وهـي تفنـى بعـد المـوت وأمـا الـروح فانهـا تخـص الآخـرة وهـي تبقـى خالـدة بعـد فنـاء الجسـد، وغـير ذلـك مـن المـذاهب. الإمـام عبـد القـادر، واجـه هـذا الاشـكال ، مـن جهتـه ، بحـلٍ ممتـاز، فهـو يتحـدث عـن الـنفس فقـط وهـذه الـنفس كلمـا ارتقـت إلى مرتبـة أعلـى ، اكتسـبت اسمـاً جديـداً ، واكتسـت بخصـال وصـفات، هـي حتمـاً، احسـن مـن سـابقاتها، فـاذا كانـت الـنفس في مرتبتهـا الأولى تسـمى بـالنفس الأمّـارة بالسـوء، فانهـا بعـد ذلـك يمكـن إن تسـمى بـالروح أو بالسّـر، علـى إن الانتقـال مـن مرتبـة إلى مرتبة آخرى لا يتم إلا عبر متابعة مفردات السلوك الصوفي.

النفس عدوة الله

الـنفس، اذن ، بوجههـا الأول، هـي ضـدّ الله تعـالى وعدوتـه، نعـم انهـا خاضـعة لحكمـه وقضـائه، وهـي لـه خلقـاً وملكـاً ، ولكـن ذلـك لا يمنـع كونهـا مشـتملة علـى شـرور كـثيرة تـدفعها إلى تقمـص هـذا الـدور السـلبي، ولكـن ، يؤكـد الإمـام عبـد القـادر ، ان الـنفس عـاجزة عـن اتيـان مـا تشـتهي ومـا تريـد، حتـى يوافقهـا الإنسـان علـى ذلـك ويلابسـها ويطيعهـا، فـان فعـل معهـا ذلـك، كانـت صـاحبة إدّعـاء وتمـنٍ

وشـهوة، وأمّـا ان خالفهـا وناهزهـا العـداء، بموافقتـه لربـه، فانـه سـيكون عندئـذٍ ، خصـماً امـام ربـه علـى نفسه.(1) .

وهنـا يظهـر لنـا الإمـام عبـد القـادر ، مكمـن التكليـف وموضـع الحريـة في الوجـود الإنسـاني فعوامـل الشـرّ الكامنـة في هـذا الوجـود، مـا هـي في حقيقتهـا الا عوامـل سـلبية غـير فعالـة، وعـاجزة عـن اتيـان أي فعـل مـن تلقائهـا، وانمـا هـي تفعـل مـا تفعلـه ، فقـط، في حالـة انصـياع بقيـة قـوى الإنسـان لهـا . ان الإنسـان ، في حقيقتـه ، محمّـل بجميـع الامكانـات خيرهـا وشـرها، ومـا عليـه الا ان يـرجّح احـدها علـى الآخـر، فـاِن رجـح اعمـال الخـير، كانـت اعمالـه هـو، واسـتحق عليهـا الثـواب وان رجّـح اعمـال الشـر ، كانت اعماله هو ايضاً واستحق عليها العقاب.

يـرى الإمـام عبـد القـادر، إن الـنفس الأمّـارة بالسـوء، مـا كانـت كـذلك إلا لجهلـها، ولـذلك فهـي تحتـاج إلى تعلـيم، إنهـا سـيئة الأدب وتحتـاج إلى تاديـب، إنهـا- لجهلـها- لا تفـرق بـين الـداء والـدواء أو بـين الحـلال والحـرام، أو بـين مـا يصـلح ومـا يفسـد، وهـي فـوق ذلـك تواجـه الآخـرين بـالكبر والغضـب والاحتقـار. إنهـا، قبـل إن يباشـرها الإنسـان بالمجاهـدات، (فرعونـة) طاغيـة، مهـرة غـير أمنـة غـير مروضـة غـير معلمـة، وهـي لا تفتـا تنـازع ربهـا، لأنهـا مصـنوعة مـن الكـبر والعظمـة، ولأجـل ذلـك ولصـعوبة وخطـورة موقـف العبـد الـذي يبغـي النجـاة، فـان الإمـام عبـد القـادر، ينصـح بضـرورة تسـليم الإنسـان نفسـه، بيـد رائـض الأيمـان- أي الإمـام الصـوفي العـارف – كـي تـتعلم وتتـادب وتطمـئن، فـان اخمانـت تواضـعت وذلـت وحسـن خلقهـا وعرفـت قـدرها واحتملـت غيرهـا، وسـعت بعـد ذلـك إلى عمـل الخـير والصلاح وهو المطلوب منها.(1)

التصوف وسيلة لإصلاح النفس

إذن فالسـلوك الصـوفي، كمـا يـرى الإمـام عبـد القـادر، هـو الوسـيلة الوحيـدة لتحصـيل المعرفـة الحقيقـة معرفـة الإنسـان لنفسـه ومعرفتـه لربـه، وعـن هـذه المعرفـة تصـدر الآداب وتُستحصـل المراتـب وتُنـال الـدرجات، ولكـن هـذه المعرفـة ليسـت يسـيرة المنـال، ولا ممكنـة التحصـيل بالاعتمـاد علـى الـذات وحـدها، بـل لابـد لهـا مـن معونـة خارجيـة، وهـذه المعونـة يجسـدها الإمـام المرشـد الـذي اخـتص بطـبّ النفـوس وتمـرس بسياسـتها، وتجسـدها أيضـا الرسـالات السـماوية الـتي علمـت الإنسـان أصـول الحـق والحكمـة والفضـيلة. هـذه الـنفس الأمّـارة بالسـوء، لا يمكـن إن يرخـى لهـا العنـان، إذ لا بـد مـن إن

---

(1) الجيلي - رسالة في التصوف- مخطوطة- دار صدام للمخطوطات- تحت رقم- (11042).

(1) الجيلي - جلاء الخاطر من كلام الإمام عبد القادر الجيلي - ص39.

تستاس وتُقتاد وتحجب عنها الرؤيا، حتى لا تنظر إلى ما حولها، فيكون نظرها هذا سبباً لهلاكها. إنها لا بد من إن تكون تابعة لغيرها، لمن هو أعلى درجة واقرب إلى ربه منها، أي القلب ثم من بعد القلب السرّ الذي هو أعلى درجة من القلب، فان أطاعتهما النفس وتبعتهما، ولم تخرج لهما عن رأي واتحدت معهما، عندئذٍ لا تعود تفترق معهما في المطلوب أو في المقصود، فتصير حينئذٍ تامر بما يامران به وتنهى عما ينهيان عنه وتختار ما يختارانه، وحينئذ فقط، تصير نفساً مطمئنة.(2)

ومما سبق ، يمكننا إن نستنتج : إن طاعة النفس للقلب والسر، تمثل الخطوة الأكثر أهمية في السلوك الصوفي بوجه عام، فهي تجسيد أولي لحالة الفناء الصوفي التي يطمح كل مريد إلى بلوغها، فالنفس بطاعتها القلب يعني إتباعها لأوامره، التي هي أوامر تتفق ومبادئ الشريعة

والحقيقة، وهذا الأتباع سيخلصها حتماً من كثير مما علق بها من معّاص وآثام، فهي إذن حالة فناء موضعية تحدث داخل الإنسان، فتبدل محل طباعه السيئة طباعاً حسنة، وهذا ما ينسجم وتعريف الإمام عبد القادر للفناء الذي هو: ((إفناء الصفات الذميمة المغروسة في نفس الإنسان واستبدالها بصفات جيدة))(1) وهو تعريف أخلاقي بحت سياتي تفصيل الكلام فيه في موضع لاحق من هذا البحث.

إن الاهتمام الملفت للنظر، الذي يوليه الإمام عبد القادر لموضوع النفس، والذي نراه واضحاً في أكثر كتبه الصوفية، متاتٍ من اعتقاده الجازم – وهو اعتقاد ملازم للسلوك الصوفي بوجه عام – بان السيطرة على نوازع النفس، يعني فيما يعنيه، إلغاء نصف المسافة التي تفصل بين المريد السالك و نيل مراده الأوحد، الذي هو بلوغ أعلى درجات القرب والوصول إلى حضرة (ملك الملوك)، تلك المسافة التي يقدرها الإمام عبد القادر، تهويناً، بـ (قدمين)، فقدم تقطع به الدنيا والقدم الآخر تقطع به نفسك، ثم ((ها أنت وربك))(2)

هكذا بكل بساطة في القول والادعاء وبكل صعوبة في الفعل والسلوك، تلك الصعوبة التي حدت بالإمام عبد القادر، إلى إن يضع(قطع) المريد السالك لنفسه في الكفة المقابلة لكفة قطعه للدنيا، بكل أهوالها وبلاياها وأحلامها ومغرياتها.

إن (قطع) المريد السالك لنفسه، لا يعني التخلص منها بخلعها وإلقائها جانباً، ولا يعني تخطيها وهي باقية على ما هي عليه، فذلك لا يكون، لان النفس الإنسانية، بكل تفاصيلها غير المرغوب

---

(2) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني- ص230.

[1] الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك- مخطوطة- دار صدام للمخطوطات تحت الرقم (9166).

[2] الشطنوفي- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص44.

فيهـا، مـا هـي في حقيقتهـا إلا جـزء مـن التكـوين الإنسـاني، إنهـا الطبيعـة البشـرية الـتي يسـتحيل الفكـاك عنهـا أو تخطيهـا بشـكل نهـائي، إن الـذي يحصـل، مـن جـرّاء السـلوك الصـوفي والمجاهـدات والرياضـيات، هـو: تغـيير الـنفس الإنسـانية وتحويلـها مـن حالـة إلى حالـة أخـرى، بحيـث تبـدو وكانهـا بـدلت خلقـاً آخـر وكانهـا قُـدت مـن معـدن جديـد، هـو، ضـرورةً، اثمـن وأجـود مـن سـابقه، لا بـل إن ثمنـه لا يقـارن بسـابقه، إذ إن الـنفس معـه، تكـون قـد خرجـت منهـا روح وجودهـا، وهـي روح الأنانيـة والكـبر والطمـع، ودبَّ فيهـا بـدلاً مـن ذلـك، روح الطمانينـة والصـفاء فاصـبحت، حينئـذ، مهيـاة لأن تـرى، هـي والقلـب والسّـر، ربهـا عـز وجـل، رؤيـة ذوق ومعنـى، وهـذه الروّيـة وهـذا التجـانس، لم يتحققـا للـنفس، إلا بعـد إن خضـعت وأخاعـت ربهـا فاخمأنـت، فـنفخ فيهـا ربهـا، روحـاً غـير الـروح الأولى، إنهـا ((روح الربوبيـة روح العقـل، روح الزهـد في الخلـق، روح الوجـود بـالحق عـز وجـل، روح الطمانينـة إليـه والنفـور مـن غيره)). إن السلوك الصوفي على وفق هذا المنظور، يحتاج إلى قطبين: العبد من جهة والـرب

مـن الجهـة الآخـرى، العبـد يسـعى إلى إعـداد أرض نفسـه وتنقيتهـا وتهيئتهـا للغـرس الجديـد، والـربّ يدركـه بغيـث لطفـه، فيحيلـها مـن بلقـاء إلى خضـراء لا تثمـر إلا كـل خيـب مفيـد. إن الإمـام عبـد القـادر بوضـعه هـذه (المعادلـة)، يبـدو كانـه قـد حـلّ إشـكالية التوفيـق بـين سـابق العنايـة الإلهيـة وسـعي العبـد وكسـبه، فالعبـد دون عنايـة ربـه، لا يمكنـه إن يرتقـي ويفلـح في السـلوك، وكـذلك فـان الـذي ينتظـر مدد ربه من دون إن يعمل له عمله ويسعى له سعيه، فهو بلا شك، خويل الأمل.

كيفية تغيير النفس

إن كـل تغـيير ايجـابي، يطـرأ علـى نفـس المريـد، لا يـتم إلا بعـد إن يفـارق إيـاه[1] أي يفـارق نفسـه بالمخالفـات والمجاهـدات، وان يتطـارش عـن أجابتهـا لمـا تميـل إليـه مـن الشـهوات واللـذات وأنـواع المطلوبـات. إن الهبـات الروحانيـة، الإلهيـة المصـدر، لا تنـال، أبـدا، بـالتمني والادّعـاء وترديـد كـلام أهـل الطريـق وحفـظ حكايـاتهم، وإنمـا تُنـال بالعمـل المتواصـل والجهـاد والجـوع والسـهر، والمحابـاة والمعـاداة - مجابـات الخـير وأهلـه ومعـاداة الشـر وأهلـه- فـلا يُحسـب المريـد أبـدا في زمـرة الروحـانيين مـا لم يعـادِ جملتـه ويبـاين جميـع الجـوارح وينفـرد عـن وجـوده وحركاتـه وسمعـه وبصـره وعلمـه وعقلـه.[2] وجميـع

---

[1] التونسي- رياض البساتين في اخبار الإمام عبد القادر الجيلي- ص88.

[2] مباينة العلم والعقل ، لا تعني دعوة الإمام عبد القادر إلى تعطيلهما أو الغائهما، لان ذلك لو فهم من العبارة فانه يعني ايضاً الغاء السمع والبصر وتعطيل جميع الحواس. ان ما يعنيه الإمام عبد القادر من هذه العبارة هو: ان لا يشكل العلم والعقل حجاباً يحول بين المريد السالك و نيل مبتغاه، ولذا فانه يعمد إلى توجيههما الوجه الصحيحة بان يجعل منهما تبعاً للقلب، لا ان يكون القلب تبعاً لهما فيحجباه ويؤخراه. ان القلب هو اداة المعرفة الأولى عند الصوفية، واما المعرفة اللدنية فهي المعرفة التي يسعى الصوفي اولاً إلى

ما كان منه قبل وجود الروح فيه، (3) وجميع ما أوجد بعد نفخ الروح فيه لأن جميع ذلك يشكل حجاباً يحجب الإنسان عن ربه، فإذا تجاوز ذلك، وعقد العزم على هذا التغيير، فانه سيصير روحاً فريدة، سرّ السرّ، غيب الغيب، فيباين الأشياء في سره، عاداً الكل عقبةً وحجاباً وظلمة، حينئذٍ فقط، يصل إلى أقصى ما يمكن إن يصل إليه إنسان من الصفاء والنقاء

والوجود السامي الذي يحاكي وجود الملائكة المقربين. فيؤتمن على الأسرار الروحية والعلوم الربانية، ثم يُردّ إليه التكوين وخرق العادات.(1) وكانه قد بعث بعد الموت ووجد في الآخرة، لما سيعهده في نفسه من القدرات الخارقة والصفات السامية والنقاء الذي لا تغيير له، وكل ذلك يعزيه الإمام عبد القادر إلى: إن المريد في هذه الحالة سيكون بكليته ومجموعة قدرة ربانية، فيسمع بالله ويبصر بالله وينطق بالله ويبطش بالله، ويفعل كل أفعاله بالله، وفي الوقت نفسه يعمى عمن سواه فلا يرى لغيرة تعالى وجوداً، على إن كل ذلك يتقيد عند الإمام عبد القادر، بشرط حفظ الحدود والالتزام بالأوامر والنواهي.(2) وهو الشرط الذي يؤكده دائماً، بحيث إن خرقه أو عدم التمسك به يلغي الهدف من السلوك الصوفي برمته، فالصوفي السالك، مهما بلغ من الدرجات الروحية العالية ومهما ظهر عليه من الكرامات البينة والقدرات الخارقة، وانحزم معها عنده شيء من الحدود فليعلم انه مفتون ممكور به. وليعمل، إن كان صادقاً، على إعادة قياس أفعاله، على وفق تلك الحدود. إن الإمام عبد القادر باحكامه لهذه العبارة، لم يترك المجال، لأي دخيل، بان يدّعي القرب من الله تعالى ، وهو مخالف أو حتى متكاسل عن إتيان شروط الشرع، فلا تصوف خارج حدود الله تعالى ولا وصول بغير أجنحة الشريعة.

التوحيد غاية مجاهدة النفس

إن الغاية الحقيقية، عند الإمام عبد القادر، من مجاهدة النفس، أو من السلوك الصوفي بوجه عام تكمن في بلوغ العبد مرتبة التوحيد الحق، والتوحيد الحق عنده يعني تلك العلاقة الاستثنائية والفائقة التي تربط العبد بربه، برباط تحكمه موازنة خردية دقيقة تجمع بين عبودية العبد وألوهية

تحصيلها، معتمداً على حدسه ودرجة صفاء نفسه، ولذا فلا دور للعلم ولاعقل في هذه المرحلة، وانما ياتي دورهما في مرحلة آخرى أي في مرحلة تحصيل العلوم الشرعية والفقهية، وهي مرحلة سابقة على السلوك الصوفي.

[3] عبارة الإمام عبد القادر هذه، لا تعني اعتقاده بوجود حياة سابقة على هذه الحياة الارضية كتلك التي تؤمن بها بعض الطوائف البوذية، وانما هي تدّل على نفخ الروح التي تاتي بديلاً عن النفس، بحيث ان الإنسان، في معية نفسه الأولى، يبدو كانه ميتاً، فيحييه الله تعالى بهذه الروح النبيلة.

[1] التونسي- رياض البساتين في اخبار الإمام عبد القادر- ص87.

[2] التونسي- المصدر نفسه- ص88.

المعبود فكلما ازداد إحساس العبد بثقل عبوديته من جهة، ازداد إحساسه بعظمة ألوهية خالقه من الجهة الآخرى، وهذا الإحساس يتعزز، حصراً، عن طريق تكريس فعاليات العبودية التي أقرتها الشريعة وهذا التكريس يتعزز أكثر كلما عمل العبد على التخلي عن حظوظ نفسه وسحق وازع الأنانية فيها، وكبح جماح شهواتها ونزوعها المستمر نحو مباشرة لذائذها التي لا تزيدها- في حالة الانغماس فيها- إلا غفلةً وانقطاعاً عن الإحساس بعظمة خالقها وعن الشعور بفقرها تجاهه وحاجتها المستمرة إليه، فإذا كانت عقيدة التوحيد تمثل جوهر الدين الإسلامي، وهي يمكن إن لا يترتب عليها أي عمل أو سلوك روحي، فان التوحيد الحق، يمثل عند الإمام عبد القادر، مرتبة روحية لا ينالها العبد إلا بعد جهد مضنٍ وأعمال شاقة، ويمكن فهم ذلك من خلال زاوية تاكيد الصوفية المستمر على النظر إلى معاني الأمور وفحواها، وعدم حصر النظر إلى المظاهر والحركات، فكما انه يمكن فهم معنىً للصوم هو فوق الجوع والعطش، فكذلك يمكن إن يكون للتوحيد معانٍ هي أكثر عمقاً من الإقرار باللسان والالتزام بالشرائع.

إن التوحيد الحق، هو الذي يجسد حقيقة وجود الإنسان، وليس شيئاً غيره، فالإنسان ما خلق إلا ليعبد ربه، ولا يمكنه إن يعبده بعبادةٍ هي اصحّ واقرب من هذا التوحيد الذي إذا ما بلغه المريد وتحقق به من غير تلفت ولا نظر إلى مخلوق قط، فانه سيتشرب في جميع جوارح الجسم وأفاق النفس وفضاء القلب وعمق السرّ، وسيقلب كيان العبد رأسا على عقب، يقلبه خلقاً آخر، خلقاً جديداً وعجيباً، ولا عجب، فالإنسان لا ياتيه شيء من خارج نفسه، لأنه هو في ذاته، مستودع الأسرار الإلهية ومكمن العلوم اللدنية، وموضع النبوّة، وصفّي الخلافة(1)

هذا الكائن المميز الذي أشتمل خلقه على اغرب الحكم، وأودع فيه الصانع اثمن المعادن الروحية وأعظم الكنوز القلبية، والذي أشتمل كيانه على غرائب أسرار الغيب وجوامع أصناف العلم الرباني، والذي حمل ثقل الأمانة التي كلّت الجبال عن حملها، والذي علّمَ الملائكة ما لم يكونوا يعلمون. ولا ندري، بعد هذا الوصف، هل إن نور التوحيد الحق هو الذي يقلب كيان الإنسان العادي، فيعيده إلى سيرته الأولى قبل إن يهبط إلى الأرض، أم إن ذلك هو من فعل السلوك الصوفي فيه أم من تاثير الزهد في الدنيا والإقبال على الله تعالى ، أم من تاثير المداومة على الذكر والعبادة ولزم حدود الشرع، أم إن كل هذه العوامل، ما هي في حقيقتها، إلا أوجه متعددة لعملة واحدة، معدنها الإنسان الحقيقي النوراني الصوفي الزاهد في الدنيا والذاكر لربه والموّحد بقلبه وعقله ولسانه وكل جوارحه.

---

(1) استناداً لقوله تعالى: " واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة " البقرة- ص 30.

مخالفة النفس

يشكل اتفاق جميع الصوفية، وبكل ألازمان، وبمختلف مشاربهم ومذاهبهم، على قاعدة (مخالفة النفس)، دليلاً واضحاً وأكيدا على ما لهذه (القاعدة) من أهمية كبيرة في تحقيق الفعل الصوفي

وفي إنجاح المناهج الصوفية العملية التي وضعها كبار مؤسسي الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، من الذين دأبوا، ومنذ باكورة تنظيراتهم الصوفية على دراسة حالات النفس الإنسانية دراسة دقيقة ومتانية، معتمدين في ذلك على وسائل التامل الباطني والاستبطان والمراقبة الذاتية تلك الوسائل التي أصبحت فيما بعد، مناهج علمية يعتمدها علماء النفس المعاصرون. إن الإمام العارف، في الطرق الصوفية، مثلاً، يؤدّي دوراً مباشراً وفعّالاً، في معرفة آفات وعيوب وإمراض نفوس مريديه، فيصف لها ما يلائمها من الأدواء المتمثلة بانواع المجاهدات والرياضيات والأوراد والأذكار، بغية تصفيتها وتطهيرها وتزكيتها، وثم التقليل من تعلقها بالجسد لأجل إخلاقها، بعد ذلك في عالم الروح والولاية.

هذه القاعدة نفسها- أي قاعدة مخالفة النفس- يتخذها الإمام عبد القادر، أساسا لبناءاته الصوفية النظرية ومساراً لمناهجه الصوفية العملية، وهو يرى إضافة إلى ما سبق: إن ماهية وفحوى العبادات التي أمرت بها الشرائع السماوية، تتلخص في مخالفة العبد لنفسه وهواه.(1)

فالإنسان مهما بذل من جهد وشمَّر عن ساعدي الجدّ وبالغ في عبادته لربه، من غير ما معالجة لهوى نفسه ومكافحة لنزواتها، فان تلك العبادة قد تعطيه مفعولاً معاكساً، فتنقلب وبالاً عليه وتورثه الكبر والعجب وتولد لديه الشعور بالمنة على الخالق والشعور بالتفوق على بقية العباد، فيقسو عندها قلبه وتنتفخ نفسه، وقد يبلغ بها ذلك حدّ الانفجار الذي هو موت القلب المؤدي إلى التهلكة. لذلك كان لابد أولا، من مبادرة الإنسان صوب نفسه، وسعيه إلى تاديبها ومحاولته لتزكيتها وتصفيتها فالتصوف ما سمي تصوفاً في تعريف الإمام عبد القادر له، إلا لأنه فعل تصفية للنفوس وتجلية للقلوب(2) وان القلب لا يتم جلاؤه حتى تتم تصفية النفس أولا عن خريق تاديبها وترويضها فتصير عندئذٍ مثل كلب أهل الكهف، رابضة بلا حراك، على باب الرحمة وتُنادي: (يا

---

(1) الجيلي - رسالة في التصوف- مخطوطة- دار صدام للمخطوطات تحت رقم (11042).

(2) يُعدّ بشر الحافي(ت-227هـ) اول من قال بهذا التعريف، فالصوفي عنده هو: من صفا قلبه لله تعالى- انظر- الكلاباذي-التعرف لمذاهب اهل التصوف-ص5. على ان هذا التعريف ينسجم تماماً ونظرية الإمام عبد القادر الصوفية التي ان الفعل الصوفي ما هو في حقيقته الا فعل تصفية وتطهير وتخلص من مذمومات الاخلاق والصفات وتحلٍ بالمحمودات منها.

أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك)(3) ((فحينئذٍ يدخل القلب إلى الحضرة ويصير كعبة لنظرات الربّ، ويكشف عن جلال الملِك وكمال الملك، ويستوطن خيمة القرب، ويغرس في جوار الملك، وتظهر نجابته وتسلم إليه وراثته، ويسمع النداء من الرفيق الأعلى: يا عبدي كن عندي، أنت لي وانا لك، فإذا خالت صحبته، صار بطانة للملك وخليفته على رعيته، وغمينه على أسراره، وأرسله إلى البحر لينقذ الغرقى وإلى ابرّ ليهدي الضال، فان مرَّ على ميتٍ أحياه أو على عاصٍ ذكره أو على بعيدٍ قرّبه أو على شقّي أسعده)).(4) وكما نلاحظ، فان الإمام عبد القادر، يسمح، بين الحين والآخر لنصوصه، بان تسترسل فتفصح عن مخبآت ومكامن هي حتماً مما لا يرضى عنه الفقهاء، بينما هو عرف بحرصه الشديد على حفظ المقاربة معهم. ولعله في ذلك كان محكوماً بمقدماته الصوفية التي لا محيص عنها، فهنا مثلاً تمثل إمامنا صورة الإنسان الرباني الفائق، الكلي القدرة، الذي اخلص في نيته في إنقاذ نفسه، وصبر لأجل ذلك وقاسى أصناف الآلام والأهوال، وحين ظفر بمراده صار هو المنقذ والمغيث لغيره، فلقد اخذ الخلافة من الله تعالى على عباده وهي الخلافة العظمى التي لا تكون في هذه الأرض إلا لواحدٍ من البشر.

ان تاكيد الإمام عبد القادر على: ان تنقية معدن النفس وتصفية مادتها، من العلائق الدنيوية والأوهام والأمراض، يجب ان يكون هو المنطلق الأول للرقي الروحي، متاتٍ من اعتقاده بان النفس هي الأمينة على الجوارح، فاذا ما انحرفت فقد أهلكت معها الكل، وأما إذا استقامت وصفت واطمانت، عندها سيسلم اليها مهمة حفظ الجوارح، لأجل إن يتفرغ القلب بعد ذلك للسفر إلى الحق عز وجل ويطلب ما عنده(1) ويتقرب اليه ويتنور بنوره، وان كل ما يجنيه القلب من هذه الرحلة فانه ضرورةً سيفيض من فضله على النفس ومن النفس على الجوارح، فيصفو الكل ويتنور الكل وتحصل النجاة الدائمة. إذن فالتصوف عند الإمام عبد القادر، هو حصراً تصوف القلوب وكذلك الوصول، هو وصل القلب، وأما النفس فهي في بداية أمرها تشكل عقبة في الطريق، فإذا ما تجاوزها الإنسان صحت رحلته إلى ربه وأما إن فشل في ذلك، فلا طريق ولا وصل ولا تصوف.

أطوار النفس

---

(3) الفجر /27.

(4) الشطنوفي- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار- ص78.

(1) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني- ص245.

من النفس المطَوعة المروَّضة، فقط، يكون انطلاق المريد نحو هدفه، فهي التي يعمل عليها اولاً ويتعهدها بالشدة والصبر والمكابدة، حتى تصفو وتطمئن وتتنور، فتكون له عندها، كالنجم الذي يهتدي به السائرون وسط ظلمة الليل، واما السرّ، فان الإمام عبد القادر، يشبهه، بعد الصفاء بالشمس الساطعة وليست الشمس كالقمر وليس القمر كالنجوم، ومن غير نور الشمس لا يكون نهار ولا رؤية يقينية، فهي مراتب اذن، والصدارة فيها تكون للسر، وفي تشبيه آخر، فان السرّ، هو الملك المتربع على عرش مملكة الإنسان وامّا القلب فهو وزيره واما النفس واللسان وبقية الحواس والجوارح، فهي خدم بين ايديهما.(2)لا تملك الا الطاعة والخضوع لهما، ولكي لا نستغرب وصف الإمام عبد القادر، للنفس، هنا بالطاعة والخضوع، فاننا نودّ ان نذّكر بان مجرد سطوع شمس السرّ، داخل الإنسان، بعد جلاء نور القلب، يدلّ على تغيير معدن النفس، ضرورةً، فلولا ذلك التغيير، لما وصل الإنسان، إلى هذا الترقي الروحي.

معارف النفس

على أساس هذا التقسيم (الطبقي) لعناصر الإنسان، يقسم الإمام عبد القادر، معارف البشر على ثلاثة أصناف وهي: الحكمة والعلم والمعرفة، وهذه المعارف تتدرج رقياً وبالتتابع، فنجم الحكمة أولا، وهي مما يتعلق بامور النفس والدنيا، وهي معرفة ظنية يبلغ الشك فيها مستوىً أعلى من مستوى اليقين، ويسميها الإمام عبد القادر بـ ((مظنّة التهمة))(1)

ولعل مردّ هذا التدني في درجة اليقين، يعود إلى اعتماد هذه (الحكمة) على الحواس، مصادر للمعرفة، والحواس، كما هو معروف لا تتعامل إلا مع الأشياء المادية، وهذه لا تملك من الوجود، عند الصوفية، إلا المرتبة الثانية بعد الروح. بعد هذه (الحكمة) ياتي دور قمر العلم، وهذا الشق من المعارف الإنسانية، متعلق بامور الآخرة، وهو من اختصاص القلب، والمعرفة فيه تكون مصطبغة بصبغة الشبه، أي انه يستوي فيها الشك مع اليقين، وأما مقام القلب هنا، فهو مقام الشبه أيضا، وذلك لتوزعه بين وجهين، فوجه ينظر صوب النفس، فيورثه هذا النظر، العلم الظني، أي الشك،

(2) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني-ص223. ويمكننا ان نلاحظ هنا، عدم تاكيد الإمام عبد القادر على ذكر العقل من بين مصادر المعرفة أو مصادر (القرار) وذلك لاعتقاده، بان العقل ما هو في حقيقته، الا أداة محايدة، تميل إلى الخير أو الشر، حسب الآمر الذي يتامر عليه، سواء أكان هذا الأمر نفساً خائشة أو روحاً ⟵ ⟶قدسية، فالعقل، وفق هذا التصور يعّد مطية للخير والشر على حدّ السواء، ولتاكيد هذا الرأي انظر: الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار- ص67.

(1) الشطنوفي- المصدر نفسه- ص77.

ووجه ينظر به صوب السرّ، فيورثه هذا النظر المعرفة اليقينية. أخيرا تاتي مرتبة المعرفة، وهي تاج السرّ، وشمس المعرف، وهي مما ينظر به إلى المولى عز وجل(2) ، إنها من صنف اليقين الخالص، (عين اليقين)، الذي لا يتطرق إليه الشك من قريب أو من بعيد، وأما وسيلتها، فالحدس الفائق مضافاً إليه فيض المواهب الإلهية أو ما يسمى بـ (المعارف اللدنية). هذه المعرفة، لا تجنى إلا بعد صفاء السرّ، فإذا صفا السرّ أتت منه العجائب مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر ببال بشر، حيث عالم الملكوت الأعلى، عالم القدس والخلود والقرب الأبدي.

السلوك الصوفي، اذن، على وفق هذا التشبيه، يمكن عدّه وسيلة من وسائل المعرفة البشرية وليست اية معرفة، بل المعرفة اليقينية التي تعتمد على الذوق والمشاهدة. وهذه المعرفة لا تُنال دفعة واحدة، بل لا بدّ من ان تتدرج صعوداً، ابتداءاً من المعلومات الظنية التي تعتمد على الحدس والاستدلال والاستقراء، وهي مما ينظوي تحتها العلوم الدنيوية، بما فيها العلوم الشرعية، ثم بعدها في المرتبة، تاتي (العلوم) وهي مما يتعلق بالأمور الغيبية، وهذه تحتاج إلى أسس عقلية وحجج وبراهين، ولكنها تعتمد أساساً على التصديق القلبي بالأمور الغيبية والأيمان بها، الذي هو أساساً من عمل القلوب والسرائر. أما المعارف، وهي المرتبة الأخيرة، فانها تتجاوز كل ذلك داخلةً بصورة مباشرة إلى عالم اليقين الذي لا يتطرق إليه شك أو حتى اشتباه، وكون المعرفة لدنية، أي إنها ربانية المصدر، ولكن كونها تاتي من خارج نطاق مدارك الإنسان فان ذلك لا يلغي دور الإرادة الإنسانية في تحصيلها، فالعبد الذي لم يهيئ وعاء قلبه لاستدراج فيضها، لا يمكن ان ينال منها قبساً واحداً، لا بل إنها تُعدّ من أصعب المعارف على الإخلاق، لأنها تحتاج إلى جهد ومثابرة عظيمين .

مما سبق ، يمكننا ان نفسّر مقولة الإمام عبد القادر: ((ان السير إلى الله عز وجل – يكون- على قدر نور المعرفة))(1) أي نور المعرفة بالنفس أولا ثم نور المعرفة به تعالى ، وبغير ذلك لا يتحقق وصول ولا يستحصل قرب، ثم إن هذه المعرفة ، كما تفصح العبارة تقع على درجات، وان هذه الدرجات تختلف باختلاف المصادر التي تنبع منها، وان أرق درجة من درجاتها ، هي تلك التي تتعلق بالسر، وان هذا السر، إذا ما تمكن منه نور المعرفة ، فسيصبح كالشمس التي تنير ما حولها، فيملي على القلب ثم يملي القلب على النفس المطمئنة، وهذه بدورها تملي على اللسان واللسان أخيراً يملي على الخلق، ومن يتكلم على الخلق ((فعليه أن يتكلم

---

(2) التادفي- قلائد الجواهر في مناقب الإمام عبد القادر-ص51. ويمكن القول ان عبارة الإمام عبد القادرهذه تصلح ان تكون أساساً لبحث مستقل يتناول نظرية المعرفةعنده.

(1) الشظنوفي ـ بهجة السرار ومعدن الأنوار ـ ص72

بهذه الصفة وإلا فلا يتكلم))(2) إذ إن الكلام في الحقائق الصوفية والمراتب الروحية ، لا يمكن أن يباح لكل متكلم ، بل هو يوقف حصراً على أهله المتمرسين بحقائقه ، المجاهدين أنفسهم والحافظين أصولَ شرائعهم

الجدل الصاعد والجدل النازل

إن الطريق الصوفي الذي يبغي السالك اجتيازه ، والذي ينتهي به إلى درجة القرب من المولى تعالى ، لا يمكنه قطعه دفعه واحده ، ولا اعتماداً على الوسيلة نفسها ، بل أن هذا الطريق ، يقسمه الإمام عبد القادر على ثلاث مراحل ، وفقاً للتقسيم الثلاثي لباطن الإنسان، المرحلة الأولى منها، يمكن للمريد السالك أن يقطعها اعتماداً على نفسه التي استنارت بعد ان تخلصت من أدرانها وصفت، وصارت مطيعة للقلب ساعيةً لفعل الخير. هذه المرحلة تنتهي عند تخوم باب (الحضرة).(1) وفي هذا (المكان) تبلغ النفس منتهى مراقيها ومراتبها ، فلا وجود للنفس ـ بصورها كافه ـ فيما بعد هذه المرحلة، إذ يبدأ بعدها دور القلب ، الذي يمكنه أن يبلغ بصاحبه إلى مقام (الحضرة). أخيرا ياتي دور السر الذي وحده يمكن أن يصل إلى مقام (المخدع)، قائماً بين يدي الحق تعالى ، وهذا هو أقصى ما يمكن إن يصل إليه أو يناله بشر. ولكن الإمام عبد القادر لا يوقف(مسيرة الروح) تلك، مع نهاية مطاف (جدله الصاعد) ، إذ تبدأ عنده، بعدها ، رحلة (الجدال النازل)، أو رحلة العودة من السماء إلى الأرض، فالسر بعد أن يتمكن من مقامه و ينعم بالقرب والحظوة ، وتنكشف امامه مخبآت العلوم الالهيه، يعود فيلقن القلب من معارفه الربانية (الجديده)، فيحوله إلى قلب جديد وهذا القلب بدوره يلقن النفس ويعيد صياغتها ، وهكذا.

الخلاص الجماعي

وهكذا يمكننا أن نلخص ، مما سبق ، إلى نتيجتين مهمتين ، تسلطان الضوء على فحوى المنهج الصوفي العملي ، أو مضمون طريقته الصوفية التي حاول أن يرسي دعائمها وان يبثها في الآفاق.

---

(2) الجيلي ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني ـ ص54

(1) الحضرة : وهي الحقيقة الكلية الجامعة للحضرات الخمس الإلهية : حضرة الغيب المطلق وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية وفي مقابلها حضرة الشهادة المطلقة وعالمها عالم الملك وحضرة الغيب المضاف وهي تنقسم على ما يكون اقرب من الغيب المطلق وعالمه عالم الأرواح الجبروتية والملكوتية، أي العقول والنفوس المجردة، وعلى ما يكون اقرب من الشهادة المطلقة، وعالمه عالم المثال، ويسمى بعالم الملكوت، والخامسة الحضرة الجامعة للحضرات الأربع المذكورة، وعالمها الإنسان الجامع بجميع العوالم- انظر- الجرجاني- كتاب التعريفات-ص93. وتجدر الاشارة هنا، إلى هذا التعريف ينهل من القاموس الاصطلاحي لابن عربي، الشيء الكثير، إضافة إلى انه يحتاج إلى تعريفات كثيرة أخرى كي يصل مضمونه إلى أذهان الناس، فهو مليء بوفرة من المصطلحات التي لا تقل غموضاً عن المصطلح الأم (الحضرة). ولعل كل ذلك لم يكن حاضراً في قصد الإمام عبد القادر، الذي تعودنا منه دائماً، البساطة والوضوح.

الأولى منهما تتعلق برؤية الإمام عبد القادر للإنسان بكونه وحدة عضوية واحدة، لا تقبل التجزئة أو التفريد على الحقيقة، فالإنسان يصلح كله أو يفسد كله، ولا يمكن أن نرى في الشخص ذاته، نفساً صافيه وقلباً آثماً، أو سراً منوراً بنور المعارف الإلهية وبإزائه روح متمرده غارقة في ظلام الجهل، بل ان مجموع الأجزاء الصالحة ، تشكل إنسانا صالحاً ، وان أي خلل أو نقص في احد أجزاء الإنسان ، سواء أكان يمثل هذا الجزء، نفساً أم قلباً أم روحاً أم سراً، لا يمكن أن يعطينا إلا إنساناً ناقصاً.

الملاحظة الثانية تتعلق بنظرة الإمام عبد القادر للمجتمع البشري بكونه، أيضا، وحدة عضوية واحدة ، لا تقبل التجزئة في الواقع، فلا خلاص لإنسان بمفرده دون بقية أبناء جنسه، بل أن الصوفي الحقيقي، يكون لزاماً عليه- بعد وضوح الرؤية أمامه، وبعد تمكنه من خريقته- إن يدلّ الناس على أكثر السبل نجاةً وأقربها إلى الباري عز وجل، فالنجاة، على وفق هذا المنظور، لا تكون الا جماعية، وكذلك الإصلاح، فهو جماعي أيضا، فلا مجال، إذن ، والحالة تلك، لانطواء الصوفي على نفسه واعتزاله عن الناس بصورة دائمة. أن الصوفي الذي استطاع ان يقطع شوطه في الصعود بنجاح، ثم توقف بعد ذلك، لا يمكن عدّه صوفياً على وجه الكمال، اذ ان هذه الصفة، لا تنال الا من خلال رحلة العودة والنزول، ثم الاندماج بالناس من اجل اصلاحهم.

معرفة النفس الأمّارة بالسوء

فيما سبق، تابعنا، مع منهج الإمام عبد القادر، الصوفي، مراحل تصفية النفس الإنسانية ووسائل تحسين صفاتها، ومراقي سمو مراتبها، وكيف انه يمكن لهذه النفس أن تغدو صالحة مطمئنة، مهياةً لان تلج إلى غرفات رضوان الآخرة من أوسع أبوابها. وهنا، لا بدّ لنا من العودة إلى نقطة البداية وإلى الخطوة الأولى من خطوات السلوك الصوفي وإلى الحالة الأولى من حالات هذه النفس. أما الخطوة الأولى فهي معرفة الإنسان نفسه، وأما حالة النفس الأولى فهي: النفس الأمّارة بالسوء.

يـرى الإمـام عبـد القـادر: إن معرفـة الـنفس الأمّـارة بالسـوء، يُعـدّ ركنـاً أساسـياً ومهمـاً مـن بـين أركـان المجاهـدات والرياضـيات وسـلوك سـبيل القـوم بوجـه عـام.(1) إذ إن هـذه المعرفـة تـدفع بالمريـد السـالك إلى أن يضع نفسـه الأمّـارة بالسـوء في الموضـع الـذي وضـعها ربهـا عـز وجـل فيـه ويصـفها بمـا وصـفها بـه، من قبل إن تخادعه وتظهر له خلاف ما هي عليه.

ولكـي لا يـترك الإمـام عبـد القـادر، كيفيـة هـذه المعرفـة مبهمـة، أو عرضـة لاجتهـاد المجتهـدين وتاويـل المتاولين، فقد وزعها على شقين:

يتضـمن الأول منهمـا متابعـة كلامـه تعـالى ، فقـد ورد فيـه الكـثير مـن الأوصـاف للـنفس الإنسـانية، ولا يخفـى مـا في هـذه المتابعـة مـن تاكيـد مـنهج الإمـام عبـد القـادر، الـذي يحـث علـى ضـرورة الالتـزام بحـدود وأوامـر الشـرع ونواهيـه وان الخطـوة الأولى مـن مرحلـة السـلوك الصـوفي، لا بـد مـن أن تبـدأ مـن خط شروع الشريعة.

أمـا الشـق الثـاني، فانـه يعتمـد بالدرجـة الأسـاس علـى الجهـد الـذاتي للمريـد وعلـى صـبره وإخلاصـه في مسـعاه، فهـو يـتمّ عـن طريـق الاسـتبطان والرصـد الـداخلي والمتابعـة الدقيقـة لخطـرات وحركـات الـنفس، وعـن طريـق هـذه الخطـوة، يمكـن للمريـد مـن أن يعـرف الكـثير مـن خبايـا نفسـه وأسـرارها، فـلا يشـق عليه بعد ذلك أو يخفى، كيفية ملاحقتها ومقارعتها وترويضها وثم حسن سياستها.

صفة النفس الأمّارة بالسوء

هـذه الـنفس الأمّـارة بالسـوء، هـي- كمـا يراهـا الإمـام عبـد القـادر – أعـدى للإنسـان مـن أي عـدو آخـر حتـى ولـو كـان إبلـيس ذاتـه، وإنمـا يقـوى إبلـيس علـى الإنسـان بهـذه الـنفس وبقبولهـا منـه، ولـذا فـان علـى المريـد إن يعـرف، أولا وقبـل كـل شـيء، ماهيـة طباعهـا ومـا رادتهـا، وألام تـدعو وبم تـامر وكيـف هـو تكوينهـا وخلقهـا. هـذه الـنفس جُلبـت بطريقـة عجيبـة، فهـي مـوطن لكـثير مـن الصـفات والطبـائع المتناقضـة، إنهـا مخلـوق ضـعيف بذاتـه، ولكنهـا في الوقـت نفسـه، قويـة الطمـع، شـرهة مدّعيـة، خارجـة عـن طاعـة الله تعـالى ، متملكـة، متمنيـة. إنهـا إن خافـت، فهـذا يعـني في حقيقـة الأمـر أنهـا

(1) الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل-ج/3- ص1326. وهذا الركن هو واحد من بين أربعة أركان يشترط توافرها في المريد السالك، فيما لو عقد العزم على انتهاج سبيل القوم وهي: أولا معرفة الله تعالى وثانياً معرفة عدو الله إبليس وثالثا معرفة النفس الأمّارة بالسوء، ورابعاً معرفة العمل لله تعالى أو تحري سبل الخلاص. هذه الأركان كما يرى الإمام عبد القادر، هي الطريق الصحيح وان كل ما عداها جهل وتخبط.

آمنة، وهي إن صدقت، فهذا يعني إنها كاذبة، رجاؤها أماني ودعواها باطلة وكل شيء منها غرور، وليس لها فعل محمود ولا دعوى حق.(1)

ولولا أن الإمام عبد القادر قد ابتدأ بوصف هذه النفس بالضعف لبدا لنا إن مصير الإنسان معها محكوم لا محالة بالهلاك. ولعل ذلك (الضعف) لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، فالرهان صعب وواقع حياة البشر أصعب، أو لعل الإمام عبد القادر، كان يبغي، من وراء إظهاره لقتامة موقف الإنسان، إن يبين لنا مدى خطورة السبيل الذي يضع المريد نفسه فيه فالذي يبغي النجاة ويهدف إلى انتشال ذاته من ذلك المصير، لا بدّ عليه من إن يشمرّ عن ساعدي الجدّ وان يشد العزم على اجتياز العقبات كافة ولو كلفه ذلك تغيير بعض طباعه والتخلص من بعضها الآخر.

إذن فعلى المريد السالك، والحالة هذه، إن لا يغتر بما يظهر له من نفسه من طاعة وخضوع، وان لا يرجو منها خيرا أو يطمع في صواب، بل أن يبقى معها في دوام المراقبة والمخالفة والمحاسبة فهو إن حلّ عنها قيودها شردت، وان أطلق وثاقها جمحت وان أعطاها سؤلها هلكت وان غفل عن محاسبتها أدبرت وان عجز عن مخالفتها غرقت وان اتبع هواها تولت إلى التهلكة.(1)

وعليه، فليس للنفس الأمّارة بالسوء حقيقة ولا صدق ولا رجوع إلى صلاح أو خير، وهي رأس البلاء ومعدن الفضيحة وخزانة إبليس ومأوى كل سوء ولا يعرفها أحدٌ غير خالقها، فهي في الصفة التي وصفها به.(2) وإضافة إلى ذلك، فان النفس لا توصف بمنقصة أو رذيلة، إلا وهي في حقيقتها، أكثر مما توصف به، وهي لأجل كل ذلك صارت صديقة إبليس ومستراحه ومسامرته ومحدثته، فإذا عرفها المريد على هذا الوجه، فقد عرفها وهانت عليه وذلت وقوي هو عليها بالله تعالى وبمعرفته هو بها.(3)

إذن فالقصد من وراء معرفة المريد بنفسه هو: اكتساب الخبرة والدراية بها وبقدراتها ونوازعها وطباعها، وكذلك مكامن القوة والضعف فيها لأجل التمكن منها والسيطرة عليها ولأجل الاستعداد والتاهب لمكائدها ومصائدها. فانها إن كانت عدوة، فهذا يعني أنّ المريد السالك في حالة حرب مستعرة معها، فان كان قد عقد العزم على كسب الجولة في هذه الحرب، فان عليه إن يتبحر جيداً في معرفة عدوه وان يعمل جاهداً على كشف أسراره. ولكن معرفة هذا العدو(النفس) ليست

---

(1) الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل –ج/3-ص1330

(1) الجيلي - المصدر نفسه- ج/3-ص1330

(2) يشير الإمام عبد القادر هنا، إلى قوله تعالى: " وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء" سورة يوسف - آية/53.

(3) الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل- ج/3-ص1330.

شعاراً يردده المرء مع نفسه، بل هي عمل دؤوب وشاق يتبعه سعي إلى تغيير دوافع النفس وتوجيهها الوجهة الصحيحة.

ويسال الإمام عبد القادر، بعد كم وكم من المجاهدات والأفعال الشاقة والجوع والعطش، يمكن لهذه النفس، التي جبلتها وحقيقتها الأمر بالسوء، أن تامر بما يامر به القلب؟ أي بمعنى آخر، إن تتهذب طباعها فتصدر عنها أفعال مغايرة تماماً لما كان يصدر عنها في سابق عهدها. إنها في هذه الحالة، ستكون بحاجة إلى عملية تذويب وإفناء، فهي ((إذا ذابت وفنيت، اطمأنت إلى القلب، ثم ياتي دور القلب بعدها، فيطمئن إلى السرّ، ثم يطمئن السرّ إلى الحق تعالى ، فيكون شرب الجميع- أي النفس والقلب والسرّ- من هنالك(4) أي من منبع الحق والذوق والمشاهدة، وهو منبع علم اليقين الذي ما بعده علم يفوقه.

1- إن عمليتي التذويب والإفناء، لا تدلّان عند الإمام عبد القادر على قلع أو إزالة النفس بكل طباعها وأهوائها ونوازعها، وإنما هما تدلّان على عملية تمثيل أخلاقي لصفات القلب وطبائعه الحسنة، فالنفس التي تعتاد التطلع إلى مقام القلب، لا بدَّ من إن تقتبس من نوره الشيء الكثير. على إن عملية التذويب والإفناء هذه، لا تتم بنجاح إلا بعد إن يكون المريد قد امتلأ إرادةً وعزماً على إن يخالف نفسه في موافقته ربه وموافقته لنفسه في طاعته ربه، في الوقت نفسه الذي يكون فيه قد خالفها في معصيتها ربها، فكل الأعمال التي ياتيها المريد، لا بدّ إن تكون مقرونة بمرضاة الله تعالى وطاعته، وألا فانها لا تحسب من أعمال القلوب ولا تعدُّ من فقرات السلوك الصوفي وهذا النهج- أي اقتران الفعّاليات الصوفية بنية مرضاة الله تعالى - يُعدّ الدليل الوحيد على صحة النهج الصوفي ومشروعيته، ويُعدّ أيضاً، الحدّ الفاصل بين صدق أم كذب هذا ألفعلO

التصوف وطول الأمل

إذن فعملية الترقي بطباع النفس وأهوائها ترتكز بالدرجة الأولى على الإنسان ذاته فالإنسان هو حتماً أشفق شخص واحرصه على حفظ نفسه وإنقاذها وتجنيبها الضياع ، لأنه إن ضيع نفسه فكيف يرجو من غيره أن يوليها عناية أو يحفظها له؟ ويرى الإمام عبد القادر ، إن طول الأمل والحرص على الدنيا ، هما أنكى ما يمكن أن يصيب الإنسان من داء يودي بنفسه إلى التهلكة والضياع ، ولذ فهو ينصح مريديه وسالكي الطريق الصوفي بوجه عام ، أن يجتهدوا من اجل تقصير الأمل وتقليل الحرص على الدنيا عن طريق الإكثار من ذكر الموت (هادم اللذات) وعن طريق مراقبة الله عز وجل

(4) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني-ص174.

والتـداوي بانفـاس الصـدّيقين وكلمـاتهم وهـم شـيوخ ألتصـوف المتمرسـون بطـبّ النفـوس وأخـيراً عـن طريق الذكر الصافي من التكدر، سراً وجهراً وفي جميع الأوقات.(1)

وهـذا (العـلاج) الأخـير، يعـدّ مـن أهـم العلامـات الـتي تميـز جماعـة الصـوفية مـن غيرهـم مـن الجماعـات، وهـم في الوقـت نفسـه ، يعدّونـه ، فيمـا لـو صـحبه جهـاد الـنفس، مـن أفضـل وسـائل نيـل درجات القرب من الله تعالى .

يعـرف الإمـام عبـد القـادر طويـل الأمـل بانـه : مـن يظـن إن بامكانـه أن يقـترب مـن مـولاه ، وان يـنجح في سـلوك طريـق القـوم ، قبـل أن يـتمكن مـن تزكيـة نفسـه وتنقيتهـا مـن الاكـدار وإذابـة شـرورها ، وقبـل أن يـتمكن مـن تغذيـة قلبـه بالغـذاء الحقيقـي ، وهـو ذكـر الله تعـالى وطاعتـه(1) إن الاكـدار الـتي تعلـق بـالنفس والغفـلات الـتي تحجـب القلـب عـن ذكـر ربـه ، تعـد مـن قبيـل النجاسـة الباطنيـة وعـدم الطهـارة الروحيـة في الإنسـان، ومـن كانـت هـذه صـفته، فـلا يطمعـن في قـرب أو وصـول، إذ لا وصـول، علـى الحقيقـة، مـن دون يقظـة القلـب وصـفاء الـنفس وقصـر أملـها، وان مـن قصـر أمـل نفسـه ، فانهـا سـوف تطيعـه إلى مـا يريـد منهـا، وهـو حتمـاً، بعـد أن أصـبح سـالكاً، لا يريـد منهـا، إلا الاسـتزادة مـن وهـج الأنـوار القدسـية. إن الـنفس طويلـة الأمـل، لا تعـدو كونهـا حجابـاً، بحجـب بصـيرة الإنسـان عـن النظـر إلى الحقـائق الربانيـة اليقينيـة، لا بـل إنهـا تحجـب الإنسـان عـن خالقـه وذلـك بتعلقهـا بالـدنيا، أو حتـى تعلقهـا بـالآخرة ، فالـدنيا والآخـرة كلتاهمـا مخلـوق، وان مـن تعلـق بمخلـوق حجـب عـن الخـالق إذ إن (مالـك ومملـوك لا يجتمعـان)(2) علـى إن عبـارة الإمـام عبـد القـادر هـذه، لا تشـكل مانعـاً يمنـع المريـدين مـن الأخـذ بنصـيبهم مـن الـدنيا، فهـذا مـا يؤكـده دائمـاً، بـل ان الـذي يمتنـع عنـده فقـط، هـو اجتمـاع الـدنيا والآخـرة في القلـب، فالقلـب هـو مـوطن الـذكر والعلـم والحـب الإلهـي، وهـو أيضـا، موضـع نظـر الـرب فـإذا مـا التـزم القلـب بهـذا الحـد واخلـص في ولائـه لمـولاه، عنـدها، سـوف لا يكـون هنالـك خـوف على العبد فيما لو نال من الدنيا نصيبه، عبر المنافذ المباحة في الشرع .

مجاهدة النفس

إن مجاهـدة الـنفس الأمّـارة بالسـوء ، هـو الشـعار الـذي لا يكـل الإمـام عبـد القـادر عـن ترديـده في اكثـر مناسـبات حديثـه، فهـو يـرى أن الهدايـة الحقيقيـة تكمـن في مجاهـدة المـرء نفسـه، وانـه لا هدايـة مـن غـير

---

[1] الجيلي –الفتح الرباني والفضل الرحماني –ص174

(1) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني –ص174

(2) الجيلي – المصدر نفسه – ص174

تلـك المجاهـدة ، وقولـه (جاهـد نفسـك حتـى تهتـدي)(3) وإننـا إذا أردنـا أن نسـلط الضـوء علـى هـذه العبـارة، فسـيمكننا القـول انـه يسـتحيل علينـا تصـور بلـوغ الإنسـان سـبل الرشـاد، وهـو مسـلوب البـاخن ومـوزع بـين أهـواء متضـاربة ونـوازع شـتى تدفعـه بعيـدا حتـى عـن مجـرد النظـر إلى تلـك السـبل والهدايـة إذا مـا فسـرت بمعنـى الاهتـداء والوصـول الـذي يـتم بعـد التيـه والضـياع، فانهـا سـتحتاج حتمـاً إلى حـواس سليمة وبصيرة نافذة، وهذه لا تكتسب إلا بعد تصفية النفس من خلال فعل المجاهدة.

والمجاهـدة لصـعوبتها وشـدة وخامتهـا علـى نفـس المريـد، فـان الإمـام عبـد القـادر يشـبهها بـالموت الإرادي الـذي يسـعى إليـه الإنسـان بنفسـه في مقابـل المـوت الطبيعـي الـذي يـاتي حتـف الأنـف، فالمجاهـدة إذن تعـني أن يميـت المريـد نفسـه قبـل إن يـدهمها المـوت الطبيعـي وهـي علـى حالهـا الأول فتحـرم الحرمـان الأبـدي، وتعـذب وتبعـد، فـلا قـرب لهـا بعـد ذلـك ولا جـزاء ، أن يميتهـا بـين يـدي الحـق عـز وجـل، بالصـبر والمخالفـة ((فعـن قريـب يحمـد عاقبـة ذلـك، إذ أن صـبره يفنـى وأمـا جـزاؤه فـلا يفنى))(1)

ولأجـل هـذه (الاماتـه) يضـع الإمـام عبـد القـادر، لمريديـه، خطـة عمليـة، يعلمهـم مـن خلالهـا – تعلـيم خـبير متمـرس – كيفيـة تعاملـهم مـع نفوسـهم الأمّـارة بالسـوء فيقـول: لا تـرخص لهـا – أي لنفسـك – ولا تطعهـا، كـي تفلـح، ولا تتبسـم في وجههـا، وجاوبهـا عـن كـل ألـف كلمـة بكلمـة واحـدة، إلى أن تتهـذب وتطمـئن وتقنـع ، فـإذا مـا خلبـت منـك الشـهوات واللـذات، فماخلـها وآخرهـا وواعـدها في الآخـرة، إذ إن لهـا فيهـا نعيمـاً دائمـاً وملكـاً لا يـزول، صـبرّها علـى مـرارة المنـع، حتـى يجيئهـا العطـاء الحقيقـي الـذي مـا بعـده منـع. إذن فلاحّـظ للـنفس في هـذه الـدنيا، وأمـا الحظـوظ الـتي هـي نصـيب المريـد مـن دنيـاه والـتي لابـدّ لـه مـن تناولهـا، فانـه لا يمكنـه مـن أن يتناولهـا، إلا بعـد أن يميـت أهـواء نفسـه بحيث يُقبل بعدها على الدنيا من غير إستلاب نفسي أو غفلة قلبية.

ولأجـل أن يُحكـم المريـد، ضـرب خوقـه حـول عنـق الـنفس، فـان الإمـام عبـد القـادر، ينصـحه، إضـافة إلى مـا سـبق، بـان يحـرص علـى التـزام الصـمت، وأن يمسـك عـن الإدّعـاء، وأن لا يكـون لـه كـلام و لافعـل وهـو في (الطريـق)، حتـى يخـرج مـن بيـت خبعـه وهـواه ووجـوده وحتـى يخـرج، أخـيراً، عـن

(3) الجيلي – المصدر نفسه – ص174

(1) الجيلي – المصدر نفسه – ص176. وفي هذه الصفحة يذكر الإمام عبد القادر قصته مع الموت فيقول : أنني مت ثم احياني الله عزوجل ، ثم أماتني فغبت، ثم أوجدني من غيبتي . هلكت معه، ملكت معه، جاهدت نفسي في ترك الاختيار والإرادة ، حتى حصل لي ذلك ، فصار القدر يقودني والمنة تنصرني والفعل يحركني والغيرة تعصمني والإرادة تطيعني والسابقة تقدمني والله عز وجل يرفعني . أي أنه بعد إماتته لنفسه، صار مطلق التسليم لله تعالى فصار لايفعل ولا يتحرك ولا يقدر الا بالله تعالى .

نفسه، بان ((يترك نفسه وهواه وخبعه على الباب كي يُسرع إلى الأساس، لأنه إذا أحكم الأساس، أسرع في البناء، وأنجز ما عقد عليه العزم، فكان من الواصلين، وما الأساس إلا الشريعة، وما مادته إلا الفقه في الدين)).(2)

ويستدرك الإمام عبد القادر، هنا، فينبه، إلى أن قصده من الفقه في الدين في هذه المرحلة، هو فقه القلب، (1) وليس فقه اللسان، لأن فقه القلب هو الذي يقرّب العبد إلى الحق عز وجل، وأما فقه اللسان فانه لا يُقرِّب إلا من الخلق وملوكهم. (إن فقه القلب يتركك في صدر مجلس القرب من الحق عز وجل، يصدّرك ويرفعك ويقرَبّ خطاك إلى ربك عز وجل).(2)

ولكن ليس علينا أن نعتقد، بناءً على سبق، بان للنفس عند الإمام عبد القادر، كيانها المستقل عن باقي التكوين الكلي للإنسان، لكونها قد بدت أمامنا، وكانها عبد مارق أعجز سيده، فبدا له ضرورة تطويعه وترويضه باقسى الوسائل. إنه يعاملها بإحتقار وتشفٍّ، بحيث يفرح لحزنها ويحزن لفرحها. إن النفس الإنسانية، عند الإمام عبد القادر، إذا كانت جزأ لا يتجزأ من القلب أو السرّ، أو الإنسان بوجه عام بكونه وحدة عضوية لا تقبل التجزئة، فانها في الوقت نفسه، تبدو لنا كجهاز يعمل على وفق آلية خاصة، لها نوع من الاستقلال عن باقي (أجهزة) الإنسان الأخرى، بحيث أنه يمكنه العمل بما يخالف مراد الإنسان ومبتغاه، وعلى هذا الأساس، تكمن مجاهدة المريد في تحوير آلية هذا الجهاز وثم تشغيله عبر آلية جديدة تعمل في تناغم تام مع بقية أجزاء (المجمَّع) الإنساني.

حقيقة النفس

إن حديث مشايخ التصوف، بعامة، عن النفس الإنسانية، بهذه اللهجة التي تغلب عليها نبرة الكراهية والمعاداة، لا يشمل هذه النفس، بمراتبها ومقاماتها كافة، وإنما يشمل منها، فقط، النفس الأمّارة بالسوء، التي لا تمثل، في حقيقتها، إلا وجهاً واحداً من بين أوجه النفس الإنسانية

---

(2) الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص177

(1) فقه القلب عند الإمام عبد القادر، يعني العلم بمراتب النفس وخواطرها وهواجسها وخصالها وأمراضها وكيفية التعامل معها. وهو هنا لا يفاضل بين هذا الفقه والفقه الظاهري أو الشرعي، فللأخير أهميته التي لا غنى عنها لأي سالك، وهذا الموضوع قد تمّ البتّ فيه في الفصل السابق، ولكنه يؤكد، على أن حاجة المريد المرحلية – أي وهو في خور المجاهدة – تكون إلى الفقه القلبي أكثر منه إلى أي علم آخر، لأنه لو ضلع في فقه الظاهر قبل أن يعامل نفسه بالمجاهدات، فانه سيقع حتماً فيما يقع فيه الكثير من الفقهاء، وهو أنه سيكون حبيس رأي أهل الدنيا فيه.

(2) الجيلي – المصدر نفسه – ص 177

المتعددة، التي سياتي تفصيل الكلام فيها، فيما بعد. أما لماذا أولى الصوفية، وبخاصة منهم الإمام عبد القادر النفس الأمّارة بالسوء، كل تلك الأهمية، بحيث انهم، اشبعوها، دون بقية الأنفس، بحثا وتاملا واختبارا، فان ذلك يعود، إلى اعتقادهم: بان هذه النفس، تشكل فى طريق السالكين، مرحلة صعبة وعقبة كاداء، بحيث إذا ما استطاع المريد تجاوزها، فانة سيتيسر عليه بعد ذلك، الإسراع صعودا فى مراقى النفس التالية، فيستحق عندها تسمية الصوفي. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الإمام عبد القادر، لا يعني بإحصائه لأوجه النفس المتعددة، وجود كثرة من الأنفس في الإنسان ذاته، منفصلة إحداها عن الأخرى، بحيث تخلع وتُستبدل، كفعل المرء مع قطع ثيابه، وإنما هي عنده، نفس واحدة، ولكنها تكثرت باعتبار صفاتها الغالبة، وهو يرى أن هذه النفس، بمجموع صفاتها هي: النفس الناخقة وهي القلب، ولكن ليس المراد، هنا، بالقلب هو تلك المضغة اللحمية القابعة في جوف الإنسان، وإنما هو، اللطيفة الربانية، أو الجوهر المجرد عن المادة في ذاته، المقارن لها في أفعاله.(1)

و لا يخفى على القارئ، أن هذا التعريف ينسجم ومعطيات النظرية الأفلاخونية في النفس، فهذه النظرية تضع للنفس الإنسانية وجوداً مجرد ومستقلاً عن المادة، لا بل حتى وجوداً سابقاً عليها، على أن هذه الإشارة، لا تعني ضرورة، تاثر الإمام عبد القادر، المباشر، بآراء هذه المدرسة، إذ لم نجد في فكره، أي تقارب أو تعامل مع الفلسفة بوجه عام، هذا بالإضافة إلى أنه يمكن القول: إن اعتقاد مفكري الإسلام، بإستقلال وجود النفس أو الروح عن وجود الجسد وكذلك قولهم باسبقية هذا الوجود، هو أقرب إلى معطيات العقيدة الإسلامية منه إلى المدرسة الأفلاخونية، إذ إن لهم في أسسهم الشرعية أسانيد كثيرة تؤكد لهم ذلك.

أسماء النفس

هذه النفس، كلما إتصفت بصفة، سميت، لأجل إتصافها بها، باسم من هذه الأسماء، فإن صادفت ما وافقها من الشهوات وصارت تحت حكمها، سميت أمّارة، وإن سكنت تحت الأمر

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوخة – دار صدام للمخطوخات تحت رقم – 9166 -.

التكليفي وأذعنت لإتبّاع الحقَّ ولكن بقي فيها ميل للشهوات، سميت لوّامة فان زال عنها هذا الميل، وقويت على معارضة الاهواء الشهوانية، سميت نفساً مُلهمة فاذا ماسكن أضطرابها، ولم يكن للنفس الشهوانية حكم فيها ولاسلطان أصلا، سميت عندئذٍ بالنفس المطمئنة فاَن ترقَّت عن جميع ذلك، وأسقطت كل المقامات والمراتب من عينها، وفنيت عن جميع موادها، سميت نفساً راضية، فان زاد حالها هذا، وتطبعت به بحيث لم تطلب الرجوع عنه، صارت نفساً مرضية، عند الحق وعند الخلق، وأخيراً فان هذه النفس، إذا ماأُمرت بالرجوع إلى العباد، من اجل هدايتهم وارشادهم وتزكيتهم وتكميلهم، سميت نفساً كاملة(1).لان الله عز وجل، كمّلها ببلوغها أعلى المقامات والمراتب المرجوّة، وهو مقام الخلافة العظمى(2) وهداية العباد.

إننا أذا ما أحصينا عدد هذه (الانفس) التي ذكرها الإمام عبد القادر، وجدناها سبع أنفس، وهذا(العدد) كبير نسبياً، يكاد ينفرد به دون من سبقه من الصوفية، فالغزالي مثلا، وهو(آخر) الشيوخ السابقين عليه، إكتفى، كما مرَّ بنا في بداية هذا المبحث، بخمس أنفس فقط0 ولعل عدد ألانفس عند الإمام عبد القادر، متعلق بعدد ماأحصاه فيها من صفات ومراتب ومقامات، فهو قد توسع في ذلك، وأولاه كثير عناية وأهتمام، أنسجاماً مع توجهه التربوي وألاصلاحي. وعلى العموم، فان تقسيم ألنفس الإنسانية على عدة أنفس، سواء عند الإمام عبد القادر ، أو عند غيره من شيوخ التصوف، ماهو في حقيقته، إلا تقسيم أجرائي، يخدم أغراضهم التربوية وألتعليمية، وامّا في واقع الحال، فانهم جميعاً متفقون، على أن هذه النفس، ماهي في حقيقتها إلا وحدة واحدة وكيان متماسك، له صفات متعددة، تتدرج من المستويات السيئة أو الدنيا إلى المستويات الحسنة أو العليا وعند الإمام عبد القادر، فان أدنى مستوى لهذه ألنفس، هو مستوى ألنفس الأمّارة بالسوء، ثم ياتي بعدها مستوى النفس أللوّامة ثم ألنفس أملهمة ثم النفس المطمئنة ثم النفس المرضية ثم النفس الراضية، ثم أخيراً مستوى النفس الكاملة، وهو مطمح جميع الصوفية ومبتغاهم، أما تفصيل الكلام في ذلك فهو كما ياتي:

أولا: النفس الأمّارة بالسوء

---

(1) الجيلي -سير السلوك إلى ملك الملوك-مخطوطة

(2) الخلافة في أصطلاح الصوفية تعني ألامامة،وهي على قسمين:خلافة صغرى وهي ألامامة أو الرئاسة الضاهرية،وخلافة كبرى وهي ألامامة والرئاسة الباطنية0 أنظر معجم مصطلحات ألصوفية-د عبد المنعم الحفني- ص91.

هـذه الـنفس تولـد مـع كـل إنسـان، فهـي قـدره الـذي لا يسـتطيع عنـه فكاكـاً، إلا إذا تعهـدها بالتاديـب والرياضـات، وهـي نفـس ذات حجـب ظلمانيـة، لونهـا أزرق(3) ومحلـها الصـدر، بكـون الصـدر في عـرف الصـوفية، هـو محـل الوسـاوس والهـواجس، ومنـه تنطلـق الرغبـات والأهـواء الـدوافع الحسـية كافـةً وعالمهـا الشـهادة، وهـو العـالم الحسـي المحـض الـذي لا يخالطـه غيـب، وواردهـا الشـريعة، (1) إذ لابـد لصـاحب هـذه الـنفس مـن أن يتفقـه في علـوم الـدين وحـدوده، لكـي يعـرف مالـه ومـا عليـه، ولكـي لا يقـترف المحـارم والمنـاهي عـن جهالـة. هـذه الـنفس تشـتمل علـى تمـام دائـرة صـفات الكفـر والعنـاد والإنسـان معهـا يكـون تابعـاً لهـوى نفسـه، ولـذا فهـو يحتـاج إلى الرياضـة(2) المتواصـلة وإلى تصـفية الـنفس والإشـتغال بالـذكر، وخصوصـاً منـه ذكـر (لا الله إلا الله)، فلهـذا الـذكر في إعتقـاد الإمـام عبـد القـادر، خاصـية عجيبـة تتمثـل في القـدرة علـى الـتطهير، أي تطهـير الـنفس، ولـو كانـت سـيئاتها مثـل زبـد البحـر في الكثـرة والتتـابع. ولأجـل إحكـام القبضـة علـى هـذه الـنفس، فـان الإمـام عبـد القـادر، ينصـح مريـده، صـاحب هـذه الـنفس، بـان يتـذكر أسـباب الخـوف، لأنـه، في هـذه المرحلـة، أنفـع لـه مـن الرجـاء ولكـن شـرط أن لا يوصـله هـذا الخـوف إلى حالـة القنـوط أو يلقـي بـه في ظلمـة اليـاس مـن النجـاة مـن الهلكـة. وهنـا، يؤكـد الإمـام عبـد القـادر، كمـا في مواضـع كـثيرة علـى ضـرورة الموازنـة بـين الأحاسـيس والـدوافع الدينيـة المختلفـة، كـي لا يصـل المريـد، مـن جـرّاء إفراخـه في التشـبث بحالـه، إلى حالـة الشـعور بالإحبـاط الديني الذي كثيراً ما يصاب به السالكون.

وعلـى صـاحب الـنفس الأمّـارة بالسـوء، أيضـاً، أن يعتـاد علـى الـتذلل والخضـوع والتضـرع إلى الله تعـالى ، لأن في ذلـك علاجـاً لهـذه الـنفس مـن الشـعور بـالكبر والاسـتعلاء علـى الآخـرين والأنانيـة المفرخـة. ولـيكن هـمّ المريـد في هـذا (المقـام)، الخـلاص مـن ضـيق الـنفس والتوجـه إلى فضـاء الـروح وأن يكـون ديدنه المستمر ومطلبه الأوحد، هو التخلي عن الأوصاف الذميمـة والتحلي باضدادها

وإسـتبدال أخلاقـه السـيئة، بـالأخلاق الحميـدة الـتي أوصـت بهـا الشـريعة المحمديـة.(1) ولعـل الإمـام عبـد القـادر، يريـد أن يخبرنـا مـن وراء ذلـك، أنْ لا جديـد و لا إبتـداع في كـل مـا يـامر بـه الـنهج الصـوفي

---

(3) هو معنى قول الإمام عبد القادر، أن الإنسان لا يمكنه أن يتخطى حدود إنسانيته. ثم أخيراً تاتي النفس السابعة (الكاملة) وهذه ليس لها لون، لأنها تسمو على جميع المراتب والصفات وتسمو على جميع ما تدركه الحواس.

(1) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص15

(2) الرياضة في إصلاح الصوفية تعني: تهذيب الأخلاق النفسية وتخليصها من خلطات الطبع ونزعاته. إنظر – الجرجاني – كتاب التعريفات – ص119

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

الصحيح، إذ أن الذي يدعو إليه، لا يخرج قط عن مظلة الشرع الإسلامي، لا بل إنه هو الشرع بعينه، وإن كل ما عداه، هو مما يقصر عن بلوغ مراد وحقيقة الشرع.

يرى الإمام عبد القادر، أن هذه النفس الأمّارة بالسوء، كانت في الأصل نفساً صافية، ولكنها لمّا تدنست بالميل إلى الطبيعة والركون إلى الشهوات، وصادفت الدوافع الشهوانية والميول والطبائع الغريزية، انخرخت في السلوك الحيواني، وتبدلّ صفاءها كدراً ومحاسنها معائباً، وصارت لا تتميز عن الروح الحيواني إلا بالصورة، وصار الشيطان من جندها، فهي التي تامره وهي التي توجهه وهو لا يستطيع إن يفعل شيئاً من دون رغبتها أو إرادتها وفي هذه النقطة الأخيرة، يشير الإمام عبد القادر إلى مسالتين مهمتين: الأولى، اعتقاده الصريح بثنائية الإنسان، وباسبقية وجود الروح على وجود الجسد، والثانية إعطاؤه مزيداً من الدفع لحرية الإنسان ومسؤوليته عن أعماله، وذلك بتقليصه لدور قوى الشر، التي خالما يعزو البشر أسباب خطاهم إليها.

أما عن صفات هذه النفس، فان الإمام عبد القادر، لم يبقِ ولم يذر شياً من الصفات السيئة إلا وألصقها بها، فهي تتصف بالبخل والحرص الشديد والغل وسوء الخلق، والخوض فيما لا يعني من كلام وغيره، وكذلك الاستهزاء بالآخرين والبغض لهم وايذاؤهم، إنها النفس الخبيثة، وذلك لأنها واقعة تماماً في ظلمة الطبيعة، فلا فرق عندها بين الحق والباخل و لا بين الخير والشر، ولذلككان الشيطان لا يقدر على الدخول إلى الحرم الإنساني الا بواسطتها.(2) ولذلك ايضاً، كان الإنسان مع هذه النفس، أبعد ما يكون عن مرتبة الإنسانية الحقة، لأن نفسه في هذا المقام، تكون محجوبة بالحجب الظلمانية الكثيفة، أما ما عداها من النفوس التالية، فهي محجوبة بحجب نورانية بعضها أرقّ من بعض، ولذلك فان السالك لا يستحق تسمية المريد إلا إذا تجاوز حدود أرض هذه النفس.

نخلص مما سبق، إلى أن النفس الإنسانية، ما هي في الأصل إلا روح خاهرة نقية خيرّة، لا يربطها بمكامن الشر والغرائز والأهواء أي رابط، وهي لا ينالها ما ينالها إلا من جرّاء إتصالها بالجسد مكمن النقائص والشهوات، إذن، فلا داعي للياس والقنوط فالسبيل غير مغلقة أمام الإنسان

لإصلاح حاله، بل إن الخير والصلاح هما حقيقته الأصلية وأما ما عداها من الشرور، فانها أمور خارئة، يمكنه تجاوزها فيما لو عقد العزم على ذلك. الإنسان إذن خيرٌ بطبعه نقي بسريرته، ولا يحتاج منه العمل على العودة إلى الصلاح (المفقود) إلا عقد العزم والصبر على الشهوات، وليس في الأمر تغيير للطباع وإنما سيطرة عليها وإستعادة لما فُقد منها في السابق.

---

(2) الجيلي – المصدر نفسه – مخطوخة.

ثانيا: النفس اللوّامة

وهـي المرتبـة الثانيـة مـن مراتـب الـنفس الإنسـانية، لـون نورهـا أصـفر، ومحلـها القلـب، بكـون القلـب هـو موضـع اللـوم والتبكيـت والمحاسـبة والمراقبـة، وأمـا عالمهـا فهـو عـالم الـبرزخ(1) وواردهـا الطريقـة، بمـا يتضـمنه هـذا الـوارد مـن الأخـذ بالرياضـات والمجاهـدات والخـوض في ضـروب التجويـع والتزهـد في الـدنيا والمداومـة علـى الأذكـار، وكـل ذلـك يُعـد مـن العوامـل الـتي تعـين الـنفس علـى تـرجيح كفـة الخـير فيها.

تميـل الـنفس اللوّامـة إلى الحـلال ونفـع النـاس وحمـل الأذى عـنهم، وهـي تتحـرى كسـب الحـلال ومتابعـة الأخـلاق الحميـدة وحـبّ الإصـلاح والإخـلاص في الأعمـال، ويحـدد الإمـام عبـد القـادر لفـظ الجلالـة (الله) ورداً لهـذه الـنفس، وذلـك لأن سـيرها لله عـز وجـل وحالهـا المحبـة، وهـذا الـورد، فيمـا لو أخلص المريد في ذكره، قلباً ولساناً وحالاً، فانه سيقترب كثيراً من رحمة الله تعالى .(2)

ولا تعـدم الـنفس اللوّامـة بعـض الصـفات السـيئة، فهـي تتسـم بكثـرة اللـوم والفكـر والعجـب وكثـرة الإعـتراض علـى الخلـق والريـاء الخفـي وحـبّ الشـهوات وخلـب الرئاسـة. ولكـن مـع كـل هـذه النقـائص الـتي تحملـها، إلا إنهـا تـرى الحـق حقـاً والباطـل بـاطلاً، وتعلـم أن هـذه الصـفات مذمومـة، لكنهـا في الوقـت نفسـه لا تقـدر عنهـا فكاكـاً. ومـن جهـة أخـرى فـان لهـذه الـنفس رغبـة في المجاهـدة وموافقـة الشـرع ولهـا أعمـال صـالحة، رغـم أن هـذه الأعمـال يخالطهـا دائمـاً العجـب والريـاء الخفـي، إذ يحـب صـاحبها أن يطلّـع النـاس علـى مـا هـو عليـه مـن الصـلاح، رغـم أنـه يخفـي ذلـك عـنهم. علـى أنـه في الوقـت نفسـه يكـره هـذه الخصلة أيضاً، ولكن لا يمكنه قلعها بالكلية عن قلبه.(3)

ممـا سـبق، يبـدو أن الإمـام عبـد القـادر، قـد أفلـح، وبشـكل ملحـوظ، في تصـوير هـذه الـنفس وهـي في حالـة إنفصـام مطلـق، فهـي مليئـة بتناقضـات متوازيـة لا نهايـة لهـا، إن صـاحب الـنفس اللوّامـة يكـون قـد شـرع تـواً في المجاهـدات الصـوفية، بينمـا باطنـه لا زال مليئـاً بالترسـبات الـتي لحقـت بـه مـن المرحلـة السـابقة، إنـه مـوزع بـين مسـتوى الطمـوح العـالي وواقـع الحـال المـتردي، ومـن هنـا سـبب قلقـه وعـدم

(1) البرزخ في اللغة هو الحاجز والفاصل وهو في إصطلاح الصوفية يعني: ستر القطب عن الأفراد الواصلين فانهم خارجون عن دائرة تصرفه، لأنه في الأصل واحد منهم متحقق بما تحققوا به في القرب والبسط، غير أنه أختير من بينهم للتصرف والتدبير. أنظر – د. عبد المنعم الحنفي – معجم المصطلحات الصوفية – ص240

(2) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص22-23

(3) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

إســتقراره وشــعوره بــالخطر، ولأجــل ذلــك، عُــدت هــذه المرحلــة مــن أصــعب مراحــل الســلوك الصــوفي وأشدها وخاةً على النفس.

تُعـد الـنفس اللوّامـة، مقامـاً ثانيـاً بالنسـبة للسـالكين المقـربين الطـالبين للفنـاء عـن نفوسـهم وللوجـود بـربهم وأمـا الأبـرار، أصـحاب الـيمين، فهـي آخـر منـازلهم وأعلـى مقامـاتهم، فهـم لا يطلبـون إلا ثـواب الآخرة وتجنـب عقابهـا، وهـذا مـا يحققـه لهـم هـذا المقـام فهـو يغنـيهم بـالحلال عـن الحـرام وبالطاعـات عـن المعاصـي. المقربـون مـن جهـتهم، وضـعوا لأنفسـهم هـدفاً بعيـداً، فهـم لا يقـرون أو يريحـون، إلا ببلوغه، ولأجل ذلك قيل: إن حسنات الأبرار، سيئات المقربين.(1)

فاما مـا يحـدو هـؤلاء المقـربين فهـو إحساسـهم بـالخطر العظـيم والتعـب المقـيم الـذي يـرون إنـه محـيط بهـذا المقـام، فهـو يرتكـز علـى أعلـى درجـات الإخـلاص ، والحقيقـة تقـول: إن المخلصـين علـى خطـر، ولا منجـاة مـن هـذا الخطـر إلا بالفنـاء عـن شـهود الإخـلاص ، بشـهود إن المحـرك والفاعـل علـى الحقيقـة، هـو الله تعـالى شـهود ذوق وحـال، لا شـهود عقـل وقـال: هـذا الشـهود متوقـف علـى سـلوك طريـق المقـربين، الـذي لا تشـم لـه الأبـرار رائحـة ولا تـرى منـه قبسـاً، لأن المقـربين هـم وحـدهم فقـط، الـذين نظـروا ببصـائرهم إلى ربهـم ولم ينظـروا إلى أعمـالهم وعبـاداتهم، مـوقنين إن المنّـة لـه تعـالى علـيهم، إذ فـتح لهـم أبـواب الطاعـات ومكـنهم مـن الـدخول في زمـرة عبـاده وأهلـهم للقبـول منـه، ومـن كانـت هـذه أحوالـه، فهـو ضـرورةً لا يحتـاج إلى تحـري الإخـلاص لأن ذلـك لا يخطـر ببالـه أبـداً، لأنـه مخلـص بسـجيته، وهـو لا يـرى لنفسـه فعـلاً حتـى يخلـص فيـه، و لا يـرى لغـير الله تعـالى قـدرةً حتـى يتجنـب التضـرر منهـا، وهـو مـا يعـد تجـاوزا لعمـل الأبـرار الـذين لم يصـلوا إلى هـذا الحـال ولم يبلغـوا هـذا الشـهود، فطولبـوا بـالإخلاص لأنهـم لم يشـهدوا شـهود قلـب، بـان الله تعـالى هـو خـالق الأفعـال كلـها، إذ لا يقـين إلا بهـذا الشـهود ولأجـل ذلـك فقـد تضـرروا مـن بعـض أفعـالهم ووقعـوا بسـببها، في التعـب والعنـاء، ((وصـار أحـدهم لـو دخـل في حجـر ضـبّ، لقـيض الله تعـالى لـه مـن يؤذيـه، وذلـك لما فيـه مـن البشرية المقتضية للعـجب

والتكـبر والحقـد والحسـد وسـوء الخلـق والعـداوة والـبغض والانهمـاك في طلـب الـرزق ومـا شـابه ذلك)).(1)

إذن فيكفـي عـوام النـاس مـن أهـل الإحسـان التوقـف عنـد هـذا المقـام، حيـث تبكيـت الضـمير ولـوم الـنفس وحثهـا علـى الاسـتزادة مـن فعـل الخـيرات وتجنـب اقـتراف الشـرور، فامـا السـالكون مـن ذوي

---

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

الطموح الروحي، ممن لا يرضون بغير القرب مغنماً، فهؤلاء يعملون جاهدين على التخلص من (ربقة) هذا المقام الذي يحكمه التذبب والتارجح بين صوبي الخير والشر وناحيتي الفجور والتقوى، فاما الإخلاص الذي هو تاج الابرار فانه عند هؤلاء، يعد مصيدة قد تذهب باعمال العبد، اذ هي توكله إلى نفسه وتجعله يشعر بالمنة .

يعزو الإمام عبد القادر، السبب الذي يقف وراء قلق واضطراب، صاحب هذه النفس رغم تحريه الإخلاص في أعماله، بالدرجة الأولى، إلى أن مرآة قلبه، تكون في جهة منها، متوجهة صوب الخلق، فينتقش فيها لأجل ذلك، صور الخلق وأفعالهم ومحاسنهم وقبائحهم وحركاتهم وسكناتهم، وهو يكره ذلك من نفسه ويحاول أن يدفعه فلا يقدر إلا إذا أجتهد في الإعراض عن جميع الخلق، بحيث لا يرى لهم صورة ولا يسمع لهم كلاماً وأن يعزف عن جميع اللذات، فلا يرى لهل خعماً و لا فائدة، وينصح الإمام عبد القادر، مريده، ممن بلغ هذه النفس أو توقف عندها، إلى أن يسعى سعياً حثيثاً من أجل تكميل نفسه وتزكيتها، وتصفية قلبه وجلي مرآته – أي مرآة قلبه – ليصير قلباً حقيقياً ويصير به صاحبه إنساناً حقيقياً(2) ، والقلب لا يكون قلباً حقيقياً، إلا إذا تخلص من ميله إلى الشهوات، ومن تلفت مرآته، صوب الخلق والدنيا، إذ انه بخلاصة من كل ذلك ، يكون قد تصّفى وأصبح خالصاً لربهِ، فلا يرى غيره ولا يتوجه إلى سواه ، وهذا هو معنى وجوده الحقيقي أو حقيقته الاصليه، وكل ما سوى ذلك وهم وخداع. فاما إذا ما تحقق القلب ، فان حامله سيكون إنسانا حقيقيا لا تنازعه الأوهام ولا تتجاذبه الهواجس.

إضافة إلى ما سبق ، ينصح الإمام عبد القادر ، صاحب النفس اللّوامة بالخلوة والاعتزال وتجنب مخالطة الناس ، وسنرى فيما بعد ، أي في المراحل المتقدمة للنفس انه يعود فيؤكد ضرورة العودة إلى معاشرة الناس والاختلاط بهم، لأجل منفعتهم الأخروية، وأما السبب في التفاوت بين هذين

الموقفين، فيمكن أن يُعزى، أولاً، إلى ضعف حال المريد وهو في مراحله الأولى، وعجزه عن تحمل أذى الخلق، بينما في المراحل المتاخرة، فانه سيكون قوي الحال وقادراً على إحتمال ذلك منهم، وثانياً، لأن المريد المبتدئ، هو ضرورةً، قليل الخبرة في خرق التعامل مع نفوس الآخرين وعلاجها، وإن نفسه تكون أحوج إليه من غيرها، فاما بعد أن يقوى حاله ويصلب عوده، فانه سيصبح خبيراً في علاج أمراض النفوس، لأنه عاناها جميعاً وخبرها.

ثالثا: النفس الملهمة:

---

(2) الجيلي – المصدر نفسه - مخطوطة

هـذه الـنفس لونهـا أحمـر، ومحلـها الـروح لأن الـروح هـي مـوخن الألهـام، وحالهـا العشـق الـذي يـاتي بعـد الحـب وقبـل الفنـاء في المرتبـة، وعاملهـا الهيـاج، إذ يعتريهـا باسـتمرار، ومـن جـرّاء تلـذذها بحالـة الصـفاء، الشـوق العـارم للأنعتـاق مـن قيـود الجسـد والتـوق للتخفـف مـن أثقالـه وعلائقـه، وأمـا وارد هـذه الـنفس، فهـو المعرفـة، الـتي هـي مـن إختصـاص القلـوب والأرواح، والمعرفـة عنـد الصـوفية أرفـع منزلـة من العلم لأتصالها بالحقائق الإلهية والأسرار الربانية.

هــذه الــنفس، هــي كســابقتيها، أيضــا، تحتــاج إلى أن تعامــل بالرياضــات والمجاهــدات والأذكــار، وتحتــاج إلى دوام المراقبـة والمراجعـة والتـذكير، والـورد الـذي يصـفه الإمـام عبـد القـادر، لصـاحب هـذه الـنفس هـو أسمـه تعـالى (يـاهو)، وهـو أسـم يـدلّ علـى الـذات العليـا ويشـير إلى الهويـة، بحيـث لا ينظـر الـذاكر معـه، إلى أيـة صـفة أو فعـل، مـن صـفاته وأفعالـه تعـالى ، فـاذا مـا داوم المريـد علـى ذكـر هـذا الأسـم، فـني عـن ذاتـه وتجـرد عـن صـفاته وإرادتـه، وأسـتعد بعـد ذلـك لتلقـي الهبـات والعطايـا الإلهيـة المتمثلة بالوجود الجديد الذي يعقب حالة الفناء.

إن المريـد في نطـاق هـذه الـدائرة، أي دائـرة الـنفس الملهمـة، يتحـرى تتمّـة نقصـان عقلـه ودينـه وتصـحيح معتقـده، ومتابعـة الحـق والشـرع والـتخلص مـن الريـاء، (1) فتخـوم هـذه الـدائرة، تعـد أولى مراتـب الكمـال والتتمـيم وآخـر مهـاوي الـتردي والـنقص علـى أن الغلبـة فيهـا تكـون لكفـة الكمـال، إذ يطغـى علـى هـذه الـنفس الأفعـال الحسـنة والصـفات الحميـدة، فهـي تتصـف بالسـخاء والقناعـة والعلـم والتواضـع، وهـي لأجـل ذلـك صـار يتعاقـب عليهـا حـالا القـبض والبسـط، (1) فامـا حـال القـبض، فانـه يـاتي أولا كـي يُـذهب الفـرح الزائـف والأقبـال علـى الـدنيا، وامـا البسـط فانـه يـاتي بعـد ذلـك، كـي يزحـزح المريـد عـن حالـة اليـاس، وكـي يفعـم قلبـه بمزيـد مـن الحـب لمـولاه، وكـي يدفعـه أيضـا نحـو مزيـد مـن الرقي الروحي، طمعا في مزيد من القرب.

سميـت هـذه الـنفس بــ (الملهمـة) لأن الحـق عـز وجـل ألهمهـا سـبيلي الصـلاح والطـلاح وهـو معنـى قولـه تعـالى : (ونفـسٍ ومـا سـواها . فالهمهـا فجورهـا وتقواهـا قـد أفلـح مـن زكاهـا . وقـد خـاب مـن دسّـاها).(2) وكـون هـذه الـنفس ملهمـة، فهـذا يعـني أنهـا أصـبحت تسـمع، بغـير آلـة، أي بالألهـام

---

(1) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص24.

(1) القبض والبسط: هما حالتان تغشيان العبد بعد ترقيه عن حالة الخوف والرجاء، والقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستانف والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستانف والقبض والبسط متعلقان باللحظة الآتية أما الخوف والرجاء فمتعلقان بالآجل من الزمان – للتفصيل حول ذلك – أنظر – الرسالة القشيرية – ص55.

(2) سورة الشمس – الآيات – 7،8،9،10.

المباشر، نداء الرحمة ووسوسة الشيطان، بعد أن كانت وهي في المقام الذي قبله، لا تسمع شيئا، لأقترابها من مستوى خباع الحيوانات، وهنا يتجلى، وبوضوح تام، أعتقاد الإمام عبد القادر، بان النفس الإنسانية، واحدة بحقيقتها، وإنما الذي يتغير منها، فقط، هو خباعها وأهوائها وميولها.

هذه النفس، لأجل أنها تسمع ((لمة الملَك ولمّة الشيطان))(3) صار المريد معها، أيضا، في مقام خطر وصعب، فهو يحتاج هنا كذلك، إلى من ياخذ بيده - والأشارة هنا صريحة إلى ضرورة السلوك على يدي الإمام المرشد العارف – ليخرجه من ظلمة الشبهات إلى نور الحقائق اليقينية لأنه، وهو في هذا المقام، لايزال ضعيف الحال، لا يفرّق بين الجلال والجمال، ولا بين الوساوس والألهامات لعدم خلوصه تماما من الطبائع الرديئة، إضافة إلى إنه يُخشى عليه، فيما لو ترك من غير دليل، أن يغفل عن نفسه، أو يعجز عن المحافظة عليها، فيعود القهقري، إلى المقام الأول وتعود له نفسه الأمّارة بالسوء، فيكون عندها من الخاسرين، ولا يصح له بعدها سلوك، ولا تنفع معه خريقة.

إذن فالمجاهدات تستمر مع هذه النفس، وكذلك ملازمة السهر والجوع والأعتزال عن الخلق والأقلال من الكلام، مع التمسك باذيال الإمام العارف وأخلاعه على جميع هواجس القلب وخطراته، حسنة كانت أم قبيحة، على أن يكون ذلك مصحوبا بالثقة التامة والطاعة العمياء للشيخ والمريد كلما زادت ثقته بشيخه وقوي أعتقاده به، قوي أنجذابه نحو عالم القدس، وضعفت قوة البشرية لديه، لأنه بهذه الطاعة، سيستقي من أنوار شيخه القدسية المصدر، ولأنه كلما أزداد أنجذابه نحو شيخه، سيحقق له بذلك نوعا من التوحد القلبي الذي ينيله بعض أحوال شيخه. أن تاكيد الإمام عبد القادر، على ربط سلوك المريد بارادة الإمام العارف، أنما هو يؤسس لسيادة نهج الطرق الصوفية، على بقية أنواع السلوك الصوفي الفردي التي كانت سائدة قبل ذلك، والتي أدت إلى ظهور الكثير من المروقات والشطحات وأنواع الخروقات الشرعية، مما عمل على تنفير الناس من السلوك الصوفي برمّته.

إن الطريقة عند الإمام عبد القادر، تسعى إلى تحري الأنضباط في سلوك المريدين، وتسعى أيضا إلى تحقيق المراقبة الشديدة والمباشرة من لدن شيخ الطريقة، على جميع حركاتهم وحتى خطراتهم.

---

(3) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوخة.

وكـون المريـد (ذا) الـنفس الملهمــة، جامعـا في باطنـه، لنـزعتي الخـير والشـر، لا يمنـع مـن وجـود علامـات أكيـدة، تدّلـه علـى غلبـة أحـدى هـذه النزعـات علـى الأخـرى فاما علامـات غلبـة نزعـة الخـير لديـه، فتتمثـل في أن يـرى باطنـه معمــورا بالحقيقــة الأيمانيــة، وظــاهره بالشــريعة الإســلامية، وأن يكــون وجدانـه محققـا، بـان جميـع مـافي الوجـود، جـارٍ علـى وفـق إرادتـه تعـالى ، مقـدورٌ بقدرتـه، وان تكـون جميـع جوارحـه متلبسـة بالطاعـات ومنخلعـة عـن جميـع كبـائر الـذنوب وأكثـر صـغائرها. وأمـا علامـة غلبـة نزعـة الشـر لديـه، فتتمثـل في أن يـرى في نفسـه القـدرة علـى شـهود الحقيقـة الأيمانيـة، مـع بقـاء شئ مـن علائـق بشـريته الدنيويـة، وأن لايكـون ظـاهره معمـورا بالشـريعة، فـيترك الطاعـات ويرتكـب بعـض المعاصـي، ويحـدث لـه ذلـك خاصـةً، عنـدما يقـوى عـود بصـيرته، مـع بقـاء علائقـه السـابقة، علـى شـهود الحقيقـة الأيمانيـة، ويـرى أن أفعالـه هـو، جاريـة علـى وفـق إرادة الله تعـالى ، فتحجـب بصـيرته بـانوار الحقيقـة عـن النظـر إلى أسـرار الشـريعة، ((فيطـرد عـن أبـواب الحضـرة الجامعـة للضـدين – أي الظـاهر والبـاطن – وعـن شـهود الواحـد الحقيقـي أثـنين – متكثـرا بالشـريعة وواحـدا بالحقيقـة – فيقـف حينهـا عنـد البـوارق الـتي وافقـت طبعـه))(1) وهـي بـوارق وحـدة الشـهود وفنـاء الإرادات، الـتي إذا مـا خالطهـا شـئ مـن علائـق الطبـع، فانهـا سـتؤدي حتمـا إلى هجـر الشـريعة وأسـقاط التكـاليف. ولا يخفـى علـى المطّلـع هنـا، أن الإمـام عبـد القـادر، كـان دقيقـا جـدا في ربطـه بـين جـانبي الشـريعة والحقيقـة بحيـث إن المريـد السـالك، حتـى وهـو متمـاه مـع حالـة شـهوده، لا يمكنـه مـن أن يخلـع عنـه رداء الظـاهر، وإلا فسـيخرج عـن نعمـتي الظـاهر والبـاطن معـا، والسـالك الـذي تبعـده البـوارق والمطـالع عـن متابعـة الشـرع، فـان ذلـك يـدل علـى ثقـل طبعـه وعـدم صـفاء نفسـه، لأن مجانبـة حـدود الشـرع، فيـه دلالـة أكيـدة علـى الميـل إلى الكسـل والدعـة والتـذرع بـالواهي مـن الـذرائع، وهـي مـن أهـواء الـنفس الـتي أُمـر أصـلاً بـالتجرد عنها.

صـاحب الـنفس الملهمـة، هـو أيضـا علـى خطـر، لأنـه في تلفـت مسـتمر صـوب مقاميـه السـابقين، فـاذا كـان مـن شـيمة الطبـع أن لا يـني عـن التغالـب مـع التطبـع، فـان مـن طبـع الـنفس الإنسـانية أن تترقـب غفلـة مـن صـاحبها، فمتـى ماغفـل عـن سـوقها وزجرهـا، عـادت مـرة آخـرى إلى مـا ألفتـه وأعتادتـه، فامـا مـا يصـفه الإمـام عبـد القـادر، مـن عـلاج لهـذه الـنفس في هـذه المرحلـة، فهـو: أن يجتهـد المريـد في أن يلـهب نفسـه بالعشـق والهيمـان والشـوق للوصـال وإلى الأجتمـاع مـع الأحبـة والتطلـع إلى النظـر إلى وجـه المعشـوق، فـان هـذه الـدوافع تشـدّ مـن عزيمـة السـالك، وتقويـه علـى السـير في طريقـه، وخاصـة إذا

---

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوطة.

لمس من نفسه الميل إلى الأنتكاس والتقهقر. إذن فليس الخوف من العقاب أو تذكر (هادم اللذات) هو الحافز المثالي للمريد في هذه المرحلة، فالنفس في مقام الألهام تبدو وكان البواعث أمامها قد تعادلت، والأحتمالات قد توازنت، فهي تبدو وكانها مشدودة إلى جميع أوتارها الداخلية المتقابلة فهي والحالة تلك، في حاجة إلى وازع جديد وجذب خارجي مختلف يحرك ركودها ويدفع بها نحو كسر الحياد والأندفاع نحو مزيد من الرقي الروحي، ولا أنفع لها في ذلك ولا أنجح من العشق والأشتياق الذي أكتفى به (أرسطو) دافعا لتحريك سكون الأفلاك والأكوان.

رابعا: النفس المطمئنة

هذه النفس لون نورها أبيض، وهو لون الصفاء والنقاء، والاستعداد للنقش الجديد، كما أنه يدل على الفناء الذي يسبق الوجود الفائق، وأما عالمها، فهو الحقيقة الجامعة لكل الحقائق، ما ظهر منها وما بطن وما كان منها متعلقا بالدنيا أم بالآخرة، وأما محلها فهو السر، الذي يدل على الكمال والوصول، وأما واردها فهو الحقيقة، لإكمال تحققها بالشريعة، فاصبحت لا تاتي حركة أو فعلا ظاهرا كان أم باطنا، إلا وهو مطابق في مقصودة لمطلوب الشريعة.

الحال الغالب على هذه النفس هو: الطمانينة الصادقة، وهذا ما يميزها من حال الطمانينة الكاذبة التي مرت علينا في النفس الملهمة، والتي كانت تغري صاحبها بالأكتفاء بانوار الحقيقة دون الشريعة، وقد علمنا أن هذا هو مكمن عدم الطمانينة والخطر فيها.

تتصف هذه النفس بالجود والحلم وحسن التوكل وكثرة العبادة والصدق في شكر وطاعة الله تعالى وكذلك الأستقامة وطهارة القلب وصفاء النفس.(1) الورد الذي يضعه الإمام عبد القادر لصاحب هذه النفس هو أسمه تعالى (الحي)(2) والذي يدل على أكتساب الحياة الجديدة الطيبة والأبدية المفعمة بالمعارف الربانية والعلوم اللدنية والمتطلعة إلى الأرتشاف من الحضرات الشهودية. إذن فلا يمكننا من أن نحصي في هذه النفس إلا صفات الخير والصلاح، لأن المريد في هذه المرحلة يكون قد خطا خطواته الأولى في بر الأمان وذلك بعد تخلصه من كثير من أثقال خبائثه وأوزار أهوائه.

يرى الإمام عبد القادر، أن النفس المطمئنة تمثل الطور الأول من أطوار النفس الكاملة إذ يبلغ المريد معها أولى درجات الكمال الروحي، وذلك بعد أن تكون قد هبت عليه نسمات القرب والوصال، التي تنقله من حال التلوين – وهو حال التذبذب والتقلب – إلى حال التمكين – وهو حال الأستقرار والثبات -، وأن من علامات بلوغ وصحة هذا المقام، هو: أن يغلب خير المريد شرّه وان يكون باطنه

(1) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص25.

(2) الجيلي – المصدر نفسه – ص17.

معمورا بالحقيقة الإيمانية وظاهره منورا بالشريعة الإسلامية، أي ((متلبسا بالطاعات متجنبا عن جميع الكبائر وأكثر الصغائر، سواء أكان بين الناس أو كان في خلوة)).(3) وأن كل هذا الأفعال تصدر عن صاحب هذه النفس بيسر وبصورة طبيعية وتلقائية، أي من غير كلفة أو مشقة، وذلك لاطمئنان النفس، بعد تحققها وتيقنها بان جميع ما في الوجود، جارٍ على وفق إرادته تعالى ، مقدورا بقدرته. وأما المقامات التي يحوز عليها صاحب النفس المطمئنة، فهي مقام التوكل والصبر الشكر والرضا، فلا يمكن أن نتخيل نفسا مطمئنة إلا وهي متوكلة على ربها صابرة على بلائه، شاكرة لنعمه، راضية بعطائه.

سميت هذه النفس بالمطمئنة، لأن صاحبها لا يفارق حدود الأمر التكليفي ولو قليلا، ولا يلتذ إلا بالتخلق باخلاق المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ولا يطمئن إلا باتباع أقواله وأفعاله وأحواله لأنه (صلى الله عليه وسلم) هو وحده

على الحقيقة، صاحب مقام التمكين وعين اليقين والأيمان الكامل، ولأن حقيقته (صلى الله عليه وسلم) هي الحقيقة العظمى الجامعة لكل الحقائق، ولأنه (صلى الله عليه وسلم) أصل الوجود وعين الشاهد والمشهود، ولأنه (صلى الله عليه وسلم) أول الأوائل وأدل الدلائل ومنتهى العروج الكمالي والمثل الأعلى الألهي.

ويظهر على صاحب هذه النفس بعد اطمئنانها، مزايا وصفات، لم تكن لتظهر على من لم يلتحق بهذا المقام، فترى الخلق، مثلا، ينجذبون إليه، وتلتذ به أعين الناظرين وأسماع السامعين، حتى لو تكلّم طول الدهر، فلا يمل كلامه، لأن لسانه سيصبح ترجمانا لما يلقيه الله تعالى في قلبه من حقائق الوجود وأسرار الشرائح، فهو لا يتكلم بكلمة إلا وتجئ مطابقة لما قاله تعالى أو قاله رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم)، من غير مطالعة في كتاب أو سماع من غير.(1) إنه يسمع في داخله نداء: ((أنا سرك أيها الحبيب وأنت سري))(2) فيطمئن ما كان يعتمل فيه من الاضطراب ، ويغرق في بحر الحياة الروحية والخلق المحمدي وتلازمه الخشية والهيبة، وتخلع عليه خلع الوقار

---

(3) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوطة.

(1) يشير الإمام عبد القادر، من خلال هذه العبارة إلى أمرين: الأول هو أن المعارف الصوفية هي معارف لدنية ربانية تنال بالمجاهدات والرياضات وليس من خلال القيل والقال، والثاني هو أن العبد إذا صفت نفسه واطمأنت جاءت أفعاله موافقة لما أمر به الشرع.

(2) الجيلي -سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

والقبول، وتظهر له حقيقة عالم الكون والفساد، فيرى رؤية بصيرة، حقيقة قوله تعالى : (وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام).(3)

إذن فهذه الميزات التي حصل عليها المريد، سواء في هذا المقام أو في سواه، ما هي إلا حاصل جهد مضنٍ وعمل شاق مع حرص شديد على الموازنة بين شقي الشريعة والحقيقة، من غير إفراط في أحدهما أو تفريط في الآخر. وهذا هو خلاصة ما كان يرمي الإمام عبد القادر لأن يوصله إلى سامعيه. أخيرا، ينصح الإمام عبد القادر، المريد، صاحب النفس المطمئنة، رغم تنعمه بالأمان بان يتحرى الحذر في علاقته مع الآخرين، فهو إن كان عليه أن يجتمع معهم ليرشدهم ويدلهم، وليفيض عليهم مما أنعم الله تعالى عليه، ولكي يترجم لهم عمّا في قلبه من درر الحكم، فان عليه، من جهة أخرى، أن يترك لنفسه، أوقاتا مخصوصة يختلي بها مع خالقه، ويسعى من خلالها إلى زيادة في الصفاء والقرب، لأنه، وهو في هذا المقام ما يزال في أدنى درجات الكمال الروحي، فلا يناسبه، مع هذه الحالة، مخالطة الخلق في جميع الأوقات، كي لا يحرم نفسه الترقي إلى المرتبة التي تليها.(1)

خامسا: النفس الراضية

يضع الإمام عبد القادر، لهذه النفس اللون الأخضر، وهو أسعد الألوان وأقربها من الرحمة الإلهية والعطاء الرباني، وأما عالمها فهو اللاهوت، إذ لا مجال في هذه المرتبة لعالم الناسوت، بشقيه الذات والآخرين ولا عالم الخلق بشقيه، الدنيا والآخرة، إذ أن توجه الهمة يكون خالصا لبارئها. وارد هذه النفس، هو المعرفة أيضا، ، ومحلها هو سر السر، وهو آخر المراتب الوجودية للنفس إذ لا يكون بعدها إلا المحق، وأما سيرها فهو في الله، الذي هو أرفع منزلة من السير إلى الله تعالى إذ أن السير في الله يدل على ذوبان الإرادة الإنسانية في الإرادة الإلهية. وأما حالها فهو الفناء وهذا ما ينسجم وجميع الخصائص التي ذكرت لهذه النفس، وأما دلالتها، فانها تدل على كمال العقل وتمامه وحب التقرب إلى الله عز وجل.(2) ونلاحظ هنا أن الإمام عبد القادر، قد منح لهذه النفس الكمال العقلي، فاما كمال الروح، فان أوانه لم يحن بعد، لأن حال الروح هنا هو الفناء، وهو ليس آخر المقامات ولا أعلاها، إذ يتبعه البقاء الجديد الذي ما بعده فناء.

---

(3) سورة الرحمن – آية / 26.

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوطة.

(2) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص17.

في هـذه المرتبـة، تـزول جميـع الطبـاع السـيئة والأهـواء الرديئـة عـن الـنفس، حتـى لا يبقـى لهـا أثـر يـذكر، فيكـون السـالك معهـا فانيـا بـالله عـز وجـل لا باقيـا بنفسـه، كمـا كـان قبـل ذلـك، ولا باقيـا بـالله عـز وجـل، كمـا سيـكون عليـه الحـال في المحطـة الأخـيرة، وهـذه الحالـة – يقـول الإمـام عبـد القـادر – لا تدرك إلا ذوقا، وهو بذلك يقطع السـبيل أمام المعترضين، ممن هم من غير المشتغلين في الحقل

الصـوفي، فكـون المـرء جاهلا بـامر مـا فـان ذلـك لا يلغـي وجـود هـذا الأمـر ولا يـدل علـى خطئـه، ثـم إن الحقـائق لا تستحصـل كلـها عـن خريـق الأسـتدلال والأسـتنباط والقيـاس، أو النظـر العقلـي بوجـه عـام بـل إن هنـاك حقـائق، يـرى الصـوفية إنهـا لا تنـال إلا بالتجربـة والـذوق والمشـاهدة القلبيـة، وهـذا هـو موضـع الخلاف الأصلي بين الصوفية وغيرهم من المشتغلين بحقول المعرفة المختلفة.

يغلـب علـى الـنفس الراضـية، صـفات الزهـد فيمـا سـوى الله عـز وجـل، وهـي إشـارة إلى الزهـد في الـدنيا والآخـرة علـى حـد السـواء، ويغلـب عليهـا الأدب معـه تعـالى ، والإخـلاص والـورع والنسـيان، أي نسـيان الأذى وسـيئات الآخـرين، وكـذلك نسـيان حظـوظ الـنفس والـدنيا، وكـذلك الرضـا بكـل مـا يقـع في الوجـود مـن غـير أخـتلاج ولا أعـتراض ولا قصـد أو توجـه لرفـع المكـروه منـه، لأن المريـد مـع نفسـه الراضـية يكـون متفرقـا، غارقـا في شـهود الجمـال المطلـق، وقلبـه مشـغول بعـالم اللاهـوت وسـر السـر.(1) وأمـا نفسـه فغريقـة في بحـر الأدب مـع الله تعـالى . ومـن العلامـات الدالـة علـى صـاحب الـنفس الراضـية هـي كونـه عزيـزا عنـد الخلـق بصـورة منقطعـة الـنظير، لأنـه قـد نـودي عليـه مـن حضـرة القـرب (أنـك اليـوم لـدينا مكـين أمـين)(2) فصـار تعظـيم الخلـق لـه قهريـا، فـلا يعلمـون لمـاذا يعظمونـه أو يجلونـه، وهـو كلمـا أعـرض عـنهم وإشـتغل بربـه، زاد شـوقهم إليـه. ومـن جهـة آخـرى فـان المريـد مـع هـذه المرتبـة، يكـون قـد أشـرف علـى سـلطنة البـاخن، الـتي تكـون الظـواهر، خاضـعة لسـلطتها الواقعـة تحـت قهرهـا.(3) فهـو مـع هـذه الحالـة، لا يكـون لـه ركـون أو أعتمـاد، علـى أي مخلـوق، بـل يكـون ركونـه إلى الله تعـالى وحـده. الـورد الـذي يصـفه الإمـام عبـد القـادر، للمريـد في هـذه المرتبـة، هـو أسمـه تعـالى (الواحـد) بلفظـة (يـا واحـد)، إذ إن الأكثـار مـن ذكـر هـذا الأسـم، يعجـل في زوال حـال الفنـاء عـن الـنفس الراضـية، كـي يحـل

---

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوخة.

(2) سورة يوسف – آية / 54.

(3) يشير الإمام عبد القادر هنا، إلى أنه في هذه المرحلة يبدأ ظهور الكرامات وخوارق العادات على يدي الصوفي وهي تتمثل في خاعة الأشياء له وخضوعها لأمره، حتى لو كان في هذا الخضوع تغييرا لطبائع الأشياء وقلب لقوانينها الداخلية، كما حدث مع نار إبراهيم (عليه السلام) مثلا.

محله حال البقاء بالله تعالى .(4) كما أنه يدل على الوحدانية المطلقة المؤيدة بشهود قرب أنسه والدالة على وجوده في ذاته وألوهيته المتعالية.(5)

وأخيرا فانه يمكننا أن نلمس هنا بوضوح، نبرة التصعيد الروحي المتناغم، الذي يمثل فحوى النهج الصوفي عند الإمام عبد القادر، والذي يبدأ من النفس الأمّارة بالسوء الموجودة بنفسها والملتصقة بالجسد والشهوات والأهواء والمتعلقة بالمخلوقات دون الخالق والمفرّخة بالشريعة والحقيقة معا، ثم يصل تدريجيا إلى النفس الراضية التي لا تامر إلا بالخير والتي ليس لها وجود إلا بربها والتي لا تربطها أية علاقة بالشهوات والأهواء والتي تجمع في داخلها، حقيقتي الشريعة والطريقة، على السواء.

سادسا: النفس المرضية

هذه النفس لونها أسود، وهو اللون الجامع لكل الألوان أي أنه يدل على أحتواء جميع المراتب والكمالات والأحوال والمقامات، وجامع أيضا لنوري الشريعة والحقيقة، ولحبي الخالق والخلق وأما عالمها، فهو عالم الشهادة لأنها قد أتمت رحلتها في عالم الغيب، ولم يبق أمامها إلا العودة إلى موضعها السابق، وأما محلها فهو الخفاء، ودائرتها الفناء والنور، تمييزا لها عن دائرة الفناء المحض الذي تلفعه الحجب الظلمانية، وسيرها عن الله عز وجل، وهو يختلف عن السير في الله تعالى كاختلاف الصبر في الله تعالى ، عن الصبر عن الله تعالى ، والسير عن الله تعالى فيه دلالة على بداية ظهور علامات الخلافة العظمى التي ستتحقق في المرتبة اللاحقة. وأما حالها فهو الحيرة المتولدة عن مطالعة الغيب ومتابعة الشهادة، وأما واردها فهو الشريعة، لأن صاحب النفس المرضية يحتاج إلى الشريعة للحكم بين الناس، ولكي يكون لهم قدوة في ذلك.

تتصف هذه النفس بحسن الخلق وترك كل ما سوى الله عز وجل، واللطف بالخلق - وهو مقام الإمام المرشد – وحملهم على الصلاح، والصفح عن ذنوبهم وحبهم والميل أليهم من أجل آخراجهم من ظلمات خباعهم وأهواء أنفسهم، إلى أنوار أرواحهم، ولكن ليس ميله إلى الخلق، هو

---

(4) الجيلي – المصدر نفسه – مخطوطة.

(5) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص17.

كالميل الذي في النفس الأمّارة بالسوء، فان هذا الأخير هو ميل شرك وحاجة وخضوع.(1) ومما يتصف به صاحب النفس المرضية، أنه يجمع بين حبي الخالق والخلق، ويرى الإمام عبد القادر، إن ذلك أمر عجيب لا يشير إلا إلى أصحاب هذا المقام، ولذا كان صاحب هذه النفس، لا يتميز من عوام الناس من حيث ظاهره، وأما من حيث باطنه، فانه يعد معدن الأسرار وقدوة الأخيار، وليس في شهوده شئ من الأغيار من حيث هي أغيار، بل من حيث هي خلق وعباد لله عز وجل، ويتصف صاحب هذه النفس بالوفاء بالوعود والعهود، ووضع كل شئ في موضعه الصحيح، فتراه مثلا ينفق الكثير من المال إذا صادف محله، فاذا لم يصادف له محلا، فانه يحجم عن ذلك، وهو يتصف أيضا، بانه لا يغادر حالة الموازنة أو الحالة الوسطى التي هي بين الأفراط والتفريط. وهذه الحالة لا يقدر عليها إلا من كان في هذا المقام، فهي خفيفة على اللسان ثقيلة عند الأمتحان، وأن كل شخص يحب هذه الخصلة ويحب من يتصف بها، إلا أنها صعبة المنال.(1) لأن الإنسان مجبول بطبعه على الميل إلى ما يحب ويشتهي بحيث لا يمكنه أن يعتاد على الأتزان المحايد إلا بعد مجاهدات شاقة يتجاوز من خلالها الكثير من الأهواء والميول النفسية.

ينضوي صاحب النفس المرضية، ضمن دائرة العلم الألهي (الحالي)(2) لا علم الرسوم المقالي وهنا يكمن مصدر طاعة الناس له وتقبلهم منه، إذ أن من ميزة العلم الألهي إنه يلج إلى القلوب والأرواح قبل أن يطرق الأسماع والعقول، والمريد، منذ البواكير الأولى لبلوغه مرتبة النفس المرضية، فانه تلوح عليه بشائر الخلافة الكبرى، وأما في نهاية المطاف، فانه تخلع عليه خلعتها وهي خلعة: كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.(3) ويلاحظ هنا الإمام عبد القادر، يسترسل كثيرا في توضيح حال هذه النفس، وهو يستعين في ذلك باقوال مستمدة من الشرع، وهو يفعل ذلك خشية اللبس في فهم الآخرين لمقاصده فتراه يقول

---

(1) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص18.

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوطة.

(2) العلم الألهي الحالي، أي نسبة إلى الحال الصوفي، والحال هو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وإن من صفته عدم الدوام، وقد قيل أن الحال هو الذكر الخفي – أنظر - الطوسي – كتاب اللمع في التصوف الإسلامي – ص40.

(3) يستند الإمام عبد القادر هنا إلى الحديث القدسي الشريف: لا يزال عبدي المؤمن يتقرب ألي بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته، كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يعقل وبي يبطش. أنتهى. وهو حديث متفق عليه رواه البخاري عن أبي هريرة. أنظر – المغني عن حمل الأسفار ج / 1 – ص77 – وكذلك نيل الأوطار – ج / 2 – ص62.

مـثلا: إن هـذا التـاثير الخـارق للعبـد، لا يكـون إلا بالأسـتعانة بقـوة الحـق عـز وجـل، ولا يمكـن أن يـرى السالك أنه هو الحق جلّ أسمه، كما فهم ذلك بعض الملاحدة عن أكابر الصوفية.(4)

أمـا كيفيـة بلـوغ وتحقيـق هـذا الحـال فهـو مـا يـاتي: أن السـالك إذا وصـل إلى مقـام الفنـاء، وهـو المقـام الـذي تبلغـه الـنفس في مرتبتهـا السـابقة، أي مرتبـة الـنفس الراضـية، فسـتنمحق صـفاته الذميمـة وأخلاقـه البشـرية الرديئـة الـتي هـي محـل الأنفعـال والشـقاوة، وهـذا يـتم بسـبب تقربـه إلى مـولاه عـز وجـل بالنوافـل الـتي تشـتمل علـى أنـواع العبـادات، بمـا فيهـا الرياضـات الروحيـة ومجاهـدة الـنفس والـذكر المسـتمر، فيهبـه الله تعـالى ، كرمـا منـه ومنّـة، صـفات بديلـة عـن صـفاته السـابقة بحيـث سـيبدو أمـام النـاس وكانـه قُـدَّ مـن معـدن جديـد لا مثيـل لـه بـين البشـر، وإن هـذه الصـفات الجديـدة الـتي تلحـق بـه، تكـون مـؤثرة في جميـع المخلوقـات مـن بشـر وغيرهـم وبـاذن ربهـا، وأمـا علومـه ومعارفـه فـان منبعهـا يكون من (حق اليقين)(1) الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

سميـت هـذه الـنفس بالمرضـية، لأن الحـق تعـالى رضـي عنهـا وسـيرها عنـده، فاخـذت مـا تحتـاج أليـه مـن العلـوم، مـن حضـرة الحـي القيـوم، ورجعـت مـن عـالم الغيـب إلى عـالم الشـهادة، بـاذن الله تعـالى ، لتنفـع الخلـق ممـا أنعـم الله تعـالى بـه عليهـا. وهـذا هـو دورهـا الـذي خُلقـت لأجلـه، وهـذا هـو في الوقـت نفسه الدور الإيجابي الذي يميز التصوف الإسلامي من سواه في الأديان الآخرى.

سابعا: النفس الكاملة:

مـع هـذه الـنفس يكـون المريـد قـد بلـغ آخـر مرتبـة مـن مراتـب الكمـال وأرقاهـا، وهـي لا تكـون إلا لخاصـة الخاصـة مـن البشـر، ممـن أدركـتهم سـابق العنايـة الإلهيـة. لـيس لهـذه الـنفس نـور، ولـيس في ذلـك دلالـة علـى عتمتهـا، وإنمـا هـو يـدل علـى درجـة فنائهـا الفائقـة في الـذات الإلهيـة، ويـدل أيضـا علـى شـدة فقرهـا وذلهـا وخضـوعها لربهـا، بحيـث لا تمثـل أمامـه بـاي سمـة تميزهـا. وأمـا عالمهـا فهـو الحـيرة، وذلـك لأقترابهـا مـن حضـرة الجـلال والعظمـة الإلهيـة الـتي تُعجـز العقـول وتحـير الألبـاب، وأمـا حالهـا، فهـو البقـاء الـذي يلـي الفنـاء ولـيس البقـاء الـذي هـو قبلـه، ومحلـها الأخفـى الـذي نسـبته إلى الخفـيّ، كنسـبة الـروح إلى الجسـد ونسـبة القلـب إلى بقيـة الأعضـاء. وارد الـنفس الكاملـة، هـو جميـع الأسمـاء الحسـنى وصـفاتها

(4) يؤكد الإمام عبد القادر هنا موافقته على مقوله الحلاّج (أنا الحق)، وهو يلقي باللائمة على سوء فهم بعض (الملاحدة) لمثل هذه الأحوال.

(1) حق اليقين: هو عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به علما وشهودا وحالا، لا علما فقط – أنظر – الجرجاني – كتاب التعريفات – ص95. وحق اليقين يطلق أيضا على ما كان بنعت العيان، فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف – أنظر – الرسالة القشيرية ص74.

هـي جميـع مـا ذكـر مـن الصـفات الحسـنة. وهـي تنضـوي تحـت دائـرة الرحمـة والإخـلاص بمعرفتـه تعـالى والتصديق بشرائعه.(2)

مـع هـذه الـنفس، يكـون الصـوفي قـد بلـغ أعلـى مراتـب الكمـال الروحـي الـتي يمكـن أن يبلغهـا مخلـوق لأنــه قــد كملــت فيــه ســلطنة البــاطن، وتمــت بــه المكابــدات وجميــع أنــواع المجاهــدات ومــع الــنفس الكاملــة يكـون الإنسـان قـد أسـتعاد الصـورة الآدميـة الأولى الـتي كانـت قبلـةً للملائكـة ومصـدرا لعلـومهم، والـتي كانـت حقيقتهـا هـي (الحقيقـة المحمديـة) وهـي سـر الله الأعظـم واللطيفـة الإلهيـة الـتي لا ثـاني لهـا. ومـع كـل هـذه الصـفات، يكـون الصـوفي قـد بلـغ أقصـى درجـات القـرب المتاحـة مـن الحضـرة الإلهيـة، فـإذا مـا بلغهـا، تحقـق بالعبوديـة المحضـة والعجـز والـذل، فعـرف نفسـه بهـذا الوصـف وعـرف ربـه بنقيضـه.(1)
إذن فـالنهج الصـوفي عنـد الإمـام عبـد القـادر، يهـدف إلى أسـتعادة الإنسـان سـيرته الأولى، وهـي سـيرة أبيــه آدم (عليــه الســلام) مــن حيــث درجــة قربــه مــن ربــه تعــالى ، وإتصــاله بــه مــن دون واســطة أو وسـيط، وكـذلك درجـة صـفائه النفسـي وعـدم خضـوعه للحاجـات والأشـياء الماديـة، وسـيادته المطلقـة على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة.

لـيس لصـاحب الـنفس الكاملـة مطلـوب، سـوى رضـوان ربـه تعـالى ، فهـو، رغـم علـوّ مقامـه، لا يفـتر عـن الـذكر والشـكر والعبـادة بكلـه، أي بقلبـه ولسـانه وجميـع جوارحـه، ولـذلك تـرى أن حركاتـه حسـنات وأنفاسـه قـدرة وحكمـة وعبـادة، وهـو إن رآه النـاس ذكـروا ربهـم. علـى أنـه لا يـرى إلا في حبـور ظـاهر مـادام النـاس متـوجهين إلى ربهـم تعـالى ، ولكنـه يحـزن أشـد الحـزن ويغضـب لإدبـارهم عـن ربهـم. ولـيس في قلبـه كراهيـة لمخلـوق، وهـو يـامر بـالمعروف وينهـى عـن المنكـر، ولا يفـتر عـن ذلـك أو يمـلّ، وإنـه ليضـع كـل شـئ في موضـعه الصـحيح، وهـو متـى مـا وجّـه همتـه إلى كـون مـن الأكـوان، أوجـده الله تعـالى علـى وفـق مـراده، لأن مـراده في مـراد الحـق ومـن مـراده، فـاذا مـا أراد شـيئا وتوجـه في طلبـه مـن الله تعـالى ، فانـه لا يخيبـه، وهـذه الميـزة تسـمى الـدعوة المسـتجابة، وهـي مـن أخـص خصائصـه وأوفـر كراماته.(2)

---

(2) الجيلي – الفيوضات الربانية – ص27.
(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوطة.
(2) الجيلي – نفس المصدر - وتجدر الأشارة إلى أن الإمام عبد القادر، يضع في مقابل الأنفس الست الأولى ستة خواطر للقلب، وهي: خاطر النفس وخاطر الشيطان وخاطر الروح وخاطر الملك وخاطر العقل وخاطر اليقين. الخاطر الأول والثاني مذمومان لأنهما لا يامران إلا بالتمرد وترك الطاعات وإقتراف الآثام، وهما لعموم المؤمنين، وأما خاطر الروح والملك، فهما محمودان ةلا يامران إلا بالحق وهما لخواص الناس، وأما خاطر العقل فانه يميل تارة إلى جهة الخير وأخرى الى جهة الشر، وإن في ذلك لحكمة من الله تعالى، لكي يكون فعل العبد

ومع صفات النفس الكاملة، نكون قد أقتربنا كثيرا من صفات الوريث المحمدي أو الإنسان الكامل أو صاحب الخلافة العظمى، الذي سيرد عنه الكلام مفصلا في الفصل التالي، ويمكننا أن نلمس مما سبق، فضل الريادة والسبق، اللذين تميز بهما الإمام عبد القادر، من خلال توسعه في ذكر أنواع الأنفس وصفاتها، وبهذه الدرجة من الدقة والتفصيل، ويمكننا أن نلمس أيضا ما أشتمل عليه وصفه للنفس الإنسانية، من حدس فائق وإستبطان دقيق، سلطا الضوء على زوايا كثيرة من هذه النفس، كانت خافية قبل ذلك.

النفس والمنهج الاصلاحي

إن توسع الإمام عبد القادر، في بحثه في النفس، يمكن القول، أنه متات أولا من طبيعة منهجه الأصلاحي، فهو قد عمل جاهدا على جعل التصوف الإسلامي العملي وسيلة فعالة من وسائل إصلاح الأفراد والجماعات، وثانيا، لأنه أمل في نشر مبادئ طريقته الصوفية بين أكبر عدد ممكن من الناس، كمنهج بديل لترك هؤلاء لجوهر التعاليم والمبادئ الإسلامية وتشبثهم بالظاهر من رسومها، وكذلك إنغماسهم في الشهوات ورزوحهم تحت نير ظلم بعضهم لبعض، وتسلط أعدائهم عليهم. فكان التوسع في الحديث عن النفس، مع التبسيط المقصود، في أحصاء مراتبها وأحوالها وأنفعالاتها، خير وسيلة لتقريب معناها من أفهام الناس وثم مساعدتهم على معرفة نفوسهم، وهذه هي الخطوة الأولى والأهم في جماع الفعل الصوفي بوجه عام.

يبقى هنالك تساؤل مهم لابد من طرحه قبل الأنتهاء من هذا الموضوع، وهو: هل إن تصور النفس عند مفكري الإسلام، كان مرتبكا ومائعا وغير محدد الملامح، بحيث أنهم تخبطوا كثيرا في تحديد ماهية النفس وفي التفريق بينهما وبين الروح أو العقل، وبحيث أنهم ظلّوا حبيسين للتصورات الجاهلية الخرافية عن النفس وللجذر اللغوي القديم الذي ربط بين النفس والدم وذات الإنسان، كما يذهب إلى ذلك بعض المستشرقين المعاصرين ومن تبعهم من المفكرين العرب؟(1)

مقرونا بحضور عقله وموزونا بميزانه، وهذا هو موضع التكليف. وأما طاطر اليقين، وهو منبع روح الأيمان فانه لخواص الأولياء من أصحاب اليقين. – أنظر – الجيلي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص67.

(1) حول تفصيل هذه الآراء، يراجع كتاب – يوسف شلحد – بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام – تعريب د. خليل أحمد خليل – دار الطليعة بيروت. أما عن الجذر اللغوي لكلمة (نفس) – فانظر – لسان العرب لأبن منظور – ج/8 – ص119 وما بعدها وكذلك – تاج العروس للزبيدي – ج/4 – ص260 فما بعدها.

إننا لو بحثنا في الناتج الفكري لمفكري الإسلام، وبخاصة منه ما يتعلق بموضوع النفس، لوجدنا إن هؤلاء المفكرين سواء أكانوا فلاسفة أم متكلمين أم صوفية، كانوا هم الأوفر بحثا والأكثر عمقا من مفكري الحضارات والأديان الأخرى، في بحثهم ودراستهم للنفس الإنسانية، ويتجلى ذلك بوضوح أكثر، لدى الطائفة الأخيرة، فهؤلاء لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة لها علاقة بالنفس، إلا وأحصوها لا بل أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فوضعوا مناهج، يمكن أن نقول عنها (علمية)، في كيفية التعامل مع النفس وكيفية علاجها والترقي بها نحو مدارج الرقي الروحي، ولنا فيما سبق من كلام الإمام عبد القادر، خير مثال على ذلك.

ثانيا : المقامات عند الإمام عبد القادر الجيلي

تقديم :

يعدّ موضوع المقامات، من الموضوعات الأساسية في الفكر الصوفي الإسلامي، فلا يمكن لأي شيخ صوفي أو دارس للتصوف الإسلامي، أن يتجاوز هذه الموضوع، بل هو لا يستطيع إلا أن يقف معه طويلا، إسهابا وتفصيلا، لأهميته من جهة، ولتغلغله في جميع مفاصل التجربة الصوفية – بوجه عام – من الجهة الآخرى.

كذلك الحال عند الإمام عبد القادر، إذ يمكن للدارس، أن يرى بوضوح، ان موضوع المقامات عنده، وبكافة مفرداته وفقراته المعهودة، كالشكر والصبر والإخلاص والتوكل والرضا والصدق، قد أخذ مساحات واسعة من مؤلفاته الصوفية، بحيث أنك لا تجد، صفحة واحدة من تلك المؤلفات خالية من أحدى هذه المفردات.

عدد المقامات وأسماؤها

قبل الدخول في صلب موضوع المقامات عند الإمام عبد القادر، لابد، إبتداءً، من تثبيت ملاحظتين مهمتين: الأولى منهما تشير إلى أن عدد المقامات وتسلسلها، غير محدد عنده بشكل قطعي وثابت كما هو الحال عند بقية الصوفية، فهي تتفاوت، زيادة ونقصانا، تقدما وتآخرا، حسب الموضوع الذي يرى (الشيخ) توضيحه في حينه، ولعل الأمر يتعلق، أساسا، برأيه الذي يربط فيه المقامات فيما بينها بعلاقات عضوية، متفاعلة ومتداخلة، بحيث انه لا غنى لصاحب مقام الخوف مثلا، عن مقامي الشكر والرجاء، وكذلك فلا غنى لصاحب مقام التوبة عن مقامي الزهد والإخلاص ، وهكذا وعليه، فان المقامات عند الإمام عبد القادر، تشكل، في مجموعها، الخيوط التي ينسج منها بساخه الصوفي، من غير عزل وتمييز لهذه اللُحمة أو ذاك السدى. وما كان تصنيف هذه المقامات وتبويبها، إلا لأسباب توضيحية، لا علاقة لها بهيكلية التجربة الصوفية عنده. أما الملاحظة الثانية فهي تشير إلى أن مؤلفات الإمام عبد القادر، قد أشتملت على تصنيفات متعددة للمقامات، غير تلك التي عهدناها في كتب التصوف الإسلامي بوجه عام، والتي لم يغفل هو أيضا، عن ذكرها. فنراه مثلا، يذكر في كتابه (الفتح الرباني): الإسلام والأيمان والأيقان والمعرفة، مقامات ودرجات للرقي الروحي وأن هذه المقامات، هي أيضا مرتبط أحدها بالآخر برباط عضوي، وأن أحدها متعلق

بصحة ما سبقه، وهكذا. وكالمعتاد أيضا فان الإمام عبد القادر، لا ينسى تذكير مريديه، بان أي صفاء روحي أو تدرج معرفي، لايتم، في هذه المقامات، إلا مع حفظ حدود الشرع وملازمة آدابه.(1) وأما في كتابه: (الغنية لطالبي الحق عز وجل)، فانه يضع ترتيبا آخر للمقامات يختلف عن سابقه، فهو يبدأ أولا بالزهد والمجاهدة، اللذين ما أن تركن النفس أليهما حتى ينقلها الله عز وجل، إلى ملك الجبروت، وبسلطان الجبروت، تقمع النفس وتقهر، فاذا ما إستجابت وخشعت، نقلت منه بعد ذلك إلى ملك السلطان، لتهذب وتذوب فيها تلك الغدد العالقة التي هي أصول الشهوات، ثم تنقل بعد ذلك إلى ملك الجلال، فتادب ثم إلى ملك الجمال فتنقى ثم إلى ملك العظمة فتطهر ثم إلى ملك البهاء فتطيب ثم إلى ملك البهجة فتوسّع ثم إلى ملك الهيبة فتربى ثم إلى ملك الرحمة فترخب وتقوى وتُشجع ثم إلى ملك الفردية حيث تُفرد وتعاد إلى موضعها الأول.(2)

أما المريد السالك، فانه في جميع هذه المقامات، من أشدها وخاة على نفسه وحتى أيسرها وأهونها عليه، يتقلب في رحمة الله عز وجل، إذ يعتقد الإمام عبد القادر، بانه لولا رحمة الله تعالى وفضله لما أستطاع الإنسان أن يغير ولو قليلا من خباع نفسه. إن اللطف الإلهي هو الذي يعذب نفس المريد – أي يزيدها عذوبة بان يزيل عنها ظلمة الكدورات – والرأفة هي التي تجمعه وتكتنفه والمحبة تقويه والشوق يدنيه والمشيئة تؤديه إليه تعالى ، والجواد العزيز يقلبه فيقربه ثم يدنيه ثم يمهله ثم يؤديه ثم يناجيه ثم يبسطه بمنه ثم يقبض عليه، فاينما صار المريد السالك، وفي كل مكان جال وفي كل حال لربه دان، فهو في قبضته عز وجل وأمين من أمنائه على أسراره وما يؤديه من ربه إلى خلقه.(3) فاذا صار إلى هذا المحل، فقد أنقطعت الصفات وأنقطع الكلام والعبارات – وهو حال الفناء – وهذا هو منتهى العقول والقلوب، وغاية ما تبلغه حالات الأولياء وتؤول أليه، وأما ما وراء ذلك، فهو مختص بالأنبياء والرسل دون غيرهم.(4)

يمكننا أن نخلص مما سبق، إلى أنه لا وجود لشئ من المغايرة و(الأبتداع) في تصنيفات الإمام عبد القادر، لتلك للمقامات، وإنما هو أختلاف في الصياغة وأختصار في التعبير، بينما مراحل

---

[1] الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص147.

[2] الجيلي – الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل – ج/3 – ص1275.

[3] يلاحظ هنا، إن كافة مراتب النفس الإنسانية، والغاية من المقامات الصوفية باصنافها كافة تؤدي عند الإمام عبد القادر، إلى نتيجة واحدة، وهي بلوغ مرتبة الخلافة العظمى، ومن ثم هداية الخلق وأرشادهم.

[4] الجيلي – المصدر نفسه – ج/3 – ص1276.

السلوك عنده، واحدة لا تتغير، فمثلا، المريد الذي يجتاز المراحل أو المقامات الصوفية، إبتداءً من الزهد

وحتى الفناء، فانه حتما سيمر بمراحل: الإسلام والأيمان والإيقان والمعرفة، وهو أيضا، سيتقلب حتما بين ملك الجبروت وملك السلطان وملك الهيبة وملك الجلال... الخ. إذن فلا وجود، عنده، إلا لتصنيف واحد للمقامات، وهو ما سنذكره بالتفصيل فيما بعد.

الفوائد الروحية للمقامات

إن بلوغ المقامات الروحية، عبر السلوك الصوفي، لا يعد في نظر الإمام عبد القادر، هدفا أو غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة، يراد من خلالها، تجاوز عقبة نفسية أو أزالة ظلمة من ظلمات هذه النفس المليئة بالحجب الكثيفة المانعة لها من التمكن من مقام العبودية الحقّة، وأن أعظم غنيمة يمكن للإنسان أن يجنيها من وراء بلوغه هذا المقام، هو إكرامه نفسه، التي كرّمها الله عز وجل إبتداءً وإن أعظم ما يُكرم به السالك في سلوكه، أو من خلال مجاهداته وعباداته، هو: أن تبدّل أوصافه الذميمة، باوصاف هي حميدة عند مولاه تعالى وهي مقبولة في الشرع والعرف وهي منجّية له من المهالك، فالمقصود من هذا السلوك هو، ((الوصال مع ملك الملوك، والوصل لا يكون إلا برفع الحجب، وأن الحجب في حقيقتها، هي عدم مناسبة بين الطالب والمطلوب، وأن تبديل الصفات تقرّب المناسبة))(1) وتجدر الأشارة، إلى أن هذه الحجب، ترجع في نظر الإمام عبد القادر، إلى العبد وحده دون المعبود، لأن الله تعالى ، لا يحجبه شئ، لأنه لو كان له حجاب، لكان له قاهر، والله تعالى :(هو القاهر فوق عباده)(2) إذن فالمحجوب على الحقيقة هو العبد، وأما المقصود من الحجب عند التحقيق، فهي الذنوب والمعاصي والغفلات، على أن تبديل العبد أصافه الذميمة، بصفات مولاه الحميدة، لا يعني سعيه لأكتساب صفات الألوهية والقدرة والعظمة، وإنما الصفات الحميدة التي وصف بها المولى تعالى نفسه، وأمر عباده بالتحلي بها، مثل الأيمان والكرم والصدق...الخ.

لقد عمل الإمام عبد القادر جاهدا، على أن يجد للمقامات الصوفية غايات عملية، تسلّط الضوء على المقصود الرباني الذي يمكن أن يتحقق من خلالها، وأولى هذه الغايات وأهمها، هي تعلم آداب الخضوع للحضرة الإلهية، ويتم ذلك إقتداءً بصاحب الخلق العظيم، محمد (صلى الله عليه

---

(1) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملوك – مخطوطة.

(2) سورة الأنعام – آية / 18.

وسـلم). ثـم، إكتسـاب الشـعور بـالعجز عـن الأدراك، أي إدراك كـل مـا يتعلـق بالـذات الإلهيـة أو القـدرة أو العظمـة، وهـذا الشـعور بـالعجز، إذا تحقـق، فانـه يرتقـي بالعبوديـة إلى المسـتوى الحـق المرجـو منهـا، وكـذلك فـان السـلوك يـدفع إلى التوجـه للمعـارف عامـة، إهتـداءً لعـالمي الغيـب والشـهادة، فـبغير العلـوم والمعـارف، لا يمكـن الولـوج إلى عـالم الغيـب ولا التعامـل مـع عـالم الشـهادة، وكـذلك يعلـم السـلوك المريـد أن يتخـذ الجـوع وسـيلة للوصـال وأسـتعجالا للّقـاء في الـدنيا قبـل الآخـرة، ثـم يعلمـه كيفيـة إنفصـال الأرواح عنـد المناجـاة، حـالا يحـاكي فيـه الملائكـة بتجـردهم وصـفائهم، ثـم الوقـوف مـع التوحيـد، وضـعا ثابتـا لا يمازجـه خـاطر مـن شـرك خفـي أو ظـاهر، ثـم يعلمـه كيفيـة التواصـل مـع ذكـره تعـالى وتـلاوة كلامـه سـرا وخفـاءً، زيـادة في الإخـلاص . وكلمـا أتم العـارف مقامـا مـن هـذه المقامـات، فـتح الله تعـالى لـه في كـل آخـر مقـام، بابـا مـن أبـواب مواهبـه الرحمانيـة، فيفـتح لـه مـثلا، مـن تعلمـه آداب الحضـرة إقتـداءً، بـاب البسـط في الملـك والملكـوت والجـبروت، فامـا في الملـك فيكـون في العلـم والجسـم وأمـا في الجـبروت فيكـون في الحـال والقلـب وأمـا في الملكـوت فيكـون في الـروح والسـر، إذ تظهـر لـه أسـرار المقامـات وحقـائق الأحـوال، فـاذا مـا تم للمريـد ذلـك، فـان روحـه سـتجد نسـيم القـرب فـلا تـالف إلا نسـبته، وهـذا هـو سـر العرفـان المتولـد عـن التقـوى، وهـو أولى حقـائق العـارفين في أول مشـاهدتهم ومبـادئ منـازلتهم.(1) إذن فمـا يطمـح المريـد للوصـول أليـه، هـو أن يكـون عبـدا حقيقيـا لمـولاه، وأن يكـون ذكـره خالصـا لربـه وان يكـون صـافي الـنفس نقـي القلـب أمينـا علـى حـدود الله تعـالى ، ناصـحا لعبـاده، آمـرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وهذا هو عين ما تبغي الطريقة بلوغه وهو عين ما تامر به الشريعة.

المقام لغة واصطلاحا

وقبـل الـدخول في تفصـيل الكـلام عـن المقامـات عنـد الإمـام عبـد القـادر، لابـد أولا، مـن التـذكير بـبعض دلالات كلمـة (مقـام) اللغويـة، والاصـطلاحية، مـن أجـل تسـليط مزيـد مـن الضـوء علـى جوانـب هذا الموضوع.

المقـام في اللغـة هـو موضـع الأقامـة، وامـا مفرداتـه فهـي: قـام، يقـوم، قومـا، قيامـا، قومـة، قامـة وقـام: أي ثبـت ولم يـبرح ومنـه قـولهم: أقـام بالمكـان، ويقـال قـام المـاء، إذا ثبـت مـتحيرا لا يجـد منفـذا أو إذا جمـد والمُقامـة بالضـم تعـني الأقامـة، وقيـل المقـام بـالفتح هـو المنزلـة الحسـنة، وأقـام الشـئ: أدامـه،

(1) الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص46.

وقـام الشـئ وأسـتقام أي أعتـدل وأسـتوى.(2) فالمقـام في اللغـة إذن، لا يخـرج عـن معنـى الثبـات والأستقرار

والدوام، وهذه هي المعاني نفسها التي ألتزم بها الصوفية في أصطلاحهم.(1)

عنـد الصـوفية يشـير المقـام إلى: مقـام العبـد بـين يـدي الله تعـالى ، فيمـا يقـام فيـه مـن العبـادات والمجاهـدات والرياضـات والانقطـاع إلى الله عـز وجـل(2) ويـذكر القشـيري أن المقـام هـو مـا يتحقـق بـه العبـد بمنازلتـه مـن الآداب، بمـا يتوصـل اليـه بنـوع تصـرف ويتحقـق بـه بضـرب تطلـب ومقاسـاة تكلـف – أي أن المقـام يعتمـد علـى سـلوك العبـد وجهـده – فمقـام كـل أحـد، هـو موضـع أقامتـه عنـد ذلـك، ومـاهو مشـتغل بالرياضـة لـه، وشـرخه أن لا يرتقـي مـن مقام إلى مقـام آخـر، مـالم يسـتوفي أحكـام ذلـك المقـام، فـان مـن لا قناعـة لـه لا يصـح لـه التوكـل ومـن لا توكـل لـه لا يصـح لـه التسـليم وهكـذا. والمقـام هـو الأقامـة كالمـدخل بمعنـى الأدخـال والمخـرج بمعنـى الآخـراج، ولا يصـح لأحـد منازلـة مقـام، ألا بشـهود إقامـة الله تعـالى أيـاه بـذلك المقـام، ليصـبح بنـاء أمـره علـى قاعـدة صـحيحة.(3) إذن فالقشـيري يـرى أنـه لا يجـوز الأنتقـال إلى مقـام جديـد مـالم يـتم الـتمكن مـن المقـام الـذي سـبقه، وهـذا مـالا يؤيـده الإمـام عبـد القادر، كما مرّ بنا سابقا.

الحـــال

ومـن ذكـر الشـئ بالشـئ، فلابـد مـن أن نعـرّج هنـا علـى بعـض مـا قيـل في رديـف المقـام الـذي يـذكر معـه في أكثـر الأحيـان، وهـو الحـال: والحـال في اللغـة مـاخوذ أصـلا مـن التحـول والـتغير، فيقـال حـال الشـئ حـولا، وحـؤولا. وأحـال، بمعنـى تحـوّل، وحـال الشـخص يحـول إذا تحـول. والتحـول يعـني التنقـل مـن موضـع إلى آخـر، والحـال يعـني أيضـا الوقـت الـذي أنـت فيـه.(4) وأمـا في أصـطلاح الصـوفية،

---

[2] إبن منظور – لسان العرب – ج/12 – ص497 فما بعدها.

[1] وردت في القرآن الكريم تصريفات كثيرة لكلمة (مقام) تفيد في أغلبها معاني: المكان والثبات والأستعداد والمباشرة بالفعل.

[2] الطوسي – اللمع – ص65. ولابد من الأشارة هنا إلى أن الباحث لم يجد كتب الإمام عبد القادر أو الكتب التي نقلت عنه، تعريفا محددا للمقام أو الحال سوى قوله: إن المؤمن صاحب حال والحال يحول والعارف صاحب مقام والمقام ثابت، المؤمن خائف من أنتقال حاله وزوال أيمانه، فحزنه دائم في قلبه وبشره دائم في وجهه – أنظر الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص229. ومن هذا (التعريف) يمكن أن نفهم أن المقام عند الإمام عبد القادر، أرفع منزلة من الحال وأدوم وأثبت في القلب وهو كذلك في نظر أغلب الصوفية.

[3] القشيري – الرسالة القشيرية – ص54.

[4] أبن منظور – لسان العرب – ج/11 – ص190.

فيعني الحال: كل ما يرد على القلب – من غير تصنع ولا أجتلاب ولا أكتساب – من طرب أو حزن أو بسط أو هيبة أو شوق. والحال يزول بظهور صفات النفس، أي بزوال صفائها، فاذا مادام وصار ملكا، سمي مقاما. فالأحوال إذن مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تاتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل الجهد، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترقٍ عن حاله.(1) وقال بعض العارفين أن الأحوال كاسمها، يعني أنها كما تحل في القلب تزول في الوقت وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها، وقالوا أنها إذا لم تدم ولم تتوال فهي لوائح وبواده.(2) ولم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال. فاذا ما دامت تلك الصفة، فعند ذلك، فقط، تسمى حالا. ويضيف القشيري بان الحال هو: منازلة العبد في الحين – أي ما يطرأ عليه في حينه – فيصفو له في الوقت حاله ووقته.(3) وخلاصة ما يمكن أن نخلص أليه، من تعريفي المقام والحال، يمكن أن نجدها في قول الإمام عمر السهردوري (ت632 هـ) وهو من أشهر تلامذة الإمام عبد القادر وذلك في معرض تفريقه بين المقام والحال، فيقول: إن اللفظ والعبارة عنهما – أي المقام والحال – مشعر بالفرق. فالحال سمي حالا لتحوله والمقام مقاما لثبوته وأستقراره، وقد يكون الشئ بعينه حالا ثم يصير مقاما.(4)

أما عم عدد المقامات عند الصوفية، فيمكن القول، إنها كثيرة وغير ثابتة العدد، بحيث أنها قد تكثر فتصل إلى مائة مقام كما هو الحال عند الهروي الأنصاري (ت 481هـ) في كتابه منازل السائرين، وقد تقل فتصبح سبعة مقامات، كما نجدها عند أبي بكر الطوسي (ت 378هـ) في كتابه الشهير (اللمع) أما عن الإمام عبد القادر، فقد أحصى لنا سبعة مقامات، هي على عدد الأنفس التي مر ذكرها سابقا. وهذه المقامات هي ما ياتي:

أولا:- مقام التوبة

الأصل في التوبة، قوله تعالى (وأني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم أهتدى)(5)وقوله تعالى

---

(1) الجرجاني – التعريفات – ص85.

(2) اللوائح والبواده: تعني هنا الأشارات والأرهاصات، وأما دوام الحال فيعني به التكرار وليس الثبات، لأنه لو ثبت لأصبح مقاما.

(3) القشيري – أربع رسائل في التصوف – تحقيق. د. قاسم السامرائي–مطبعة المجمع العلمي العراقي – 1969 – ص45.

(4) عمر السهردوري – عوارف المعارف – ص469.

(5) طه – آية/82.

(ومـن تـاب وعمـل صـالحا فانـه يتـوب إلى الله متابـا)(1) وقولـه تعـالى (فمـن تـاب مـن بعـد ظلمـه وأصـلح فـان الله يتـوب عليـه)(2) والتوبـة هـي أول المقامـات عنـد الإمـام عبـد القـادر، وهـي نقطـة البدايـة في سـلوك طريـق القـوم الموصـل إلى حـق الـيقين، والتوبـة تعـني التـبري مـن الـذنوب الـتي هـي ظلمـات القلـوب وحجـب الأنفـس، وهـي بـاب يظـل مفتوحـا، مـادام العبـد في الحيـاة، فـان مـات أغلـق دونـه، (3) وكمـا نلاحـظ، فـان الإمـام عبـد القـادر، يعمـل علـى أن يقـدم للتوبـة تعريفـا مقبـولا مـن لـدن الصـوفية والفقهاء على حد سواء، وهذا هو جوهر رسالته الفكرية.

التوبـة إذن، واجبـة علـى كـل أنسـان، سـواءٌ أكـان سـالكا أم غـير سـالك، لأن حقيقتهـا هـي اللجـوء إلى الله تعـالى ، فالعبـد إذا مـا تـاب إلى ربـه، فهـذا يعـني أنـه قـد لجـا أليـه، وفي اللغـة يقـال: تـاب فـلان مـن أمـر أي رجـع عنـه، فالتوبـة هـي الرجـوع عمـا كـان مـذموما في الشـرع إلى مـاهو محمـود فيـه، وهـي كـذلك تعـني النـدم علـى مـا فـات مـن الـذنوب وتعـني التوبـة أيضـا: الرجـوع إلى الله تعـالى ، بحـلّ عقـدة الأصـرار عـن القلـب، ثـم القيـام بكـل حقـوق الـرب، والتوبـة النصـوح هـي: توثيـق العـزم علـى أن لايعـود بمثلـه ولا يبقـى علـى عملـه أثـرا مـن المعصـية سـرا وجهـرا. وقيـل: التوبـة هـي الأعـتراف والنـدم والأقـلاع.(4) أمـا أذا أريـد للتوبـة أن تكـون مقامـا مـن بـين المقامـات الصـوفية، فـان للشـيخ عبـد القـادر فيهـا رأيـا آخـر، فالمريـد هنـا، لابـد مـن أن يتحقـق بالتوبـة ويـتمكن منهـا ويتلـبس بهـا، بحيـث إنهـا تسـري علـى ظـاهره وباطنـه وعلـى جميـع جوارحـه، فتبـدو وكانهـا، قلـب دولـة، أي أن يتبعهـا تغيّـر جـذري ملحـوظ علـى المريـد التائـب بكليتـه. ويشـترط في التوبـة (الصـوفية) أن تكـون مجـردة، لا تتعلـق بشـئ ولا يتعلـق بهـا شـئ وهـي مـا تسـمى بالتوبـة النصـوحة الخالصـة لوجهـه تعـالى ، الـتي لا تعلـق لهـا بترجـي مكافـاة أو طلـب مـدح أو جـاه في الـدنيا أم في الآخـرة ويشـترط لصـحة هـذه التوبـة، أن يكـون العبـد معهـا، مسـتقيما علـى الطاعـة غـير مائـل إلى المعصـية، ((لا يـروغ كمـا يـروغ الثعلـب، ولا يحـدث نفسـه بعـود إلى معصـية ولا ذنب من الذنوب، وأن يترك الذنب لله خالصا، كما أرتكبه للهوى خالصا))(5)

مـن العبـارة السـابقة يتـبين لنـا ملامـح الأسـلوب الصـوفي في التعامـل مـع مفـردات الحيـاة، الدنويـة منهـا و الآخرويـة، إذ إن الصـوفي لا يرضـى مـن المعـاملات والعبـادات، ألا ماكـان جوهريـا في تـاثيره

(1) سورة الفرقان – آية/71.

(2) سورة المائدة – آية/39.

(3) الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص28.

(4) الجيلي – الغنية لطالبي الحق عز وجل – ص537 – ج/3.

(5) الجيلي – المصدر نفسه – ج/2 – ص538.

في كيانـه باجمعـه، فهـو لا تكفيـه النيـة الخاويـة ولا ترديـد الكـلام المحفـوظ، وإنمـا النيـة المقرونـة بالفعـل المسـتمر والمقصـود، والمتغلغـل في جميـع مفاصـل الحيـاة، فالتوبـة بهـذا المعنـى، تهـدف إلى إجـراء تغـيير ملحـوظ في حيـاة الإنسـان الداخليـة وفي علاقتـه مـع ربـه والآخـرين، وأمـا مـا عـدا ذلـك فانهـا ستصـبح رسمـا مـن بـين الرسـوم الـتي يمارسـها النـاس، ولا يكلفـون أنفسـهم مشـقة فهمهـا وأسـتنباط معانيهـا. أن الصـوفي لا يرضـى مـن العبـادات إلا بمعانيهـا الحقيقيـة، علـى أنـه لايفـرط في الوقـت نفسـه بما يظهر منها من شعائر وحركات.

إن التوبـة إذا مـا وصـلت إلى هـذه النقطـة مـن الفعـل والتـاثير، فانهـا سـتقترب كـثيرا مـن حـدود الـورع فيمتـزج الأثنـان ويتـداخلان، ويكـون صـاحب التوبـة ورعـا ويكـون الـورع في توبـة دائمـة، (1) وهنـا يمكننا أن نلمس التداخل الذي سبقت الأشارة أليه، بين المقامات الصوفية عند الإمام عبد القادر.

ولأهميـة التوبـة، سـواء في السـلوك الصـوفي أم في الحيـاة الأعتياديـة، فقـد عـدّها الإمـام عبـد القـادر فـرض عـين في حـق كـل إنسـان، إذ لا يخلـو أحـد مـن معصـية، سـواء في الجـوارح أم في القلـوب، فـان خـلا منهـا بهـذين الـوجهين، فانـه لا يخلـو مـن الوسـاوس والخـواطر الـتي تذهلـه عـن ذكـر ربـه، فـان خـلا مـن هـذه أيضـا، وهـو نـادر الوقـوع، فانـه لا يخلـو حتمـا مـن ريبـة وحـيرة في عقيدتـه الدينيـة، ممـا لـه علاقـة بعلـم الصـفات والأفعـال. والإمـام عبـد القـادر، هنـا يعمـل علـى غلـق جميـع المنافـذ، أمـام أتهـام الصـوفية، بادعـاء العصـمة والحفـظ المطلـق، في أي مرحلـة مـن مراحـل سـلوكهم الصـوفي، وهـو مـا يحـاول ان يُلصـقه بهـم خصـومهم، فالصـوفي، اذن، مهمـا ارتـقَ في مراحـل الكمـال الروحـي، فانـه يبقَ في حاجة ماسة لسدّ نقصه الطبيعي الذي هو وليد بشريته.

مراتب التوبة

والتوبـة عنـد الإمـام عبـد القـادر، ليسـت واحـدة في حـق كـل النـاس، وإنمـا هـي تتفـاوت وتتنـوع علـى قـدر منـازلهم وأحـوالهم ومقامـاتهم، إذ إن لكـل حـال ينالـه الصـوفي، مـثلاً، طاعـات وذنوبـاً وحـدوداً وشـروطاً، فحفـظ الحـال طاعـة وتركـه والغفلـة عنـه ذنـب يحتـاج إلى توبـة، والتوبـة هنـا تعـني الرجـوع عـن الزلـة الـتي وجـدت، إلى سـنن الطريـق المسـتقيم الـذي شُـرِّع لـه والمقـام الـذي أقـيم فيـه والمنزلـة الـتي مُهِّـدت لـه. فكـل النـاس، في نظـر الإمـام عبـد القـادر، يفتقـرون للتوبـة، حتـى لـو بلغـوا ارفـع درجـات

(1) يعرف القشيري الورع بانه: ترك ما يريبك ونفي ما يعيبك والأخذ بالأوثق وحمل النفس على الأشق – الرسالة القشيرية – ص61.

الولاية.(1) وإنما هم يتفاوتون في مقادير هذه التوبة، فتوبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلات وإما توبة خواص الخواص، فانها تُستوجب من ركون القلب إلى ما سوى الله تعالى .(2)

مما سبق، يمكننا ان نخلص إلى أن التوبة كمقام، لا يمكن للمريد ان يتعدّاها صعوداً، إلى المقام الذي يليها، بل هي تظل ملازمةً له كظلّه، منذ باكورة سلوكه وحتى مراقيه النهائية إنها سلوك يومي يدرأ به عن نفسه مهاوي الزلّات والغفلات، وعليه فلا مجال لأي سالك يدّعي الوصول إلى برّ ألامان، وثم يتخلى عن الواجبات الشرعية، إذ انه حتى خواص الخواص من الأولياء، يحتاجون إلى للتوبة، أي بمعنى إنهم يحتاجون إلى إتيان فعل الطاعات طوال حياتهم.

لا تصحّ التوبة، عند الإمام عبد القادر فتصبح مقاماً، إلا إذا استوفت شروطاً ثلاثةً: أولها الندم(3) على ما اقترف من المخالفات، وعلامة صحة الندم هي: رقة القلب وغزارة الدمع. وثانيها: ترك الزلّات في جميع الأحوال والأوقات، وثالثها: عقد العزم على عدم العودة إلى ما أُقترف من المعاصي والخطايا. فان تمت هذه الشروط، نصحت التوبة وأصبح المريد بعدها، لا يبالي كيف أمسى أو كيف أصبح، إذا أن الندم الذي انتابه، سيورثه عزماً وقصداً على ان لا يعود لما أسلف من المعاصي، لعلمه المستفاد من ذلك الذي مفاده: ان المعاصي تحول بينه وبين معبوده.

وكما تختلف التوبة باختلاف الناس واختلاف مراتبهم الروحية، فانها تختلف أيضا، باختلاف الأزمنة وهي: الحاضر والماضي والمستقبل، فامّا ما يتعلق منها بالزمن الحاضر فهو يعني: ترك كل محظور وأداء كل فرض، وأما ما يتعلق بالماضي، فهو: تدارك ما فرط، وأما ماله علاقة بالمستقبل، فهو: المداومة على الطاعة وترك المعصية إلى الموت.(1) على أن هذه التوبة، لا تكون من العبد تجاه ربّه فقط، بل ان لها وجهاً يتعلق بالعباد، ويعالج باداء حقوقهم والإحسان إليهم وإرضائهم،

---

(1) يذهب الإمام عبد القادر، إلى انه حتى الانبياء لا غنى لهم عن التوبة، وهويستند في ذلك إلى الحديث النبوي الشريف: انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله عز وجل في اليوم الواحد والليلة سبعين مرّةص. انتهى. ومعنى يغان أي يغشى ويغطى. وهو حديث صحيح رواه الإمام احمد ومسلم وابو داود والنسائي. وحول سند الحديث- انظر- المغني عن حمل الاسفار- ج/4-ص10. وقد ذكر الإمام عبد القادر هذا الحديث في كتابه : الغنية لطلبي طريق الحق عز وجل- ج/2-ص545.

(2) الجيلي - المصدر نفسه- ج/2-ص544-545.

(3) الندم في اصطلاح الإمام عبد القادر هو: توجع القلب عند علمه بفوات محبوبه، فتطول حسراته واحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته، فيعزم على ان لا يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من العلم بشؤم ذلك. انظر- المصدر نفسه- ج2 - ص558.

(1) الجيلي - الغنية لطلبي طريق الحق عز وجل- ج/2-ص558.

بينمـا الوجـه الأول الـذي هـو إزاء الـرب تعـالى ، فانـه يعـالج بالاسـتغفار باللسـان والنـدم بالقلـب وإضـمار النيّة على عدم العودة إلى ما تاب العبد منه.

مصدر التوبة

ولنـا أن نسـال، أخـيرا، هـل التوبـة هـي مـن سـابق عنايـة الله تعـالى لعبـاده، أم إنهـا فعـل خـالص لإرادة العبـد وقصـده ؟ علمـاً إن مـا يصـح علـى التوبـة مـن جـواب علـى هـذا السـؤال، يصـح علـى الفعـل الصـوفي برمتـه. يتميـز جـواب الإمـام عبـد القـادر عـن هـذا السـؤال، بانـه يجمـع كـل الأمـرين في مـزيج واحـد متجـانس. فالتوبـة تبـدأ مـن التوفيـق وسـابق العنايـة الإلهيـة، وان بدايـة نـزوع العبـد نحـو صـدق التوبـة، يبـدأ مـن عنـد الله عـز وجـل ((فالتوبـة لا تخـرج عـن كونهـا نظـر الحـق تعـالى إلى عنايتـه السـابقة القديمـة لعبـده، وإشـارته بتلـك العنايـة إلى قلـب عبـده، وتجريـده ايّـاه بالشـفقة، مجتـذباً إليـه قابضـاً، فـإذا كـان كـذلك، انجـذب القلـب إليـه عـن كـل همّـة فاسـده وتابعـه الـروح ووافقـه العقـل، فصـحّت التوبـة وصـار الأمـر كلـه لله تعـالى)).(2) فـإذا مـا اسـتجاب العبـد لهـذه الـدعوة، وسـعى لهـا سـعيها، طبعـت بطـابعه

وكانـت لـه فعـلاً خالصـاً وصـادراً مـن محـض إرادتـه وقصـده، وفـوق ذلـك، فانـه يسـتحق لأجلـه الثـواب. وهكـذا هـو الفعـل الصـوفي عامـة إذ انـه في الوقـت نفسـه دعـوة ربانيـة وتلبيـة بشـريته، فـإذا مـا اختلطـت هذه التلبية، بصدق العبد وإخلاصه فانه سيصل معها إلى ابعد المرامي وأعلى الرتب.

علاقة التوبة بالورع

فـإذا مـا نصـحت التوبـة، واسـتوفى العبـد شـروطها، وتشـرّب بهـا قلبـه وروحـه وعقلـه وكـل جوارحـه وصـارت لنفسـه طبعـاً مسـتفاداً دائمـاً، تطـورت فاسـتحالت ورعـاً. أي إنهـا صـارت حـذراً ايجابيـاً ملازمـاً للمريـد في جميـع حركاتـه وسـكناته، أو بـالاحرى صـار الخـوف مـن اقـتراف المحضـور، والخشـية مـن مباشـرة الشـبهات، طبعـاً مـن طبـاع الـنفس، يعلـم مـن خلالـه المريـد، وبفطرتـه السـليمة الـتي اسـتعادها ((ان سـلوك طريـق الحـق، متعـذر علـى مـن هـبط إلى سـجيّن الطبيعـة وأسـفل السـافلين، وانحـبس في

(2) الشطنوفي- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص122. ونلاحظ هنا، ان الأمر الالهي الذي مادته الايمان والمغيبات، يكون القلب هو محله الأول، ثم بعد ذلك تتبعه الروح، التي تقف بين الغيب والشهادة، ثم العقل اداة الشهادة، فاما اذا كان للامر تعلق بالاوامر والنواهي، فان العقل هو اول من يستجيب، لانه ما خلق الا لاجل ذلك، ثم بعد ذلك يتبعه الروح ثم القلب، وعلى أساس هذا التقسيم للواجبات، فاننا يمكن ان نضع العقل في مقام الاسلام والروح في مقام الايمان واما القلب فهو في مقام الاحسان بدلالة كونه موطن الفعل الصوفي.

قفص العادات، واصطيد بشبكة المخالفات)).(1) فإذا ما عكسنا هذا القول فان النتيجة هي: إن خريق الحق متيسر لكل من ارتقى فوق خبائعه الدنيئة وتحرر من قفص عاداته وشبكة أهوائه.

الورع اذن، هو الخطوة التالية التي تكمّل مقام التوبة، فتمنحه صفة الديمومة والثبات(2)، والورع بايسر معانيه، يعني ترك الشبهات(3) وهو بهذا المعنى، يدلّ على انه فعل شرعي محض، وما دامت التوبة تُفضي إلى الورع والورع يفضي إلى التوبة، فهذا يعني ان الحقيقة تفضي إلى الشريعةوالشريعة تفضي إلى الحقيقة، أو بالاحرى فانه لا وجود لفواصل حقيقية بينهما، وهذا هو جوهر ما يرمي الإمام عبد القادر إلى بيانه. واما الورع بمعناه الموسع فهو: اشارة إلى التوقف في كل شيء وترك الاقدام عليه الا باذن شرعي، فان وجد للشرع فيه فعلاً لتناوله فيه مساغاً، والا تركه. والورع هو ملاك الأمور كلها.(4)

مستويات الورع

يقسم الإمام عبد القادر- كعادته في تقسيم الموضوعات- الورع على ثلاثة مستويات: ورع العوام وهو ورع عن الحرام والشبهة، وورع الخواص وهو ورع عن كل ما للنفس والهوى فيه شهوة وورع خواص الخواص، وهو ورع عن كل ما للنفس فيه إرادة ورؤية، فالعام يتورع في ترك الدنيا، والخاص يتورع في ترك الجنة العليا وخاص الخاص يتورع في ترك كل ما سوى الذي خلق وبرا. وغير هذا التقسيم، فان الورع عند الإمام عبد القادر، ينقسم على قسمين، ورع ظاهر وورع باخن، فاما الظاهر فهو ان لا يتحرك العبد إلا بالله عز وجل، وأما الباخن، فهو إن لا يدخل قلبه سوى الله تعالى .(1) وكان الإمام عبد القادر، يريد ان يخبرنا، بان الورع هو اختصار لفعل الصوفي برمته، فبه تتحقق الطاعة الحقة لله تعالى ، وهو الذي يفضي إلى التوكل الصحيح، وهو الذي لا يبقي إرادة

---

(1) الجيلي - فتوح الغيب- هامش كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص80.

(2) يعد الإمام عبد القادر ، من بين أكثر مشايخ الصوفية اهتماماً بموضوع الورع، فهو كثيراً ما يتطرق اليه وفي أغلب كتبه، ولعل مردّ ذلك يعود إلى اعتقاده بان الورع هو عماد الدين والحافظ للقلب من التردي في مهاوي الغفلات، لان الورع عنده يعني الخوف من اتيان الذنوب وتجنب الخوض في الشبهات.

(3) هكذا ورد تعريف الورع عند القشيري- انظر- الرسالة القشيرية- ص90.

(4) الجيلي - الغنية لطلبي خريق الحق عز وجل- ج/2-ص583. وكذلك ورد التعريف في بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي- ص66. وقلائد الجواهر للتادفي-ص81.

(1) الشطنوفي- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص66.

للعبد مع إرادته تعالى ، وهو فوق ذلك يؤدي إلى بلوغ العبد أعلى درجات العبودية والتوحيد، وذلك بان يمنع أي داخل إلى قلبه سوى ذكر مولاه تعالى .

إن من بين أهم وأنبل آداب السلوك للمريد، عند الإمام عبد القادر، هو عدم ترك الاحتياط في الورع، في حال ضيق اليد، فلا يخرج المريد السالك إلى ما لا يحلّ في الشرع متذرعاً بفقره فيتحول من العزيمة إلى الرخص. ان الورع هو مِلاك الدين والطمع هلاكه وتناول الشبهات فساده وان من لم يصحبه الورع خوال مسيرته الصوفية، أكل الحرام وهو لا يدري، فعليه إذن أن لا يخلد إلى التاويلات في دينه، في حال فقره، بل يركب الأشق والاحوط الذي هو العزيمة. وفوق ذلك فان من لم ينظر في دقائق الورع، فلن يحصل على نفائس العطاء الروحي.

والورع إذا ما دُقق النظر فيه، صار متنوعاً ومتفاوتاً، فهو يختلف من موضوع لآخر، فالورع في الكلام، أشدُّ منه في الذهب والفضة، والورع الذي يكون في الزهد في خلب الرئاسة، هو اشد من الورع الذي يصدر عن الزهد في المال، لان المال قد يبذل في خلب الرئاسة. والزهد هو أول الورع، إذ إن من لم يعتد على الزهد في خلب اللذات لا يمكنه التواصل مع الورع. ويرى الإمام عبد القادر، ان الورع يمثل شرخاً أساسياً للنجاة في الدنيا والآخرة، والا فان من ترك الورع، فان الهلاك سيلازمه حتماً، الا ان يتغمده ربه برحمته.(2) أي ان العبد، اذا ما احتكم إلى ميزان العدل الإلهي، فان تركه الورع سيؤدي به حتماً إلى الهلاك، لأنه سيقترف بهذا الترك، إحدى المعاصي لا محالة، ومن هنا، جاء الإمام عبد القادر على ضرورة إن يكون الورع مصاحباً للسلوك الصوفي في مراحله كافة وللإنسان الاعتيادي في أخواره المختلفة .

وللتمثيل على تطبيق قواعد الورع، في الحياة العملية، يذكر الإمام عبد القادر، الطعام واللباس امثلة يتجلى فيها الاخذ بمبدأ الورع، بشكل ملحوظ. ففي الطعام يكون الناس على ثلاثة اضرب: متقٍ وولي محق، وبدل عارف. فحلال المتقي فيما ليس للخلق عليه تبعة ولا للشرع عليه مطالبة، وهو ما تعارف عليه الناس بالاكل الحلال. وخعام الولي المحق الذي هو الزاهد الزائل الهوى، ممّا ليس فيه للهوى موضع، بل هو إئتمار بامره تعالى ، وخعام البدل الذي هو العارف، المفعول فيه، زائل الإرادة، كرة القدر. وهو مما لم تكن فيه همّة ولا إرادة، بل فضل كله من الله تعالى ، يرزقه ويحفظه ويربيه بمقدرته الشاملة ومنّته العامة ومشيئته النافذة، كالطفل الرضيع في حجر أمّه الشفيقة. على ان من لم يتحقق بالمقام الأول لا يصل إلى الثاني، ومن لم يتحقق بالمقام الثاني، لا

---

(2) الجيلي - فتوح الغيب- هامش بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص82.

يصل إلى الثالث. وعلى أساس هذه المراتب، فان طعام التقي(1) يعدّ شبهة في حق زائل الهوى وطعام زائل الهوى يعد شبهة في حق زائل الإرادة والهمة وكما قيل، فان سيئات المقربين هي حسنات الابرار، وان الحلال المطلق هو الذي لا يعصى الله تعالى به ولا بشيء فيه، وهذا لا يتحقق الا للانبياء فقط.(2)

اما في اللباس، فان الناس فيه على ثلاثة اضرب ايضاً، فلباس الاتقياء هو عينه الحلال المتقدم ذكره، سواء اكان كتّاناً ام قطناً ام صوفاً، ام غير ذلك ولباس الأولياء هو ما وقع به الامر، وهو ادنى ما تستر به العورة وتدعو اليه الضرورة ويتحقق به زوال الاهوية، واما لباس الابدال، فممّا جاء به القدر، ثميناً كان ام زهيداً، ولكن مع شرط حفظ الحدود.(3) اذن، فليس التخشن في المأكل والملبس هو المطلوب في السلوك الصوفي، بل ان المطلوب، هو تخليص كل ما يتعلق به الإنسان أو يتناولة، من الاهواء والعلائق والشبهات ، فامّا ان تمكن الخير والصلاح من نفسه ، فلاباس عليه بعد ذلك فيما تناول من الطيبات ، اذن ، فليس هذا من الرهبانية في شيء ، وانما هو دعم لأنسانية الإنسان وتوسيع لمساحة حريته ، فالشخص الذي لا تاسره الأهواء ولا تستعبده الحاجات هو حتماً اكثر انسانيةً من سواه .

شروط صحة الورع

واخيراً، فان المريد، عند الإمام عبد القادر، لا يكون ورعاً، الا بعد ان يستوفي عشر خصال فريضة على نفسه : وهي حفظ اللسان من الغيبة والاجتناب عن سوء الظن والثالثة تجنب السخرية، والرابعة غض البصر عن المحارم والخامسة صدق اللسان والسادسة ان يعرف منّة الله تعالى عليه لكيلا يعجب بنفسه والسابعة ان ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل والثامنة، ان لا يطلب لنفسه العلو والكبر، والتاسعة، المحافظة على الصلوات الخمسة في مواقيتها، بركوعها وسجودها،

---

(1) التقوى عند الإمام عبد القادر تتوزع على ثلاثة اوجه : تقوى العامة في ترك الشرك بالحق و تقوى الخاصة في ترك الهوى و المعاصي و مخالفة النفس في سائر الاحوال و تقوى خاصة الخاصة من الأولياء في ترك الأرادات في الأشياء والتخير في النوافل من العبادات والتعلق بالاسباب و الركون إلى ما سوى المولى ، بل لزوم الحال و المقام و امتثال الأمر في جميع ذلك مع أحكام الفرائض وتقوى الأنبياء (ع) أن لا يتجاوزهم غيب في شيء فهم من الله وإلى الله ، يامرهم وينهاهم ويوفقهم . ويستدل على التقوى بثلاث : بحسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر على ما قد فات . وان من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف و المشاهدة ـ بهجة الأسرار و معن الأنوار ـ ص65-66

(2) الجيلي ـ الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل ـ ج/2 ـ ص596

(3) الشطنوفي ـ بهجة الأسرار و معن الأنوار ـ ص66

والعاشرة، الأستقامة على السنّة والجماعة (1) والإمام عبد القادر، يدعم جميع هذه الخصال، بايات قرانية، ليؤكد الترابط البالغ بين جناحي الايمان : الشريعة و الحقيقة، علماً أن هذه الخصال التي لابّد للمريد من أن يتحلى بها، هي في حقيقتها، خصال أساسية، لابّد على كل مسلم من أن يسعى إلى نيلها والتحلي بها، فهي من بدائه الايمان التي لا يمكن أن يختلف عليها اثنان .

ثانياً ـ مقام التوكل :ـ

التوكل بايسر و أوضح معانيه، يعني الثقة بما عند الله تعالى ، والياس ممّا في أيدي الناس. (2) والتوكل هو المقام الثاني بعد التوبة، على أن كثيراً من مشايخ الصوفية يرى فيه المقام الأول، لما له من تاثير بالغ في تقويم السلوك الصوفي لدى المريد، فهو بالتوكل، يستطيع التقرّب من مولاه عز و جل، وذلك بانسلاخه عن حوله وقوته و عن جميع الخلائق، وهو بالتوكل، يستطيع أن يتقوى على ازالة الكثير من الصفات السيئة. الأصل في التوكل، هو قوله تعالى : ((وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين)) (3) ويبدو الربط واضحاً في هذه الآية، بين التوكل و الأيمان، و كذلك ورد التوكل في قوله تعالى : ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)).(1) وتدل هذه الآية على كفاية المتوكلين بربهم عن كل من سواه. وأمّا في الحديث الشريف، فقد ورد قوله (صلى الله عليه وسلم): ((لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)). (2) وكذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) من ضمن حديث طويل: ((من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله)).(3) وأما تعريف التوكل عند شيوخ التصوف، فقد عرّفه ذو النون المصري(ت245هـ) بانه: ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة.(4)

والتوكل عند حمدون القصّار (ت-270هـ) هو الاعتصام بالله عز وجل.(5) وعند سهل بن عبد الله التستري(ت 283هـ) هو: الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.(6) واما عند الجنيد

---

(1) الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل- ج/2-ص600.

(2) الجرجاني- التعريفات-ص74.

(3) سورة المائدة- اية/23.

(1) سورة الطلاق- اية/3.

(2) رواه احمد في مسنده- المغني عن حمل الاسفار-ج/4- ص239.

(3) حديث ابن عباس- رواه الحاكم والبيهقي- المغني عن حمل الاسفار- ج/4-ص239.

(4) الطوسي- اللمع- ص49.

(5) الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل-ج/3-ص1339.

(ت-297هـ) فهو: ان تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه.(7) ويمكننا ان نلاحظ، ان ما جاء به كبار المتصوفة عن التوكل، يتفق تماماً مع ما جاء في الكتاب والسنة، والذي مفاده اجمالاً ان التوكل هو ثقة العبد بما في يد ربه وعدم ثقته بما في يديه أو في ايدي الناس، وكذلك فالتوكل هو سرّ قوة العبد المؤمن، الحقيقية، وامّا ما عداه، فوهم وخداع.

التوكل عند الإمام عبد القادر

وأما عند الإمام عبد القادر، فيمكننا ان نفهم التوكل من خلال التعريفات الأربعة التي عرّفه بها وهي: اولاً- التوكل هو ترك الأسباب والأرباب والخروج من الحول والقوة، من حيث القلب والسرّ وخلب المسبب وحده، مع خروج القلب عن التعلق بالخلائق، على ان كل ذلك، يجب ان يكون مصحوباً بالمعرفة بالله عز وجل والعلم به. وأما ثانياً، فالتوكل يعني: تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي عن ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير، بحيث يقطع العبد، ان لا تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته وما لم يقدّر له لا يناله، فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه فياخذ بعدئذٍ من مولاه.(1) وفي التعريف الثالث يعني التوكل: اشتغال السرّ بالله عن غير الله، فينسى ما يتوكل عليه لأجله، ويستغني به عمن سواه، فترفع عنه حشمة الغنى في التوكل. وأخيرا، فالتوكل هو: استشراف السرّ بملاحظة عين المعرفة إلى خفيّ غيب المقدورات، واعتقاده، حقيقة اليقين، بمعاني مذاهب المعرفة، فانها محتومة لا يقدح فيها مناقص.(2) انتهى. فاذا ما تتبعنا هذه التعريفات، لوجدنا. انها تدور على أربعة محاور هي: الأيمان بحتمية تقسيم الأقوات والأرزاق والحظوظ، مع التيقن بان ما كان للعبد لا يكون لغيره، وما كان لغيره لا يكون له أبداً. ثم تفويض الأمور إلى الله تعالى مع ترك الاختيار والتجرد عن الإرادة، ثم ترك التعلق بالخلق وحصره بالخالق فقط. ثم أخيرا: تعويد السرّ على الاشتغال بالله تعالى والاستغناء به عن سواه. وهذه(المحاور) هي مما يطمح إلى الاعتقاد والعمل به، كل المؤمنين، السالكين منهم أم غير السالكين، والإمام عبد القادر، وان صاغ هذه التعريفات الأربعة، بلغة صوفية ملحوظة، الا انه في الوقت نفسه، حافظ على ثوابته المنهجية، اذ جعل من كلا المطلبين، الشرعي والصوفي، مطلباً واحداً، وهو ما يمكن ان نسميه بـ (التوحيد) أي التوحيد الحالي الذي

---

(6) الطوسي- اللمع- ص49.

(7) الجيلي - المصدر نفسه- ج/3-ص1340.

(1) الجيلي - المصدر نفسه-ج/3-ص1337.

(2) الشطنوفي- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص122.

يتلبس في قلب وعقل وروح المريد بعد خول مراس نفسي ومعرفي وبعد مكابدات ورياضيات لا يصبر عليها الا الخلصّ من العباد.

درجات التوكل

وعند الإمام عبد القادر فان مقام التوكل، لا يتحقق دفعة واحدة وعلى الوتيرة ذاتها، بل هو يتوزع على ثلاث دفعات وفي وتيرة تصاعدية، تبدأ بالتوكل ثم التسليم ثم أخيرا التفويض. المتوكل يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه تعالى بحاله وصاحب التفويض يرضى بحكمه تعالى فيه وفي غيره، وعليه فان التوكل يُعدُّ صفة للعوام وهو البداية والتسليم هو صفة الخواص وهو الوسط والتفويض هو صفة خواص الخواص وهو نهاية المطاف في هذا المقام.(3)

وتجدر الاشارة هنا، إلى ان التوكل بكونه صفةً للعوام، لا يعني انه توكلٌ على كمال الحقيقة، لانه لو كان كذلك ، فانه سيغدو تفويضاً، وهذا ليس من فعل العوام، ويضرب الإمام عبد القادرلنا مثلاً عن التوكل على كمال الحقيقة بقصة نبي الله إبراهيم(عليه السلام) مع جبريل(عليه السلام)وذلك حين ساله الأخير أثناء إلقاء إبراهيم(عليه السلام)في النار: ألك حاجة ؟ قال: أما أليك فلا. وما أجاب الخليل(عليه السلام)بهذا الجواب لأنه غابت نفسه حتى لم يبق لها اثر، فلم يرَ مع الله تعالى غيره.(1) كذلك فكون التوكل صفة للعوام فهذا لا يعني انه يقع خارج دائرة السلوك الصوفي، بل هو يعدّ المرحلة الأولى فيه، ولكن هذا التوكل ذاته يترقى فيصبح تسليماً ثم تفويضاً ، وإننا لو دققنا النظر في (مراتب) التوكل الثلاثة تلك، أي التوكل والتسليم والتفويض، لوجدنا انها جميعهاً لها علاقة بإرادة الإنسان، فالمتوكل يؤجل العمل بإرادته، وبخاصةً ما يتعلق منها بإعمال الباطن، وأما صاحب التسليم فانه يجمّد العمل بإرادته، معتمداً بدلاً من ذلك على أرادته تعالى ، وأما صاحب التفويض فانه يمحق إرادته بالكلية، بحيث لا يبقى له مع إرادته تعالى ، قصداً أو فعل أو رغبة، وهو حال الفناء الوجودي الذي سياتي الكلام عنه فيما بعد.

التوكل والتواكل

ولحرص الإمام عبد القادر، على اظهار معالم نظريته الصوفية، بصورة مقبولة من (الأطراف) كافة، فانه عمل على إزالة اللبس الحاصل في أذهان الناس، بيّن التوكل بكونه سلوكاً صوفياً ايجابياً،

(3) الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل-ج/3-ص1338.

(1)الجيلي - المصدر نفسه-ج/3-ص1338.

والتوكـل او(التواكـل) بكونـه سـلوكاً اجتماعيـاً سـلبياً مرفوضـاً، ولعـل مصـدر هـذا اللـبس الاكثـر خطـورة، هـو التعـارض الظـاهري القـائم بـين التوكـل كنظريـة وبينـه كتطبيـق، ومـا يلحـق هـذا التعـارض مـن تقـاطع مـع قصـد الكسـب، الـدنيوي والأخـروي، وكـذلك السـعي لطلـب الـرزق وأداء الأعمـال اليوميـة أو إدامـة العمران بوجه عام.

يـرى الإمـام عبـد القـادر، إن الحركـة بالظـاهر، الـتي هـي الكسـب بالسـنة، والـتي عمـل بهـا الـنبي محمـد (صـلى الله عليـه وسـلم)، إذ اشـتغل واكـل مـن كسـب يديـه، وهـو علـى مـا كـان عليـه مـن مقـامٍ رفيـع ودرجـة قريبـة مـن ربـه تعـالى ، لا تتنـافى أبـدا مـع توكـل القلـب، الـذي هـو تحقيـق الأيمـان، وهـو معنـى قـول الـنبي(صـلى الله عليـه وسـلم): (إعقلـها وتوكـل).(2) فالتوكـل الصـحيح، يعـني التصـديق بوعـد الله تعـالى ، الـذي وعـد بـه عبـاده بـالرزق والعطـاء والحفـظ والثـواب، وهـذا التصـديق، يُعـدّ شـرطاً أساسـياً مـن شـروط إيمـان العبـد، وهـو ممـا لا يتعـارض والأخـذ بالكسـب، لان مـن أنكـر الكسـب فقـد أنكـر السـنة، ومـن أنكـر التوكـل فقـد أنكـر الأيمـان.(1) ولأنـه لا وجـود لأي تعـارض بـين حقيقـة الأيمـان ومفردات السنة، بل بالعكس، فالاثنان في توافق مطلق إن لم يكونا في اتحاد.

إن العبـد الـذي يشـتغل بالـدنيا، مـع اتكالـه علـى حولـه وقوتـه، تنقطـع بـه الأسـباب حتمـاً، فيتعـب ويسـخط، وكـذلك الامـر عنـد مـن يشـتغل بـالآخرة ويجعـل منهـا همـةّ المطلـق، فانهـا سـتفوته وتعجـزه، فهـو في الحقيقـة، لم يعطهـا حقّهـا، ولم يسـتوف لهـا شـروخها، فامّـا اذا مـا اشـتغل بـالحق عـز وجـل، وتوجـه لـه وحـده دون سـواه، فانـه يكـون قـد اسـتفتح بـاب المعـاش بيـد قوتـه تعـالى والتوكـل عليـه، واسـتفتح بـاب الطاعـات بيد هديـه وتوفيقـه، فـاذا مـا وصـل المريـد إلى هـذا المقـام، أي مقـام خلبـه تعـالى ، فليطلـب منـه مـا شـاء أن يطلـب، علـى أن يكـون أخـص مطالبـه هـو: الصـدق في خلـب قوتـه ومعونتـه، لأجل ان تثبت اقدام قلبه وسره بين يدي ربه تعالى ، مع فراغ القلب من شغل الدنيا والآخرة.(2)

علـى انـه لا وجـود للخطـا، في نظـر الإمـام عبـد القـادر، فيمـا لـو اعتقـد العبـد بالتوكـل وفي الوقـت نفسـه اخـذ بالأسـباب، ثـم تعسـرَّ عليـه الامـر بعـد ذلـك، أو تقطّعـت بـه الأسـباب، لان ذلـك هـو مـن تقـدير الله عـز وجـل، فكمـا ان بيـده تعـالى تيسـير الأمـور وتهيئـة الأسـباب، فكـذلك بيـده تعسـيرها

(2) روي عن انس بن مالك(رض): انه جاء رجل على ناقة له فقال: يا رسول الله ادعها واتوكل ؟ فقال(ص): إعقلها وتوكل. رواه الترمذي. انظر المغني عن حمل الاسفار-ج/4-ص272.

(1) يلاحظ هنا، ان الإمام عبد القادر، يلّوح بعصا المروق لكلا الفريقين، للصوفي المتواكل الذي يرفض الكسب والعمل بالاسباب جملةً وتفصيلاً، وللفقيه المتشنج الذي يرفض التوكل متذرعاً باساءة فهمه.

(2) الجيلي - جلاء الخاخر من كلام الإمام عبد القادر- ص44

وتضـييقها، علـى انـه لا بـدّ مـن ان يكـون المريـد، في كـلا الحـالين، ثابـت الجنـان، رضـيّ الـنفس، لان وضـعه الصـحيح هـو في ان تكـون ظـواهره متحركـة بالسـبب بـامر الله تعـالى وباخنـه سـاكن لوعـده تعـالى . وعنـد هـذه النقطـة يكـون المريـد، قـد بلـغ درجـة التوكـل الصـحيح، الـذي هـو الثقـة بمـا في يـد الله عـز وجـل واليـاس ممّـا في ايـدي الخلـق، فيفـرغ السـرّ بعـد هـذا الاعتقـاد، ويسـكن عـن التفكّـر للتقاضـي في خلـب الـرزق.(3) ويلاحـظ هنـا، ان الـذي يفـرغ عـن التفكّـر هـو القلـب والسـرّ ولـيس الهمـة والعزيمـة. ولا بـدّ مـن التـذكير هنـا، بـان الإمـام عبـد القـادر بازالتـه الحـواجز الوهميـة الفاصـلة بـين حقلـي التوكـل علـى الله تعـالى والأخـذ بالاسـباب الدنيويـة، فانـه أزال أو حـلّ إشـكالاً مستعصـياً خالمـا تـذرع بـه خصـوم التصـوف فنعتـوا المتصـوفة، بـالمتواكلين والكسـالى والهـروبين، وبـانهم ضـد اعمـار المجتمعـات. ان الصـورة الـتي يقدمها لنا الإمام عبد القادر عن التصـوف، تؤكد على ضرورة السعي والعمل والأخذ باسباب

العـيش والحيـاة الماديـة، ولكـن شـرط ان يـتم ذلـك تحـت مظلـة التوكـل علـى الله تعـالى ، وهنـا تتاكـد امامنـا، مـرة آخـرى، حقيقـة مـنهج الإمـام عبـد القـادر، الصـوفي، الـذي يتبنـى فيـه الخـط الوسـط، متجنبـاً الافـراط والتفـريط، فـلا انغمـاس في الاسـباب والمسـببات، مـع تغافـل قـدرة البـاري تعـالى والتغافـل عـن محدوديـة القـدرة البشـرية، ولا الاغـراق في الانسـحاب مـن الحيـاة الـدنيا والتكاسـل عـن عمل اية وظيفة، تحت ذريعة التوكل على الله تعالى والتفرغ لعبادته.

الكسب والتكسب

وغـير التعـارض بـين التوكـل والتواكـل، فـان الإمـام عبـد القـادر، يضـعنا امـام تعـارض آخـر، وهـو التعـارض القـائم بـين الكسـب والتكسـب. الكسـب، هـو الفعـل الايجـابي، وهـو مـن السـنة ويسـميه الإمـام عبـد القـادر بــ (الكسـب الحـلال)، وامّـا التكسـب، فهـو سـلبي دنيـوي، لأنـه إتكـال مطلـق علـى الأسـباب الماديـة، مـن خلـق وصـنائع، وهـو مـا يعـدّه الإمـام عبـد القـادر، نوعـاً مـن انـواع الشـرك الخفـي الـذي يقطـع صاحبه عن الأكل بواسطة الكسب الحلال.

انـه شـرك، لان العامـل بـه، يظـن انـه يرجـع اليـه ويـاكل بـه ويتوكـل عليـه، ولـذا فهـو يحتـاج إلى توبـة كـي يعـود بعـدها، فـيرى ان الله تعـالى ، هـو الـرازق وهـو المسـبب وهـو المسـهّل وهـو المقـوي علـى الكسـب والموفـق لكـل خـير. وان الـرزق بيـده كلـه، فتـارةً يواصـل بـه بطريـق بعـض خلقـه ابـتلاءً لهـم وعلـى وجـه المسـالة، أو عنـد الإلحـاف عليـه بالـدعاء، وأخـرى بطريـق الكسـب معاوضـةً، وأخـرى مـن فضـله مبـادأةً ومـن غـير نظـر إلى واسـطة أو سـبب. فـاذا مـا بلـغ المريـد إلى هـذا المقـام، فيسـكون عنـدها قـد رجـع

(3) الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل-ج/3-ص1345.

إلى ربه ومثل بين يديه، ((فرفع الحجاب بينه وبين فضله، وباداه وغذاه بفضله على قدر ما يوافق حاله، كفعل الطبيب الشفيق، حمايةً منه عز وجل وتنزيهاً له عن الميل إلى من هو سواه)).[1]
وعلى هذا الأساس، فانه يمكن القول: ان جميع الأعمال التي يؤدّيها الإنسان، سواءً الدنيوية منها ام الآخروية، لا بدَّ ان تقاس بمقياس علاقة العبد بربِّه، لانه حتى العمل الجسدي والكسب لاجل العيش يمكن، فيما لو فُهمت خطا، ان تودي بصاحبها إلى شرك يخفى عليه. وعليه، فان الاعتقاد الصحيح، يؤدي حتماً إلى التوحيد الحق، وان العبد الذي يستشعر قوة ربّه وقدرته وفعله وتصرفه في جميع ما يؤتيه من أفعال، هو حتماً أكثر الناس توحيداً لربه.

ان المريد، ما دام يخالط قلبه شيء من الدنيا والخلق، فهو بعيد حتماً عن الاخذ بالتوكل الصحيح لأنه سيكون خاضعاً لتاثير مدح الناس وذمّهم، وسيكون حبيس نفسه وهواه وخبعه، وسوف لا ينال مبتغاه، ولا يتشرب قلبه بالتوكل الحق، إلا إذا قطع عن قلبه كل شكل من أشكال، الارادات والشهوات وانواع المطلوبات، فلا يبقى بعدها في قلبه سوى إرادته عز وجل، وعندها فقط ((سيسوق اليه أقسامه التي لا بدّ من أخذها)).[1] إذن فالتوكل لا يعطلّ الحظوظ ولا يمنع الأقسام وإنما هو فقط يضعها في موضعها الصحيح.

التوكل والإخلاص

وكما افضى مقام التوبة، بعد أن استوفى شروخه، إلى الورع، فكذلك مقام التوكل يفضي إلى الإخلاص ، و الإمام عبد القادر يرى، ان حقيقة التوكل ليست ببعيدة أصلا عن حقيقة الإخلاص وتلك مقاربة كان الإمام عبد القادر رائداً في الفات النظر إليها، اذ لطالما عُدّ الإخلاص مقاماً مستقلاً قائماً بذاته[2] . ان حقيقة التوكل التي تتمثل بالخروج عن الحول والقوة مع السكون إلى الله تعالى ، هي نفسها حقيقة الإخلاص التي تتمثل بارتفاع الهمّة عن خلب الاعواض على الاعمال والتاكيد على اعمال القلوب وتقديمها على اعمال الجوارح، يكون العمل بغير مواخاة القلب، لا يجدي.[3] فاذا ما امتزج التوكل مع الإخلاص ، صار تسليماً، وسلم القلب من الاعتراض على مولاه عز وجل، عند

---

[1] الشطنوفي- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص38.

(1) الشطنوفي- المصدر نفسه- ص38.

(2) جاء في الرسالة القشيرية، ان الأخلاص هو: إفراد الحقّ تعالى في الطاعة بالقصد، وهو ان يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى، دون شيء آخر من تصنع مخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس والأخلاص ايضاً هو: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وايضاً، الأخلاص هو التوقي عن ملاحظة الاشخاص. انظر- القشيري- ص162.

(3) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني- ص81.

نـزول البلايـا والاقـدار، فـالاعتراض مـوت للـدين مـوت للتوحيـد مـوت للتوكـل مـوت للاخـلاص، لان الـدين هو التوحيد والتوحيد هو التوكل والتوكل هو الإخلاص .

ان الغايـة مـن سـلوك الطريـق الصـوفي الصـعب، ومـن تحمـل اعبائـه ومكابـدة مشـقاته، تتمثـل في طلـب القـرب مـن المـولى تعـالى ، وتحقيـق اعلـى درجـات التوحيـد، ونيـل اعلـى مراتـب العبوديـة الحقّـة، سواء في العبادات أو في الاعتقادات أو في الاعمـال. ولذلك كان اتكال الإنـسان على الخلق وعلى

الاسـباب، بشـكل مطلـق، يمثـل في نظـر الصـوفية، عـاملاً أساسـياً مـن عوامـل انحجـاب العبـد عـن خالقـه ولـذلك ايضـاً كـان التوكـل الحـق علـى الله عـز وجـل، وصـدق الالتجـاء اليـه، يُعـدّ بشـكل مـن الاشـكال توحيـداً صـحيحاً. ولطالما ذُكر عن الإمام عبد القادر، انـه كانـت لـه حالـة دائمـة مـع الله عـز وجـل، تتمثـل في تـرك الاختيـار وسـلب الإرادة، وهـو لطالمـا نصـح مريديـه، بـان يتمسـكوا بالتوكـل ويخرجـوا مـن التعلـق المفـرط بالاسـباب، ويقطعـوا عـن قلـوبهم كـل الاربـاب، وان يسـافروا بقلـوبهم عـن جميـع الاشـياء وان يغرقـوا في بحـر العلـم الالهـي، ((فـان مـن وصـل إلى هـذا المقـام، فـلا تضـره الاسـباب لانهـا تكـون علـى ظـاهره، لا علـى باطنـه، تكـون لغـيره لا لـه)).[1] وعليـه، يمكـن القـول، ان الاصـل عنـد الإمـام عبـد القـادر، هـو البـاطن، فهـو موضـع العلـم والاعتقـاد والايمـان، ومـن كـان باطنـه موحِـداً لله تعـالى متـوكلاً عليـه، فـلا بـاس عليـه، بعـد ذلـك، اذا مـا عمـل بالظـاهر مـن الاسـباب، وعمـل بمـا يعمـل بـه الناس.

ثالثاً- مقام الشكر:

جـاء في التعريفـات، ان الشـكر هـو: عبـارة عـن معـروف يقابـل النعمـه، سـواءً اكـان باللسـان ام بالبـدن ام بالقلـب، وقيـل: هـو الثنـاء علـى المحسـن، بـذكر احسـانه، فالعبـد يشـكر الله تعـالى ، أي يـثني عليـه، بـذكر احسـانه الـذي هـو نعمتـه. والشـكر اللغـوي هـو الوصـف بالجميـل علـى جهـة التعظـيم والتبجيـل علـى النعمـة مـن اللسـان والجنـان والاركـان، والشـكر العـرفي، هـو صـرف العبـد جميـع مـا انعـم الله عليـه مـن السـمع والبصـر وغيرهمـا، إلى مـا خلـق لاجلـه.[2] وممـا سـبق، يمكننـا ان نلخـص، إلى ان الشـكر هـو الثنـاء علـى المـنعم لنعمـه، وهـو يكـون بالقلـب واللسـان والجـوارح، وان مـن احسـن مـا يشـكر بـه العبـد مولاه، هو ان لا يستخدم نعمه فيما يغضبه.

مشروعية الشكر ومعناه

(1) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني- ص41.

(2) الجرجاني- التعريفات- ص133.

وامّا الشكر عند الإمام عبد القادر، فهو، كعادته، يبدأ اولاً من الكتاب والسنةّ، فامّا في الكتاب فاصل الشكر فيه، قوله تعالى : " ولئن شكرتم لازيدنكم".[1] ، واما في السنة، فحديث الرسول(صلى الله عليه وسلم)، الذي تسبقه القصة المعروفة والذي جاء فيه قوله (صلى الله عليه وسلم) " افلا اكون عبداً شكوراً".[2]

اما اول معاني الشكر عنده، فهو: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ومشاهدة المنّة وحفظ الحرمة، ولا يكون ذلك باللسان فقط، وانما بالقلب والجوارح ايضاً وبالقول والفعل، وبالسرّ والعلن. وكل ذلك، لا بدّ من ان يرافقه العجز عن الشكر، وعلى هذا المعنى، وصف الله تعالى نفسه، بانه الشكور، توسعاً. الشكر اذن، على وفق هذا التعريف، هو علاقة تربط بين طرفين غير متكافئين احدهما معطٍ بشكل مطلق، والآخر متلقٍ بشكل مطلق، ولكن الطرف المتلقي، يمتاز بانه يمكنه من أن يظهر شكره أو يكتمه، ولذلك يسمى الإمام عبد القادر، الشكر اعترافاً، على أن هذا الأعتراف لابد من أن يكون مصحوباً بالخضوع، فالشكر مع التعالي و الأستغناء لا ياخذ معناه الحقيقي، بل انه قد ياخذ معنىً معاكساً تماماً، ثم مع الخضوع، لابدّ من أن تتحقق مشاهدة النعمة، أي بمعنى أن يشكر الشاكر، والنعمة ماثلة امام ناظريه، كي يكون شكره حياً وحقيقياً، ثم لابدّ ايضاً من حفظ الحرمة، أي أن لا تحمل النعمة العبد، على البطر و الأشر، بل يكون دائماً منضوياً تحت حيّز عبوديته، متذكراً لفقره إلى مولاه، ثم الشعور بالعجز عن اتيان الشكر حقه، أو تقديم الثناء الجدير بالمنعم. وبمجموع هذه الأركان، فان الشكر، رغم بساطته الظاهرة، فانه يعدّ من اصعب العبادات بحيث ان الله تعالى وحده، يمكن أن ينطبق عليه وصف الشكور على الحقيقة، واما الشاكرون من الخلق، فانهم شاكرون على وجه المجاز.[3]

ان حقيقة الشكر، أو معناه التعاملي، كما يحدده الإمام عبد القادر، هو: الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فشكر العبد لله تعالى ، يعني ثناؤه عليه، بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد، يعني ثناؤه عليه بذكر إحسانه له، غير ان إحسان العبد يختلف عن إحسان مولاه عز وجل، اذ ان إحسان العبد يتمثل في طاعته لربه، و امّا احسان الحق تعالى ، فهو انعامه على العبد. هذا مع ملاحظة: ان شكر العبد على الحقيقة انما يتمثل في نطق اللسان واقرار القلب بانعام الربّ معاً.

(1)سورة ابراهيم- اية/7.

(2)رواه ابن حيان- المغني عن حمل الاسفار- ج/4- ص79.

(3) في هذا المعنى، يذكر الإمام عبد القادر، دعاء نبي الله داود (ع):الهي كيف اشكرك و شكري لك نعمة من نعمك ؟فاوحى الله تعالى اليه : الان قد شكرتني ـ انظر ـ الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل ـ ج/3ص1351.

[1] أي ان الشكر عند الإمام عبد القادر، لا يتم الا ان يكون صادراً من اللسان و القلب في وقت واحد، وكونه من القلب، فهذا يعني انه صادر من سائر البدن، لان القلب في عرف الصوفية هو المهيمن والمتامر على سائر البدن.

اقسام الشكر

اذن فالشكر يقع على ثلاثة أقسام : شكر باللسان و شكر بالبدن و الأركان وشكر بالقلب، فامّا الشكر باللسان، فهو اعتراف العبد بالنعمة بنعت الأستكانة، أي الأعتراف بالنعمة على انها من عند الله عز و جل، و ترك الأضافة إلى الغير، سواء أكان هذا الغير هو ذات العبد أم حوله و قوته أم كسبه أم سائر الخلق، اذ ان كل هذه الأغيار ما هي في حقيقتها الا أدوات و الآت، و قد جرت بواسطتها النعم، وفي الحقيقة فان القاسم و المجري و الموجد و الشاغل و المسبب، هو الله تعالى فهو أحقّ بالشكر من سواه، وان ((من نظر إلى الظاهر و السبب، و لم يجاوز علمه و معرفته، فهو الجاهل الناقص، قاصر العقل، و انما سمي العاقل عاقلاً لنظره في العواقب)) [2] و نلاحظ هنا، أن الإمام عبد القادر، يعطي للعقل معنىً دينياً أخلاقياً، وهو المعنى ذاته الذي نعت لأجله العرب قبل الأسلام ب (الجاهليين)، فالعقل على وفق هذا المنظور، هو الأداة التي تصل بالإنسان، إلى معرفة ربّه و معرفة سبل الخير و الصلاح .

أما الشكر بالبدن و الأركان، فهو الأتصاف بالوقار و الخدمة، و يتم ذلك، بان يحرك العبد جوارحه، و يوظفها في طاعة الله تعالى دون غيره من الخلق، وأيضاً، أن لا يجيب أحداً من الخلق، لما فيه اعراض عن الخالق عز و جلّ، و هذا يشمل النفس و الهوى و الإرادة والأماني، و سائر ما وضع الله تعالى في البشر، ان هذا الشكر، بمستواه الثاني، يتحقق، بان يجعل العبد، طاعة ربه تعالى ، أصلاً و متبوعاً و اماماً، و أمّا ما سواها، فيجعله فرعاً و تابعاً و ماموماً. و هنا يلفت الإمام عبد القادر، النظر إلى ان الشكر على النعم المادية، لا يكون بصيغة واحدة فقط، بل هو يختلف باختلاف النعم وتنوعها، فشكر نعمة المال، مثلاً، تستوفى بالأعتراف بها للمنعم، و هو الله تعالى ، والتحدث بها لنفسه في سائر الأحوال، مع رؤية فضله و منّته وايضاً أن لا يتملك العبد على ماله، ولا يتجاوز حده فيه، و لا يترك حدود الشرع فيه، ثم بعد ذلك، و هو الأهم، يؤدي حقوقه و يراعي واجباته. فامّا شكر نعمة العافية فيكون بالأستعانة بالجوارح على الطاعات و الكف عن أذى الخلق، واجتناب المحارم والسيئآت والمعاصي

(1)الجيلي المصدر نفسه ـ ج/3 ـ ص1349

(2) الجيلي ـ فتوح الغيب ـ هامش كتاب ـ بهجة الأسرار و معدن الأنوار ص59

والآثام.[1] اذن فالجوارح التي وضعها الله تعالى في الإنسان، وصوّرها في احسن صورة ومنحها أكفا القدرات، يمكن للعبد من ان يستعملها فيما يغضب مولاه تعالى ، و ذلك بان يسرق بيده، و يسعى برجله إلى مواطن السوء، و ينظر بعينيه إلى محارم الله، ويمكنه من باب آخر وهو باب الشكر، ان يستعملها فيما يرضي مولاه تعالى ، و ذلك بان يحجم عن كل ما سبق ويقدم بها على أعمال الخير.

الشكر بالقلب، يعرّفه الإمام عبد القادر ، تعريفاً، هو أقرب من سابقية، إلى خصوصية اللغة الصوفية و مفرداتها . انّه الأعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة، ثم الترقي، بعد حضور هذه المشاهدة إلى الغيبة في رؤية المنعم عن رؤية النعمة . و يتبين لنا من هذا التعريف، أن شكر القلب، يختلف عن غيره من أنواع الشكر، بانه لايتم الا مع حال المشاهدة والفناء، فهو إذن ياتي، في مراحل متاخرة من مراتب السلوك الصوفي. ومن شروط صحّة هذا الشكر، أنه لابد من أن يبقى حاضراً في القلب، و بشكل مستمر و متصاعد، حتى يبلغ إلى حال يمكن أن نسميه بحال الفناء في الشكر، حيث يغيب الشاكر عن رؤية النعمة و يفنى في المنعم، فلا يهمه بعد ذلك، أأعطى أم منع .

و الشكر بالقلب، قوامه الأعتماد الدائم والعقد الوثيق، بان جميع ما في العبد من النعم الظاهرة والباطنة، هو من لدن الله تعالى لا من غيره، و في هذه الحالة يكون شكر اللسان معبراً عما في القلب من حقيقة : أن لا منعم سوى الله تعالى [2] . فلا شكر حقيقياً في القلب الا أن يكون مقروناً باعتقاد صحيح مفاده : أن لا نافع ولا ضار ولا فاعل على الحقيقة، الأ الله تعالى .

أصناف الشكر

ويصنّف الإمام عبد القادر، الشكر، تصنيفاً آخر، وفقاً لمراتب العباد اللذين يصدر عنهم الشكر. وهو يقع أيضاً على ثلاثة أصناف وهي : شكر العاملين و شكر العابدين و شكر العارفين . أما شكر العاملين، و هم سواد المؤمنين، فيكون من جملة أقوالهم، أي أنهم يقصرون شكرهم على اللسان فقط، و هو أولى درجات الشكر. وإمّا شكر العابدين، فهو نوع من أفعالهم، اذ هم تجاوزا مرحلة القول إلى الفعل، فتراهم يحرصون ان يكون شكرهم مصحوباً بذكر الجوارح والسعيّ لأتيان أعمال البرّ و الخير. ثم اخيراً شكر العارفين، و هؤلاء، يتم شكرهم باستقامتهم لربهم عز وجل في عموم أحوالهم - أي في السرّاء و الضرّاء، و في السرّ والعلن -

(1) االجيلي ـ - فتوح الغيب ـ هامش بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص113

(2)الجيلي – المصدر نفسه - ص130.

واعتقادهم بان جميع ما هم فيه من الخير والنعمة، و ما يظهر منهم من الطاعة و العبودية والذكر، هو في الحقيقة لله تعالى ، اذ هو يحصل بتوفيقه وانعامه وعونه وحوله وقوته، بينما هم معزولون عن جميع ذلك بفنائهم في الله تعالى ، مع اعترافهم بالعجز والقصور والاستكانة والفقر اليه في جميع الاحوال.[1] وكما يبدو، بوضوح، فان شكر العارفين، قد اشتمل على مراتب الفعل الصوفي برمتّه، من الاستقامة والطاعة والعبودية الحقة والذكر والعزلة والتوكل والرضا والفناء. ولعل هذه الميزة، هي من اهم الميزات التي يمكن ان نراها في المقامات الصوفية عند الإمام عبد القادر، اذ ان المقام الواحد، يشتمل على فروع جميع المقامات السابقة وبذور جميع المقامات اللاحقة.

درجات الشكر والشاكرين

يرى الإمام عبد القادر، ان الشكر على الشكر، يمثل اعلى درجات الشكر، لان العبد بهذا الشكر ((يرى ان شكره هو بتوفيقه، ويكون ذلك التوفيق من اجلً النعم عليه، فيشكره على الشكر ثم يشكره على شكر الشكر، إلى ما لا يتناهى)).[2] واذا كان الشكر على الشكر، يمثل اعلى درجات الشكر، فان العبد الشكور، هو افضل الشاكرين، فالشاكر هو الذي يشكر على النفع بينما الشكور هو من يشكر على النفع والضر على الموجود والمفقود، على البذل والمنع لانه لا يطلب شيئاً منه ربِّه بهواه وارادته فهو فارغ القلب عن الشهوات غير راغب فيها، انع في امتثال دائم لامر ربِّه حتى في السؤال، وهذا الامتثال جعله لا يطلب ولا يشتهي ولا يتمنى الا القرب من ربه تعالى ومن كان هذا مطلبه الاوحد، فانه حتماً ستهون في عينيه جميع المطلوبات، وسيكون سيان لديه أن عمّه النفع ام مسّه الضر، فكلاهما صادرٌ من منبع واحد الذي هو مطلوبه الاوحد.

الشكر والحمد

(1)الجيلي - الغنية لطلبي خريق الحق عز وجل-ج/3-ص1350.

(2) الجيلي - المصدر نفسه- ج/3 - ص1350.

واخيراً، فان الشكر يفضي إلى الحمد[1] والشكور يطمع لان يكون حامداً، والحامد هو الذي يشهد المنع عطاً والضر نفعاً، ثم يستوي عنده الوصفان، ورأس الحمد هو الذي يستنفذ المحامد كلها، غائباً عن ذاته، بشهود الكمال وبوصف الجمال وبنعت الجلال و بعين المعرفة وعلى بساط القرب، وصاحب هذه الدرجة من الحمد، هو الذي يحمد الله تعالى ، بمحامد لا يعلمها، الا ان يعلّمها ربه تعالى له الهاماً، وهذا مقام خاص لا يكون من بين كل البشر وفي كل الازمان الا للنبي محمد(صلى الله عليه وسلم)، وذلك حين يحمل لواء الحمد[2] يوم القيامة متقدماً أُمة الحمّادين. وعليه فان الحمد هو اعلى المراتب التي يمكن ان يبلغها الشاكر، ولا يمكن للسالك من ان ينال صفة الحمد الا بعد ان يبلغ خواتيم الطريق الصوفي، فلا حمد قبل الشهود ولا حمد قبل المعرفة ولا حمد قبل القرب.

رابعاً- مقام الصبر :-

يرى صاحب(العوارف): ان حقيقة الصبر كائنة في التوبة، كينونة المراقبة في التوبة، والصبر من اعزّ مقامات الموقنين، وهو داخل في حقيقة التوبة.[3] وجاء في (التعريفات): ان الصبر هو ترك الشكوى من الم البلوى لغير الله لا إلى الله، فالعبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه، لا يقدح ذلك في صبره، ولئلا يكون كالمقاومة مع الله تعالى .[4]

مشروعية الصبر وتعريفه

الاصل في الصبر، هو قوله تعالى :"يا ايها الذين امنوا، اصبروا و صابروا ورابطو واتقوا الله لعلّكم تفلحون".[1] وقوله تعالى : " وإصبر وما صبرك الا بالله ".[2] و قوله (صلى الله عليه وسلم):"ان الله تعالى اذا أحبّ عبداً ابتلاه و اذا ابتلاه صبّره " [3] و سئل ذو النون المصري عن

---

(1)الحمد: هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها، والحمد الحالي هو الذي يكون بحسب الروح والقلب، كالاتصاف بالكمالات، العلمية والعملية والتخلّق بالاخلاق الالهية والحمد العرفي، هو فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعماً.-الجرجاني- التعريفات- ص1351.

(2) الجيلي - الغنية لطلبي خريق الحق عز وجل-ج/3-33.ص1351.

(3)السهرودي – عوارف المعارف- ص480.

(4) الجرجاني- التعريفات- ص136.

(1) سورة ال عمران-اية/200.

(2)سورة النحل- اية/127. علماً انه وردت لفظة الصبر واحد مفرداتها في مائة وثلاث ايات من القران الكريم.

(3) روي عن علي ابن أبي خالب(ع) - في المغني عن حمل الأسفار ج/4ص280.

الصبر، فقال: هو التباعد عن المخالفات، و السكون عند تجرع غصص البليه و اظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة .[4] و قال الجنيد البغدادي : السير من الدنيا إلى الآخرة سهم هيّن على المؤمن، و هجران الخلق في جنب الحق شديد، و السير من النفس إلى الله صعب شديد، و الصبر مع الله اشدّ . وسئل أيضاً عن الصبر فقال : تجرع المرارة من غير تعبيس.[5]

الصبر عند الإمام عبد القادر

الصبر في تعريف الإمام عبد القادر، هو: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، و الثبات مع الله عز وجل، و تلقي مرّ أقضيته بالرحب و السعة، و على أحكام الكتاب و السنة .[6] و هذا التعريف يفترض عدة أركان : أولها أن الصبر لا يكون الا مع حالات البلاء، فلا صبر مع رخاء أو نعمة أو عطاء، ثم، يفترض مع الصبر على البلاء، حسن الأدب، فالجزع مثلاً، يذهب بمعنى الصبر، ثم لابدّ مع الصبر، من الثبات مع الله تعالى و عدم اللجوء إلى غيره وقت الشدّة وأيضاً لابدّ من تلقي مرّ القضاء، بالرحب و السعة، لأن المرء قد يصبر على مضض، وهو ما يذهب بمعنى الصبر أيضاً. و أخيراً، لابدّ من أن يكون فعل الصبر، و ما يلحقه و ما يسبقه، يجري على أحكام الشريعة الأسلامية، أي أن لا يخرج الصبر، صاحبه، عن حدود الله تعالى .

والصبر أيضاً، يعني: اظهار الغنى مع حلول الفقر من غير تعبيس، بحيث يكون الفقر سراً بين العبد وربّه، وبحيث يكون العبد في أعسر أحواله، وهو يبدو أمام الناس في حالة غنى و رخاء وسعادة عظمى .

ولأهمية مقام الصبر، و لصعوبة التحقق به، فان الإمام عبد القادر يقول: أنه لا يظفر بما عند الله عز وجل - و ما عنده واسع و عظيم - الا بالصبر، و لهذا أكدّ سبحانه وتعالى عليه في كثير من آيات كتابه الكريم، وأن الفقر و الصبر، لا يجتمعان الا في حق المؤمن.[1] وذلك لشدة وخاة الفقر على النفس، و لصعوبة الأستمرار على الصبر، و ليس شيئاً غير الايمان يجمع بينهما، لأن الأيمان هو الذي يطمئن قلب العبد، بان كل ما يصيبه و يلقاه، هو من عنده تعالى وبامره و ارادته، و لذلك فان المؤمن يتقبله بقبول حسن .

---

(4) الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل - ج/3ص1356.

(5) الجيلي - المصدر نفسه - ج/3 ص1355.

(6) الشطنوفي - بهجة الأسرار معدن الأنوار - ص123.

(1) الجيلي - الفتح الرباني و الفيض الرحماني - ص17.

و لرقي مقام الصبر، و صعوبة التحقق به، عده الإمام عبد القادر، من ضمن صفات الأنبياء والأولياء و الصالحين، وهو في هذا، يستند إلى قوله (صلى الله عليه وسلم) : "أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل" .[2] و ان الذي ينتظر العبد من المكآفآت من جرّاء صبره، لا يحصيه الا قوله تعالى : " انما يوفّى الصابرون أجرهم بغيرحساب "[3] و لذلك، فان على المريد ان يصبر على صبره، و يتم له ذلك، بان لا يستعجل الفرج، و ان يرضى بالقضاء وان يوطن نفسه على تجرع مرّ البلاء، فان اعتاد ذلك وتلبس به، فسيناله برد عفو ربه تعالى و لطفه وكرمه ومنّه.[4]

ان الصبر، هو عماد الدين وأصل الأيمان، و هو كما قال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) : "الصبر من الأيمان كالرأس من الجسد".[5] و الرأس هو الأهم و هو المقدم و غيره تبع له، وهو معنى ما يذهب اليه الإمام عبد القادر قوله: ان الصبر هو المرتقى الذي يرتقي منه المؤمن إلى حالة الرضا والموافقة والفناء في افعال الله تعالى .[6] ولعل اقتران مقام الصبر، بالمكابدات والمعاناة هو ما منحه الاهمية والتقدم على بقية المقامات، وايضاً، فانه لا يمكن تصور الصبر، الا مقروناً بالفقر والبلاء والشدائد والمصائب، فهي وسطه الأمثل الذي يترعرع فيه.

درجات الصبر

ان حال مقام الصبر، هو كحال بقية المقامات عند الإمام عبد القادر، فهو ايضاً، متعدد الاضرب والاقسام والمستويات. إنه يقع أولاً على ثلاثة اضرب: صبر لله وصبر مع الله وصبر على الله تعالى .

الصبر لله عز وجل: هو الصبر الذي يتصف به كثير من المؤمنين، طلباً لتحصيل الاجر والثواب، وهذا الصبر يكون على طاعة اوامره تعالى والانتهاء عن نواهيه، فالنفس مجبولة على حبّ الشهوات ونيل اللذات، من أي مصدر صدرت، بينما تشتمل العبادات والطاعات على مخالفةٍ لهوى النفوس وميلها، وهذه المخالفات، يحتاج معها العبد، إلى كثير من الصبر، كي تصبح لنفسه طبعاً جديداً وسلوكاً مستفاداً.

(2) المغني عن حمل الأسفار ج/4ص281.

(3) سورة الزمر- آية/10 .

(4) الجيلي - فتوح الغيب - ص170.

(5) عن علي ابن طالب (ع) –الجامع الصغير- ج/2- ص80.

(6) التادفي- قلائد الجواهر في مناقب الإمام عبد القادر- ص72.

الضرب الثاني، هو الصبر مع الله عز وجل، وهو اشدّ على النفس وخاةً من سابقه، لتعلقه بالشدائد والبلايا التي يُمتحن بها العبد من اجل تحصيل الدرجات الروحية ونيل المراتب الآخروية. إنه الصبر تحت جريان قضائه وافعاله تعالى ، في العبد من سائر البلايا والشدائد وهذا الصبر، حقيقته التقوى التي يعرّفها الإمام عبد القادر، بانها: فعل ما أمرك الله عز وجل بفعله وترك ما أمرك بتركه، والصبر على أفعاله ومقدراته وسائر بلاياه وأفاته.[1]

الضرب الأصعب والأشد على النفس، هو صبر على الله عز وجل، والركون إلى وعده في كل

شيء.[1] وهذا اللون من الصبر يخص الأولياء المقربين دون سواهم، لأنه صبر على فُرقة المحبوب ومكابدة الشوق إليه، وهو أيضاً صبر على إحتمال وجود الولي مع الخلق وبعده عن خالقه، وهو أيضاً صبر على ما وعد الله تعالى به عباده من اللقاء وحسن المآب. إن المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمنين، ولكن هجران الخلق في جنب الحق، شديد عليهم، وأما المسير من النفس إلى الله عز وجل فهو أشدّ، لأن فيه خرقاً للمعتاد وتغيراً لطباع النفس، وأمّا الصبر مع الله تعالى فهو الأشدّ من كل ما سبق، لأنه لا منجى منه إلا إليه. فإذا ما إجتمع الفقر مع الصبر، كانا أفضل من إجتماع الغنى مع الشكر، لأن الإجتماع الأول مقرون بالمكابدة والمشقة، والفقر مع الشكر أفضل منهما، لأنه جمع بين الحسنيين، الصبر والشكر والفقير الصابر الشاكر أفضلهم جميعا، لأنه حاز الفضل كله.[2]

مراتب الصابرين

وشان الصابرين مثل شان الشاكرين، فهم أيضاً يتوزعون على ثلاث مراتب: متصبر وصابر وصبّار. المتصبر منهم هو الذي يسعى لأن يكون صابراً، مع شدة المكابدة والتالم والجهد البالغ

---

[1] الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص240. علماً أن للشيخ عبد القادر تقسيماً آخر للصبر، يحاكي به (الضربين) الأول والثاني مع تغيير في إستخدام المسميات، فهو يقسم الصبر إلى: صبر على ما هو كسب للعبد، وهو الصبر على ما أمر الله به عز وجل والإنتهاء عما نهى عنه، وهو مما يلتحق بالضرب الأول. والقسم الثاني هو الصبر على ما ليس بكسب للعبد، وهو صبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى وقضائه، فيما له فيه مشقة وألم في القلب والجسد، وهذا الصبر يلتحق بالضرب الثاني، أي الصبر مع الله عز وجل – أنظر الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – ج/ 3 - ص1355.

(1) وفي هذا المعنى، يذكر الإمام عبد القادر، قصة الرجل الذي وقف على الشبلي (ت – 334هـ) وساله: أي الصبر أشدّ على الصابرين؟ قال الشبلي ألصبر في الله، فقال: لا فقال: الصبر لله، قال: لا قال : الصبر مع الله، قال: لا، قال: فما هو؟ قال: الصبر على الله. فصرخ الشبلي صرخة كادت تتلف معها روحه. الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني - ج/3 – ص1355.

(2) الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص123.

في تحمّل عبْ الصبر، فلا يمكن للصبر أن يكون عادةً للصابر، بل هو يجاهد كي يعتاد عليه أما الصابر، فهو الذي تمكن من تحمل الألم وتجاوز الشدائد، فصار في حالة تمكن من الصبر، وهذا الأعتياد لا يقلل من أجره شيئاً، وإنما هو، فقط يُخفف من عذاباته، لأنه يتخذ من الصبر وسيلة للتقرب إلى الله تعالى . وأمّا الصبّار، فهو الذي صبر، حتى صار الصبر له طبعاً وسلوكاً، وهو أعلى مراتب الصبر، و لا يناله إلا الأولياء المقربون، ويشترط في هذا الصبر، أن يكون مقروناً بحسن الأدب ورحابة الصدر، بحيث لا يبدو منه شكوى أو تذمر. وغاية ما يبلغه الصابر في ذلك، هو عدم تفضيله أو حتى تفريقه، بين حالتي النعمة والمحنة، وأن يكون خاطره ساكناً مع كليهما. وهذا ما يميز الصبر من التصبر، الذي هو السكون مع البلاء ولكن ((مع وجدان

أثقال المحنة)).[1] الصبر إذن بهذا المستوى، يقترب كثيرا من مقام الرضا ومقام الفناء، لأن أي أمر ياتي فيه من المحبوب، سواء أكان أبتلاء أم إنعاما، فانه لا يغيّر من الأمر شئ، وكذلك هو فعل العاشقين.

إن الصبر، هو مفتاح الخلاص من آفات النفس، وهذا يكون في بداية الطريق فقط، إذ يصّبر المريد نفسه عن أتيان المحرمات والآثام، ويصبّرها كذلك على أداء أمر الله عز وجل والأنتهاء عن نهيه، ويصبّرها أيضا على الموافقة لقدره تعالى ، فهو إذن بوظيفته تلك، يعدُّ وسيلة من وسائل مجاهدة النفس ورياضتها وتحويل مجرى أهوائها، نحو أصول الخير والصلاح. أما في نهاية الطريق، فان الصبر هو الذي يبلغ بالعبد إلى درجة القرب من مولاه تعالى ، وذلك لقوله تعالى : (إن الله مع الصابرين).[2] إن القوم صبروا مع الله عز وجل، ولم يصبروا عنه، فلا صبر لهم عن الله تعالى ، لأنه هو مطلبهم الأوحد ومبتغاهم الذي لا يحيدون عنه، صبروا له وفيه، صبروا ليكونوا معه، طلبوا ليحصلوا القرب منه، وكانوا قبل ذلك قد ((خرجوا من بيوت نفوسهم وأهويتهم وطباعهم وأستصحبوا الشرع معهم، وساروا إلى ربهم عز وجل، فاستقبلتهم الآفات والأهوال والمصائب، فلم يبالوا بها، ولم يرجعوا عن سيرهم، ولا يزالون

(1) الجيلي – الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – ج/3 – ص1357.
(2) سورة البقرة – آية / 153.

كـذلك حتـى يغـير خلقهـم وحتـى يتحقـق لهـم بقـاء القلـب والقالـب)).[3] وهـذا هـو مـا يسـميه الإمـام عبد القادر، بقلب الدولة.

البلايـا والمصـائب، إذن، فيمـا لـو فهمـت مـن كـلام الإمـام عبـد القـادر، فانهـا لا تمثـل إلا معوقـات مفتعلـة، وضـعت في طريـق السـالكين، لتميـز الصـادق مـنهم مـن عدمـه، فهـي إذن في حقيقتهـا أمـر خـارق مقصـود، لـو فهمـه المريـد فانـه سـيقوى علـى أحتمالـه، ومـن الجهـة الآخـرى، فـان هـذ العقبـات، تشـكل عوامـل مسـاعدة فعالـة علـى تجـاوز الصـفات السـيئة ونيـل أضـدادها مـن أجـل بقـاء القلب ونقاء القالب.

الصبر والشكـــــــــر

لا فكـاك عـن الصـبر في حيـاة المريـد، فهـو يلازمـه، منـذ بـاكورة سـلوكه الصـوفي وحتـى منتهـاه، في مسـاوقة مسـتمرة مـع رديفـه الشـكر، وهمـا كلاهمـا، أي الصـبر والشـكر، يـورث المريـد، في سـجال متصـل، كـلاً مـن حـالي الخـوف والرجـاء والقـبض والبسـط والجـلال والجمـال، فـإذا مـا أقلـق الخـوف مـن النـار قلـب المريـد، وقـضَّ مضـجعه وتمكـن منـه، بحيـث صـار لـه حاجبـاً يحجبـه عـن مـولاه، انـزل الله تعـالى عليـه السـكينة مـن مـاء رحمتـه ولطفـه، فـإذا مـا سـكن وأخمـان، فـتح لـه بـاب الجـلال، فتهيـب وتقطـع قلبـه وكثـر خوفـه، فـإذا تمكـن منـه ذلـك فـتح بـاب الجمـال، فسـكن وأخمـان ((وهـي خبقـات شـئ بعـد شـئ))[1] علـى أن هـذا التعاقـب بـين الخـوف والرجـاء، لا يكـون بـلا هـدف أو نهايـة، بـل هـو يتـوإلى علـى قلـب المريـد كـي يحفـزه باسـتمرار علـى المضـي قـدماً نحـو بلـوغ مرامـه وقربه من مولاه .

خامساً – مقام الرضا :-

الرضـا: هـو سـرور القلـب بمـر القضـاء.[2] والراضـي بـالله تعـالى ، هـو الـذي لا يعـترض علـى تقـديره، ولا يرضـى العبـد عـن الحـق تعـالى ، إلا أن يرضـى عنـه الحـق عـز وجـل أولاً.[3] الأصـل في الرضـا، هـو قولـه تعـالى :((رضـي الله عـنهم ورضـوا عنـه)) .[4] وقولـه تعـالى :((يبشـرهم ربهـم برحمـة منـه

(3) الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص107.

(1) الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص15

(2) الجرجاني – التعريفات – ص116. علماً أن هذا التعريف ينسب لذنون المصري.

(3) القشيري – الرسالة القشيرية – ص151

(4) سورة المائدة – أية /119

ورضـوان)).[5] وفي الحـديث الشـريف، ورد قولـه(صـلى الله عليـه وسـلم):(ذاق طعـم الإيمـان مـن رضي بالله عز وجل، رباً).[6]

وحين سالت رابعـة العدوية : متـى يكـون العبـد راضـياً بالقضـاء ؟ قالـت : إذا سـرّ بالمصـيبة كمـا يسـر بالنعمـة . وقـال ذو النـون المصـري: ثلاثـة مـن علامـات الرضـا: تـرك الإختيـار قبـل القضـاء وفقـدان المـرارة بعـد القضـاء، وهيجـان الحـب في حشـو الـبلاء .[1] وسـئل الجنيـد البغـدادي عـن الرضـا، فقـال : الرضـا رفع الأختيار.[2]

تعريـــف الرضا عند الإمام عبد القادر

الإمـام عبـد القـادر، مـن جهتـه، يضـع للرضـا، أربعـة تعريفـات، تشـكل في مجموعهـا، المعنـى الإجمـالي الـذي يريـد أن يوصـله لنـا عـن هـذا المقـام، وهـذه التعريفـات هـي: أولاً: الرضـا هـو ارتفـاع الـتردد والاكتفـاء بمـا سـبق في علـم الله عـز وجـل في أزلـه. والرضـا: هـو أن لا يصـرف القلـب إلى نـزول قضـاء مـن الاقضـية بعينـه، فـإذا نـزل قضـاء، فـلا يستشـرف القلـب إلى زوالـه.[3] والرضـا هـو إخـراج الكراهيـة مـن القلـب، حتـى لا يبقـى إلا فـرح وسـرور. وأخـيراً فـان الراضـي: هـو الـذي لا يعـترض علـى تقـدير الله عـز وجـل، حتـى انـه لـو جعلـت جهـنم عـن يمينـه مـا سـال أن يحولهـا إلى يسـاره.[4] إن هـذه التعريفـات الأربعـة تـدلنا علـى أن الرضـا، مثلـه في ذلـك مثـل الصـبر، لا يتخـذ معنـاه الحقيقـي، إلا عنـد نـزول البلايـا والمحـن، ويشـترط في الرضـا، ثبـات القلـب، لثقتـه بسـابق علـم الله تعـالى ، فـإذا مـا وضـع العبـد في موضـع، مهمـا بلغـت درجـة دناءتـه، فـلا يتمنـى التحـول عنـه، ومـا يتميـز بـه الرضـا عـن عمـوم الصـبر، هـو أنـه يجـب أن يكـون مقرنـاً بطمانينـة القلـب وسـروره والمعنـى النهـائي للرضا، هو انه عدم الاعتراض على الله تعالى .

أمـا تفصـيل قـول الإمـام عبـد القـادر في الرضـا، فهـو مـا يـاتي: أن المـؤمن الصـادق، حقيـق عليـه أن يرضـى بمـا قسـم الله تعـالى لـه، وان يعتقـد، مطمئنـاً، أن قضـاءه تعـالى ، خـيرلـه، حتمـاً مـن قضـائه لنفسـه، إن صـح لـه القضـاء، ولعـل قضـاءه تعـالى للإنسـان فيمـا يكـره، خـيرلـه ممـا قضـى لـه

(5) سورة التوبة – أية /21
(6) رواه أحمد ومسلم والترمذي – الجامع الصغير – ج / 2 – ص29
(1) الجيلي – الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – ج / 3 – ص 1360
(2) الطوسي – اللمع – ص50
(3) الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص124
(4) الجيلي – المصدر نفسه – ج/3 – ص1360

فيما يحبّ، وعليه فلا مناص أمام العبد إلا الرضا، لأنه لا يعلم ما فيه صلاح دينه ودنياه، ((لأن الله عز وجل، نحوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر والانتهاء عن المناهي والتسليم في المقدور، والرضا بالقضاء، فيما لهم وعليهم في الجملة، وإستاثر هو، بالعواقب والمصالح، فينبغي للعبد، أن يديم الطاعة لمولاه، ويرضى بما قسم له ولا يتهمه في قسمته)).[1]

وإن من الرضا في السلوك الصوفي، أن لا يطلب المريد، حالاً أو مقاماً، غير الذي هو ماثل فيه، سواء أكان أعلى منه أم أدنى، نعم هو يطمع بالترقي، ولكنه لا يترقى اختياراً، ولا يخفى ما يتضمنه هذا الفعل من راحة عظمى وسلام داخلي وفير، ولعل من نافلة القول، وهو في الوقت نفسه، ليس من قبيل الدفاع المتعصب عن النهج الصوفي، أن نشير، إلى أن تبني المريد للرضا لا يتعارض مع سعيه وطموحه، ولا يُسقط عنه الكسب والتكليف، إذ يكفي المريد طموحا، أنه أختار التصوف منهجا في الحياة، ويكفيه تمسكا بالتكليف أنه يتحرى دقائق الذنوب وخفايا الشبهات، كي يتجنبها. إن ما يفعله الرضا للمريد، هو أنه يجنبه الأشتغال بكل ما يقع خارج نطاق قدرته وفعله، من الأقسام والخطوط والأقدار، كي يتفرغ بعدها لما يهمّه حقا من العمل على تاديب نفسه وتجلية مرآة قلبه، وهذه هي وظيفته الحقيقية التي نذر نفسه لها.

الرضا راحة القلـــــب

إن الراحة مقرونة بلواء الرضا، غير أن التعب والشقاء، مقرونان بالمنازعة وعدم الرضا، وإن تعب العبد، يكون على قدر منازعته وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء، وإن كل من رضي بالقضاء، إستراح، وكل من لم يرضى به، طال شقاؤه، وهو في الوقت نفسه، لا ياخذ من دنياه إلا ما قُسم له. أن العبد ((مادام لهواه متبعا، فهو غير راضٍ بالقضاء لأن الهوى منازع للحق عز وجل، فتعبه متكاتف متزايد، وإن أستجلاب الراحة في مخالفة الهوى، لأن الرضا بالقضاء بـ(لابدَّ) وإستجلاب التعب والنصب في موافقة الهوى لأن في منازعة الحق عز وجل بـ(لابدّ)، فلا كان الهوى، وإذ كان فلاكناّ)) .[2] وهذا النص، يصف الرضا وصفاً دقيقاً، ويصف الضرر الذي يلحق بالعبد، فيما لو تخلى عنه. إن القدر، هو القدر، (لابدّ) منه، ولا يمكن لأي مخلوق أن يدفعه أو ينفكَّ عنه، وأما من يفعل ذلك، فانه يفعل فعل ناطح الصخر، إن الذي يسير مع تيار القدر، فانه اضافةً إلى رضا مولاه، يكسب القدرة على مخالفة هوى نفسه التي تميل إلى التمرد

---

[1] الجيلي – الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – ج/ 3 – ص1358

[2] الجيلي – المصدر نفسه – ج / 3 – ص1358

والمشاكسة وكما نلاحظ، فان أي مقام من المقامات الصوفية عند الإمام عبد القادر، يكون له دور مهم في كبح جماح النفس وترويضها، وهو معنى الوجود الحقيقي لأي إنسان، إن وجود الإنسان، مع مجاراة هوى نفسه، لا يمكن أن يكون إلا وجوداً زائفاً لا معنى حقيقياً له .

هل الرضا مقـــــام أم حال؟؟

يذكر الإمام عبد القادر، أن مقام الرضا، من بين كل المقامات، أختلف فيه أهل الطريقة، هل هو من الأحوال أم من المقامات؟ فالذين قالوا إن الرضا كسب للعبد، نسبوه إلى المقامات بينما قال من رأوا فيه موهبة خالصة من الله عز وجل، أنه من الأحوال، وصوفية أهل العراق، هم من قالوا هذا الرأي الأخير، حيث ذهبوا، إلى أن الرضا، لا يمكن عده كسباً للعبد، بل هو نازلة تحلّ بالقلب، كسائر الأحوال، ثم تحول وتزول وياتي غيرها . أما متصوفة خراسان، فقد رأوا، أن الرضا هو من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل أي أن الرضا هو ثمرة ما يتوصل أليه العبد باكتسابه، وهنا يكمن مصدر تفاوته عند الناس. الإمام عبد القادر، من جهته، يميل إلى الجمع بين الرأيين، إذ يمكن، في رأيه أن يعدَّ الرضا كسباً للعبد في بداية سلوكه فيكون له مقاماً، ثم بعد ذلك، أي بعد أن يتمكن باخن المريد من الرضا، ويثبته الله تعالى في قلبه، ويرضى عنه يصبح من جملة الأحوال التي هي ليست كسباً للعبد، بل موهبة خالصة من الله تعالى . أي أن المريد، إذا تمسك برضاه، ولم يحد عنه فان الله تعالى سيثبته في قلبه، فلا يغادره بعد ذلك أبداً .

أقسام الرضـــــا

يتخذ مقام الرضا، عند الإمام عبد القادر، مكانة متميزة، من بين المقامات، فهو يسميه، باب الله الأعظم وجنّة الدنيا، لأنه لا أعظم من رضا الله تعالى ، سواء في الدنيا أم في الآخرة، وإن من كسب رضا ربه، فقد فتحت له أبواب عطاياه، وهي عظيمة، والرضا هو جنة الدنيا، لأنه يورث الراحة والطمانينة والسلام، وهذه من خصائص الجنة. وأن من أكرم بالرضا، فقد قرّب ووصّل، وأن رضا العبد عن ربه، يدل على رضا ربه عنه، وهذه وثيقة أمان أكيدة وفيها أستشراف لمنازل الآخرة. ويقسم الإمام عبد القادر الرضا على قسمين، رضا به ورضا عنه، فالرضا به يتعلق بكون الله عز وجل، هو المدبر للكون وأما الرضا عنه، فهو ياتي من أن الله تعالى هو الحاكم وهو الفاصل .[1] وبالتاكيد ، فان الرضا به أيسر على القلب من الرضا عنه، لأن

---

[1] الجيلي – الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل – ج / 3 – ص1358

الأول يتعلـق بالأقـدار العامـة الـتي تخـصّ التـدبير الكـوني، وأمـا الثـاني فانـه متعلـق بالشـخص ذاتـه، وهو يشمل المحن والبلايا ، التي قد يصبر عليها الإنسان أو لا يصبر.

ينصـح الإمـام عبـد القـادر، مريديـه دائمـاً، بحفـظ الحـال والرضـا بـه، وأن يتركـوا التلفـت إلى مـا سـواه، فـلا يعـدم الشـئ أم الحـال، أن يكـون، إمـا قسـم العبـد أو قسـم غـيره، أو هـو غـير مقسـوم لأحـدٍ أصـلاً، بـل وجـد فتنـة للخلـق. فـإن كـان للعبـد فيـه نصـيب، فهـو واصـل إليـه، شـاء أم أبـى.[2] فـلا ينبغـي أن يظهـر منـه سـوء الادب والشـره في طلبـه لأن ذلـك لـيس مـن العقـل ولا مـن العلـم في شئ وأمـا إن كـان قسـم غـيره، فهـو لـن يطالـه حتمـاً مهمـا فعـل، وأمـا إن كـان الأحتمـال الثالـث، أي لا لـه ولا لغـيره، بـل هـو فتنـة، فمـا مـن عاقـل يسـتجلب الفتنـة علـى نفسـه، وعليـه، ينصـح الإمـام عبـد القـادر، مريـده فيقـول: ((لاتاخـذ بـك – أي باختيـارك وإرادتـك وهـواك – حتـى تـؤمر، ولا تعـطِ بـك حتـى تـؤمر، ولا تتحـرك بـك ولا تسـكن بـك فتبتلـى بـك، وبمـن هـو شـرٌ منـك مـن الخلـق، لأنـك بـذلك تكـون ظالمـاً)).[3] العقـل والعلـم، إذن، همـا مـع الرضـا بقضـاء الله تعـالى ، وأمـا الهـوى والجهـل فهمـا مـع المخالفـة، ويمكـن لهـذا الـنص أن يـدلنا علـى أن تـرك الإرادة والأختيـار، هـو المطلـب الـدائم الـذي يرافـق المريـد، أبتـدأ مـن مقـام التوبـة، حتـى مقـام الفنـاء الوجـودي، مـرورا بالمقامـات الآخرى كافة.

ولا يقـف الرضـا، عنـد حـد السـكوت علـى مـا فـات مـن الخير وقبـول المقسـوم منـه، بـل هـو يتعـدى ذلـك، إلى القبـول بمـر البلايـا لأن مـن رضـيَ بـالله تعـالى ربـا، صـار لزامـا عليـه، أن يرضـى بكرمـه وبلائـه علـى حـد السـواء، لا بـل أنـه يوجـد مـن إذا وقعـت عليـه الرزيـة، رآهـا نعمـة وحمـد الله تعـالى عليهـا، علـى أن عـدم تفريقـه بـين النعمـة والمحنـة، يـاتي مـن أنشـغاله بـالمنعم عـن سـواه، وأن الـذي يشـتغل قلبـه بـالمنعم دون الـنعم، يكـون حتمـا في غيبوبـة عـن الـبلاء، فـلا يشـعر بـه، ومـن كـان هـذا فعلـه، فهـو حتمـا، الموحـد الحقيقـي والمحـب الحقيقـي، والفـاني عـن هـواه، والموجـود بربـه، فهو إذن الصوفي الحقيقي.

الرضا بين الطمع والورع

إن مـن يتوجـه بكـل همتـه إلى المـنعم دون سـواه، سـيكون قلبـه خاليـا، ضـرورةً مـن الطمـع، والإمـام عبـد القـادر، يحـذر مريديـه دائمـا، وينـبههم علـى أن الطمـع هـو عـدو الرضـا وخصـمه، لابـل

---

[2] نود التنبيه هنا، إلى أن الإمام عبد القادر، يخص بكلامه هذا، أمور الطريقة، دون بقية الأمور الدنوية الآخرى التي تخضع لغير تلك الأحكام والتي يكون لإرادة العبد وأختياره فيها يد طويلة.

[3] الجيلي – فتوح الغيب – على هامش بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص52.

إنـه لا يوجـد أمـر أضـر علـى المريـد وطالـب الحـق، وعلـى التجربـة الصـوفية عامـةً، مـن الطمـع، ومـا صـار الطمـع بهـذه الدرجـة مـن السـوء والتـاثير السـلبي، إلا لأنـه يمثـل، في حقيقتـه، نوعـا مـن أنـواع الشـرك بـالله عـز وجـل، لأن مـن طمـع في مخلـوق مثلـه، لا يملـك لنفسـه ضـرا ولا نفعـا، يكـون كانـه قـد نقـل مُلـك الملـك إلى مملوكـه، وتلـك خيانـة باديـة، وكـذلك فـان الطمـع لا يغـادر كونـه نقـص في أحـوال المريـد، لأن الطمـع لا يخطـر علـى قلـب مريـد، إلا ((لأجـل كمـال البعـد مـن الله عـز وجـل، حيـث طمـع في مخلـوق مثلـه، وهـو يـرى أن مـولاه، مطّلـع عليـه، ثـم لم يحجـزه الخـوف مـن ذلـك))[1] والـورع، هـو ضـد الطمـع، وإن مـن أخـص معـاني الـورع هنـا، هـو : أن ينسـب العبـد الأشـياء إلى مالكهـا الحقيقـي، فيطلبهـا منـه ولـيس مـن غـيره . وعليـه فـيمكن القـول : إن مـن يتصـف بـالورع سـينال الرضـا، ومـن يرضـى عـن ربـه ، فانـه حتمـاً سيصـبر علـى بلائـه، والصـابر هـو متوكـل ضـرورةً، ولا يتوكـل علـى الله حـق توكلـه، إلا العبـد الصـالح المـؤمن التائـب عـن ذنوبـه، وهكـذا يمكننـا أن نـرى بوضـوح، الترابـط العضـوي بـين المقامـات الصـوفية عنـد الإمـام عبـد القـادر، علـى الدرجـة الـتي لا يمكن معها الحديث عن مقام واحد دون التطرق إلى بقية المقامات .

سادساً – مقام الصدق :

الصـدق لغـةً، هـو مطابقـة الحكـم للواقـع، وفي اصـطلاح أهـل الحقيقـة، هـو قـول الحـق في مـواطن الهـلاك . وقيـل: الصـدق هـو أن تصـدق في موضـع لا ينجيـك منـه إلا الكـذب، وقيـل : الصـدق هـو : أن لا يكـون في أحوالـك شـوب، ولا في إعتقـادك ريـب، ولا في اعمالـك عيـب. والصـدّيق، هـو الـذي لم يـدع شـيئاً ممـا أظهـره باللسـان، إلا حققـه بقلبـه وعملـه .[2] وهـو أيضـاً المبالغـة في الصـدق، والـذي يكون الصدق هو الغالب عليه .

وعنـد القشـيري : الصـدق هـو عمـاد الأمـر كلـه – أي التصـوف – وبـه تمامـه وفيـه نظامـه وهـو تـالي درجـة بعـد النبـوه، لقولـه تعـالى : ((فاولئـك مـع الـذين أنعـم الله علـيهم مـن النبـيين والصـديقين)) .[1]) والصـادق: هـو الأسـم الـلازم مـن الصـدق، وأقـل الصـدق، إسـتواء السـرّ والعلانيـة، والصـادق مـن صـدق في أقوالـه، والصـديق مـن صـدق في جميـع أقوالـه وأفعالـه وأحوالـه . [2] وهـذا التعريـف الأخـير للصـدق، هـو الـذي يتبنـاه الإمـام عبـد القـادر، بتمامـه، ومـن غـير إضـافة أو حـذف .علـى أن

---

(1) الجيلي – الغنية لطالبي الحق عز وجل – ج/3 – ص1364

(2) الجرجاني – التعريفات – ص138

(1) سورة النساء – أية / 69

(2) القشيري – الرسالة القشيرية – ص164

الصوفية عنده، لا بد من أن يكونوا ، إما صادقين أو صديقين ، ولا شيء غير ذلك، وإن الذي يهمه منهما، هم الصديقون وحدهم، لأن مقام الصديقين، هو الذي تتحد فيه الأقوال والأفعال والأحوال على الصفة عينها، وهي صفة الصدق.[3]

تعريف الصدق عند الإمام عبد القادر

يورد الإمام عبد القادر، في الصدق ، [4] عدة أقوال، منها : إن من أراد أن يكون الله عز وجل

معه فليزم الصدق، فان الله عز وجل مع الصادقين . والصدق : هو القول بالحق في مواطن الهلكة، والصدق : هو موافقة السر بالنطق، أي موافقة اللسان للقلب، وهي أحسن الحالات التي يمكن أن يبلغها المريد، والصدق : منع الحرام من الشدق. والصدق الوفاء لله عز وجل بالعمل والصدق : هو صحة التوحيد مع القصد . وقيل : إنك إذا طلبت الله عز وجل بالصدق، أعطاك مرآة تنظر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة .[5] ويمكننا أن نلاحظ، من خلال جميع هذه الأقوال، أن الصدق عند الإمام عبد القادر، ليس كلاماً نظرياً ينتهي عند حدود اللسان، بل هو موقف عملي، أي فعل وسلوك، يسعى الإنسان، إلى الاتصاف به، من خلال إلتزامه، قولاً وفعلاً، ومن خلال التمسك به في مواطن يعافه فيه الناس. الصدق بهذا المنظور، هو الشجاعة عينها، وهو الورع، وهو التوحيد الحق وهو حب الله عز وجل وطلب القرب منه، والصدق أيضاً، هو الجهاد الذي قد ينال به العبد الشهادة. وكل ذلك يعد توضيحاً لقول الإمام عبد القادر: إن الصدق هو عماد الأمر (الصوفي) وبه تمامه، وإنه هو السبيل الوحيد للوصول إلى الله عز وجل والتقرب اليه، وإلا فكيف يتقرب العبد إلى مولاه بغير الصدق، وكما يقول الإمام عبد القادر : ((لولا الصدق لم يتقرب بشر إلى الله تعالى)).[1]

الصدق والإخـــــلاص

---

[3] للنظر في تعريف الإمام عبد القادر، للصدق، ومقارنة هذا التعريف بما ورد في الرسالة القشيرية – أنظر – الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – ج/3 – ص1366

[4] يرجع الإمام عبد القادر، في تاصيله للصدق، إلى قوله تعالى:((يا أيها الذين أمنوا، أتقوا الله وكونوا مع الصادقين)). التوبة/ 119 . وأما من الحديث الشريف، فيذكر قوله (ρ) : ((لا يزال العبد يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صدّيقاً، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)) عن المغني عن حمل الاسفار – ج/3 – ص131 .

[5] الجيلي - الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – ج / 3 – ص1366

[1] التادفي – قلائد الجواهر في مناقب الإمام عبد القادر – ص34.

والصدق عند الإمام عبد القادر، يفضي إلى الإخلاص ،[2] والإخلاص يفضي إلى الصدق، وفي الحقيقة، فان المعنى العرفي، يدقّ، إلى درجة الشفافية، بين مفهومي الصدق والإخلاص ، إلى حد أننا، لو أستبدلنا أسم أحدهما، مكان الآخر، فان ذلك لن يضير المعنى في شئ، ولا تبين هذه الحدود وتنفصل، إلا في المعاملات الصوفية، حيث يعطى لكل مفهوم معناه المحدد.

إن قلب المريد، يشبهه الإمام عبد القادر، بالحجر الأصم، الذي أذا ما ترك وشانه فانه لا يتحرك ولا يصدر عنه أي فعل، بينما أذا ضُرب، بعصا (موسى)[3] الإخلاص ، لتفجرت منه ينابيع العلم والحكم، ((فبجناح الإخلاص ، يطير العارف من ظلمة قفص الكون، إلى فسحة نور القدس، وينزل، بعد الطيران، في ظل روض مقعد صدق – وأن الطريق إلى الله عز وجل، لا يسافر فيه بغير زاد الصدق)).[4] ويبدو هذا النص، وكانه يضع لنا خطة عمل، لرحلة المريد، من الجسد إلى الروح ومن الأرض إلى السماء، فالإخلاص هو الذي يمنح المريد القدرة والعزيمة على مغادرة ظلمة أهوائه وخبائعه الرديئة، ويدفعه قدما نحو فسحة الأستقامة والصفاء الروحي والمعارف والحكم الإلهية المكنونة أصلا في قلبه، ثم أخيرا يملّكه زمام مقام الصدق، والإمام عبد القادر، يوقف زاد السالكين، حصرا على الصدق وحده. إذن فلا صدق من غير أخلاص، ولا أخلاص من غير صدق، ولا سلوك ولا وصول، من غير أخلاص وصدق.[1]

الصدق والتـــــوكل

ويربط الإمام عبد القادر، أيضا، بين مقامي الصدق والتوكل، والصدق عنده يعني باحد معانيه: التوكل الحق على الله عز وجل، إذ لا يخفى على ذي الدراية، ما للتوكل على الله عز

---

[2] الأخلاص في اللغة: ترك الرياء في الطاعات، وفي الأصطلاح: تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه، والأخلاص هو أن لا تطلب لعملك شاهدا غير الله تعالى، وقيل: الأخلاص تصفية الأعمال من الكدورات، وقيل: الأخلاص ستر بين العبد وربه، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله. والفرق بين الأخلاص والصدق، أن الصدق أصل وهو الأول والأخلاص فرع وهو تابع، وفرق آخر: الأخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل – أنظر الجرجاني – التعريفات – ص112.

[3] الأشارة هنا إلى قوله تعالى: (وأوحينا إلى موسى إذا أستسقه قومه، إن إضرب بعصاك الحجر، فانبجست منه أثنتا عشر عينا، قد علم كل أناس مشربهم) الأعراف / 160.

[4] الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص76.

[1] يروي الإمام عبد القادر، أنه في باكورة حياته، كانت خطوته الأولى في التصوف، مع الصدق وذلك في معرض أجابته على من ساله: علام بنيت أمرك؟ فقال: على الصدق، ما كذبت قط، ولا عندما كنت في المكتب، ثم يسرد بعد ذلك، قصة نجاته ونجاة القافلة التي ألتحق في ركابها من اللصوص، بصدقه الذي عاهد أمه عليه قبل أن يودعها، ثم توبة اللصوص على يديه بهذا الصدق. – حول تفصيل القصة – أنظر – الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص87.

وجـل مـن علاقـة حتميـة بالصـدق، وإنـه لا توكـل حقيقـي مـن دون صـدق كـافٍ، وأن أي خلـل في صـدق العبـد يعـني أن هنـاك خلـلا في توكلـه، وإن مـن أراد أن يبلـغ كمـال التوكـل، فـان عليـه، أن يـتقمص الصـدق كـاملا، أي في قولـه وفعلـه وحالـه واعتقـاده، لأن أي انسـان، لا يمكنـه أن يعتمـد أو يثـق، بـاي شـئ مـن الأشـياء، إلا إذا كـان صـادقا في احساسـه تجاهـه فكيـف الحـال مـع رب الخلـق الـذي لا يتقبل من عباده إلا ما حسن وخلص وصدق.

إن آفـات الـنفس البشـرية، كـثيرة جـدا، ولا يـتمكن مـن السـيطرة أو التغلـب عليهـا، إلا مـن صـدق مـن السـالكين، لأن الصـدق، إذا كـان يزيـد العبـد قربـا مـن مـولاه ويزيـده ابتعـادا عمـن سـواه، فإنـه سـيورثه حيـاءً عظيمـاً وحرجـاً لاحـد لـه، لمثولـه بـين يـدي ربِّـه تعـالى ، وهـو ملـيء بالنقـائص والآفـات والكـدورات، وعليـه، فانـه سـيزيد مـن المجاهـدات والأذكـار والعبـادات، وهولصـدقه، فانـه سـيحثّ الخطـى ويعجِّـل بالقـدوم علـى مـولاه، لأن ((مـن عامـل مـولاه بالصـدق والنصـاح، إسـتوحش ممـن سـواه)) [2]

وعليـه، فـإن الصـدق، يمكـن أن يُعـدّ، مـن بـين اكثـر الوسـائل الـتي تعـين المريـد علـى الفـلاح في سـلوكه الصـوفي، وإذا كـان الطمـع فيمـا في أيـدي النـاس، يعـد مـن بـين أصـعب الآفـات المُحبطـة في الطريق

فـان الصـادق، لا يسـعه، إلا أن يطمـع في ربـه عـز وجـل دون سـواه، وإذا كـان الكسـل وحـب الدعـة والتراخـي عـن مواصـلة الطريـق، يعـدّ آفـة آخـرى، فـان الصـادق معصـوم عـن هـذه أيضـاً، بصـدقه، إذ إن صـدقه في خلـب القـرب مـن ربـه تعـالى ، لا يـترك في قلبـه، أي شـاغل سـواه، ثـم أن المكافـآت والهبـات والكرامــات الالهيــه، الــتي يلقاهــا الســالكون في الطريــق، والــتي تشــغلهم، أحيانــاً عــن مطلــوبهم الحقيقـي، فانهـا أيضـاً لاتـؤثر في المريـد الصـادق الـذي لايفـرح إلا بلقـاء محبوبـه الأوحـد وكـذلك الحـال مـع بقيـة أنـواع الريـاء والشـرك الخفـي وجميـع الأهـواء والشـهوات وآفـات الـنفس الآخـرى، لأنـه حقـاً كمـا قيل:النجاة في الصدق وفي الصدق النجاة

سابعاً- مقام الفناء :-

ألفنـاء لغـة: هـو الـزوال والتلاشـي، وفي أصـطلاح الصـوفية يعـني:سـقوط الاوصـاف المذمومـة عـن العبـد، كمـا أن البقـاء، يعـني وجـود الأوصـاف المحمـودة فيـه، والعبـد لايخلـو مـن أحـد هـذين القسـمين،

---

[2] الشطنوفي- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار- ص76

فهـو أن لم يكـن أحـدهما، كـان الآخـر لامحالـة، لأن مـن فـني عـن أوصـافه المذمومـة ظهـرت عليـه الصـفات المحمـودة، ومـن غلبـت عليـه الصـفات المذمومـة، إسـتترت عنـه الصـفات المحمـودة0 هـذا النـوع مـن الفنـاء، يبلغـه السـالك، بكثـرة الرياضـة، أمـا النـوع الآخـر مـن الفنـاء، الـذي هـو عـدم الأحسـاس بعـالم الملـك والملكـوت، فهـو يـاتي بالاسـتغراق في عظمـة البـاري ومشـاهدة الحـق0 [1] ولإجـل هـذا النـوع الثـاني، عـدَّ الصـوفية، الفنـاء، شـكلا مـن أشـكال التوحيـد الـذوقي في مقابـل التوحيـد الأعتقـادي، الـذي هـو:إقـرار بوحدانيـة الله تعـالى ، والتوجـه اليـه وحـده، بـانواع العبـادات والقربـات إن التوحيـد الـذوقي، هـو:شـهود وإدراك قلـبي للمطلـق أو اللامتنـاهي، ويشـترط في هـذا الشـهود، نفـس مروضـة ذات درجـة عاليـة مـن الصـفاء وإحسـاس فـائق بـالمطلق، تـذوب معـه جميـع المتعينـات الفرديـة، بمـا فيهـا إنّيـة الـذات المشـاهدة، فاسـحة المجـال أمـام حـال المواجهةالشـهودية مـع تجليـات الحضـرة الإلهيـة وفي الحقيقـة، فـإن تقسـيم الفنـاء الصـوفي علـى(فنـاءين)، أخلاقـي وذوقـي، فيـه فائدةنظريـة، يـراد منهـا، تقريـب ألمفـاهيم الصـوفية إلى أذهـان النـاس، بينمـا في الواقـع، فـلا وجـود، في التصـوف الاسـلامي بوجـه خـاص، إلا إلى شـكل واحـد للفنـاء، وهـو الفنـاء الـذي يـتخلص مـن خلالـه المريـد مـن صـفاته الذميمه، فتزال عن نفسه الحجب الظلمانية، وتصبح مهياة لان تطالع تجليات الأنوار الإلهية.[2]

إن كـون الفنـاء مـن المقامـات الصـوفية، يعـني أنـه يستحصـل بالجهـد والرياضـات والعبـادات، الـتي مـن خلالهـا تـتخلص الـنفس مـن كـثير مـن صـفاتها وخبائعهـا الرديئـه، ولـذلك ألحـق الصـوفية الفنـاء بالبقـاء، فبعـد فنـاء الخلـق، لابـدّ مـن أن يبقـى الخـالق، وبعـد فنـاء الصـفات البشـرية لابـد مـن أن تبقـى الصـفات الإلهيـة إذن فالفنـاء في مفهـوم التصـوف الإسـلامي، لـيس محقـا، وإنمـا هـو وجـود جديـد يصـيب العبـد مـن خلالـه بعـض الكمـال المرجـو. وبهـذا المعنـى يقـول القشـيري: إن العبـد، إذا واظـب علـى تزكيـة أعمالـه، ببـذل وسـعه، مـنَّ الله تعـالى عليـه، بتصـفية أحوالـه، بـل بتوفيـة أحوالـه، فمـن تـرك مـذموم أفعالـه، يقـال: فـني عـن شـهواته، فـاذا فنـى عـن شـهواته، بقـي بنيتـه وأخلاصـه في عبوديتـه، ومـن زهـد في دنيـاه، بقلبـه، يقـال: فنـى عـن رغبتـه، فـاذا فـني عـن رغبتـه فيهـا – أي في الـدنيا – بصـدق أنابتـه وكـذلك الحـال لمـن يفنـى عـن تـوهم الآثـار مـن الأغيـار، فانـه يبقـى بصـفات الحـق، ومـن أسـتولى عليـه سـلطان الحقيقـة، حتـى لم يشـهد مـن الأغيـار، لا أثـرا ولا رسمـا ولا خـللا

---

[1] الجرجاني- التعريفات- ص176

[2] يعِّرف، د0 أبو العلا عفيفي الفناء بانه:حال تتوارى فيه آثار الإرادة والشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق،فيصبح الصوفي،وهو لايرى في الوجود غير الحق،ولايشعر بشيٍ في الوجود سوى الحق وفعله وارادته-أنظر- التصوف،الثورة الروحية في الاسلام0ص167 ويمكن القول،أن هذا التعريف ينطبق على حال وحدة الشهود،أكثر من أنطباقه على الفناء،الذي سيتبين لنا تعريفه الأكثر دقةً،من خلال مجريات البحث0

يقال: أنه فني عن الخلق وبقي بالحق. إذن ففناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة بعدم هذه الآفعال، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق، بزوال إحساسه بنفسه وبهم.[1] ولعل أقرب مثال يوضح هذا القول، هو، حالة فناء المريد في شيخه، في الطرق الصوفية، فالمريد لا يمكنه من أن يتخلى عن ذاته تماما فيكون هو الإمام عينه، ولكن يمكنه أن يتمثل حاله الإمام وصفاته من أجل تقريب المناسبة، ومن أجل أن يكون قلبه مرتبطا بقلب شيخه، كي يستمد منه بعض تجليات الأنوار الإلهية.

معنى الفناء عند الإمام عبد القادر

يرد الفناء، عند الإمام عبد القادر، بعدة معان، وهو يحاول، من خلالها دائما، أن يربط، بينه وبين جميع المقامات السابقة، بكونه ذروة التغيير النفسي والأخلاقي للمريد، وأن كل المقامات ماهي في حقيقتها، إلا مراتب متسلسلة لهذا التغيير. إن حالة الفناء عنده، هي غاية أحوال الأولياء والأبدال، وإلى بلوغها يطمع السالكون، وبغير الفناء، لا تتم التجربة الصوفية ولا تنضج ثمارها. إن الفناء، بكل معانيه الممكنة، لا يخرج عن حمى الساحة الأخلاقية، التي رسمها الإمام عبد القادر، لمنهجه الصوفي، والتي لا يتجاوز معنى الفناء فيها، كونه نبذا للصفات الإنسانية السيئة، وأستبدالها بآخرى حسنة.

مستويات الفناء

يقسم الإمام عبد القادر، الفناء، على خمسة مستويات، وهي: فناء عن الخلق، وفناء عن الهوى وفناء عن النفس، وفناء عن الإرادة، وفناء عن الأماني. أما الفناء عن الخلق فان العبد، لا يبلغه إلا بعد أن يتيقن من استغناءه عن الخلق، بحيث لا يرى لهم نفعا ولا ضرا، وأنه لافاعل على الحقيقة إلا الله عز وجل وحده، وأنه حتى الأفعال التي تصدر من الخلق، ما هي في حقيقتها، إلا فعل خالص له تعالى . إن ما يرمي أليه هذا اللون من الفناء، هو تطهير عقيدة التوحيد لدى المريد، بحيث تتخلص من كثير من أشكال الشرك التي لدقتها، قد تخفى على غير الصوفية. أما الفناء عن الهوى، فان معناه يمكن أن يفهم من خلال نقيضه، أي من خلال أتباع الهوى، فاتباع الهوى يودي بصاحبه حتما إلى التهلكة، وأن من البدائه عند الصوفية، هي أن الخطوة الأولى في السلوك الصوفي عامة، تبدأ من مخالفة الهوى. وهذا الفناء أيضا لا يمكن الأعتراض عليه من جانب الشرع، لأنه يمثل في حقيقته، سلوكا أخلاقيا يرمي إلى تحسين

---

[1] القشيري – الرسالة القشيرية – ص62.

صفات العبد وأخلاقه باستبدال المذموم منها بالمحمود. أما الفناء عن النفس، فانه يتضمن معالجة جميع ما تشتمل النفس عليه، بين جنبيها، من خباع وميول ونوازع ودوافع، سلبية، تعرقل مسار الرقي الروحي للمريد. ويبدو، أن هذا الفناء، يقابل عمل النفس الملهمة، التي يدخل المريد معها، مرحلة التخلص من أهوائه الرديئة كافة. الفناء عن الإرادة، الذي ياتي بالمستوى الرابع، يدفع بصاحبه إلى حسن التوكل على بارئه تعالى وإلى الطاعة والتسليم وعدم الخروج عن إرادته، وهو مما يتوافق تماما وأحكام الشرع.

الفناء عن الأماني، يعني أن لا يرضى المريد بغير ربّه وخالقه، مطلبا، فلا تلهيه دنيا ولا آخرى ولا جنّة زائلة ولا جنّة خالدة، وإنما يكون مراده الأوحد، هو زيادة القرب منه تعالى ، وهذا القرب، لا يتحقق له، إلا بعد خروج كل (السوى) عن قلبه، ولكن هذا السوى، لا يزول عن القلب، إلا بزوال الهوى والإرادة، اللذين بزوالهما، يصبح العبد ماثلا في فعل الله تعالى وإرادته.[1] وهذا هو ما يمكن أن نسميه، بالتوحيد الحق، الذي يخلص به القلب لربه، فلا يعود ينظر لغيره ولا يتطلع إلى سواه، حتى ولو كان هذا السوى هو نعيم الآخرة. ويمكن القول، أننا لو جمعنا هذه (الفناءات) لوجدناها تشكل سيرة صوفية متكاملة، تبدأ من التخلص من الأهواء الرديئة وتنتهي بالأشراف على التوحيد الحق، ويبدو أن الإمام عبد القادر، لم يترك مجالا للأعتراض على (فناءه) هذا، وخاصة وأنه قد قدمه للناس بلغة هي أقرب إلى لغة الشرع منها إلى اللغة الصوفية الصرف.

الفناء بين الخلق والخالق

يذهب الإمام عبد القادر إلى أنه ما ثم في الوجود إلا خلق و خالق – وهي (إثنينية) حادة لا يمكن الجميع بين خرفيها، في أي مرحلة من مراحل القرب والوصول، ويبدو أنه يشير هنا إلى عدم تبنيه لما يلصق باصحاب نظريتي الأتحاد والحلول- فان اختار المريد الخالق، فعليه أن يخلع عن قلبه كل من عداه، فليس للرجل من قلبين في جوفه، وبحيث يتصرف وكانه لا خلق في الوجود، وأنه لا وجود إلا للخالق عز وجل، عندئذ سيوجد وجوداً آخر، هو ما يسمى بـ(البقاء) أو الوجود الجديد الذي لا يرافقه إلا صفاء النفس وكرم الأخلاق، وإن من أبرز علامات هذا (الوجود) هو الدعوة المستجابة وخاعة الناس لأوامره.

---

[1] الجيلي – فتوح الغيب – ص129.

أما إذا حتّم على المريد أن يكون مع الخلق، مرشداً لهم مثلاً، فعليه أن يكون، معهم، بلا نفس ولا هوى، كي ينجو ويسلم من التبعات، فاما إذا ما إختلى مع ربه تعالى ، فعليه أن يترك الكل على باب خلوته، ويدخل وحده، ليرى مؤنسه في خلوته بعين سره ويشاهد ما وراء العيان، فتزول النفس وياتي مكانها أمر الله تعالى وقربه ((فعندها يكون جهله علم وبعده قرب وصمته ذكر ووحشته أنس))[1] أما علامة فناء العبد عن الخلق، فهي انقطاعه عنهم والأياس مما في أيديهم. وأما كيف يفنى العبد عن نفسه وهواه؟ فان ذلك يتم عن طريق ترك التعلق بالأسباب في جلب المنافع ودفع الاضرار وياتي ذلك من يقينه بان هذه الاسباب لا تتحرك في العبد به ولا تعتمد عليه له، ولا تذب عنه ولا تنتصر له. وإذن فان عليه أن يكل ذلك كله إلى من تولاه، أولاً، فهو حتماً سيتولاه آخر. إن الإمام عبد القادر، لا يشير على المريد، بالتخلص بشكل نهائي من نفسه أو من بقية الخلق، فتلك أقداره التي لا مهرب له منها، وإنما هو يشير، فقط، إلى حسن التعامل معها، ويتم ذلك عن طريق الفناء (القادري).

الفنـــــاء والبقاء

بهذا المستوى من العلاقة، بين العبد وربه، ينال الوجود الجديد، الذي طالما وعد الإمام عبد القادر مريده به، وسمي هذا الوجود بـ(الوجود الجديد)، لأن طبائع الانفس تكون معه، قد تغيرت تغيراًن يدفع بها، في الوقت نفسه، نحو مزيد من القرب من بارئها تعالى ، إن النفس هنا ستترقى وتعمل عمل القلب وتدرك مدركاته، والقلب ينقلب سراً ويرتشف من المعارف الربانية، وكل ذلك يتم، لأن الفناء نفسه يكون قد انقلب وأصبح وجوداً وبقاء[1]. وإذن فلا محق ولا تلاشي للوجود الإنساني، في الفناء الصوفي في الاسلام، وإنما هو سعي نحو الوجود الحق والحياة الاسعد التي لا تتخطفها الأوهام ولا تتنازعها النوازع.

ان سير المريد حثيثاً، نحو التحقق بمقام الفناء، يشير إلى صدق وعظم حبه لله تعالى لا بل إن أصحاب الفناء، هم وحدهم المحبون لله تعالى حقاً، لأنهم أعدموا الخلائق ولم يتعلقوا بهم، فانقلب طبعهم إلى طبع الملائكة، الذين هم حتماً أقرب من البشر إلى السماء وأبعد منهم عن الأرض ولكن مع ذلك، فاصحاب الفناء لا يقفون عند هذا الحد، بل إنهم يسعون نحو مزيد من القرب من مولاهم عز وجل، فتراهم يسعون إلى التحقق بالفناء الثاني، الذي هو الفناء عن طبع الملائكة، واللحوق بالمنهاج الأول، أو الخلق الأول، الذي هو الفطرة السليمة التي فطر عليها أبو

---

(1) الجيلي – فتوح الغيب – ص170.

(1) الجيلي – فتوح الغيب – ص170.

البشرية، آدم (ع) فاذا وصل المريد إلى هذا المقام، صار قريباً من ربه، كقرب آدم من ربه وهو في الجنة، يسقيه ما يسقيه ويزرع فيه ما يزرع، فهو كله لربه، وليس لسواه شيء فيه. أما كيف السبيل إلى بلوغ ذلك فان الإمام عبد القادر، يضع للمريد منهجاً واضحاً، لا لبس فيه ولا غموض، فالذي يريد ذلك، أي اللحوق بالمنهاج الأول، فان عليه أولاً أن يتحلى بالإسلام[2] وذلك بإقامة شعائره والإئتمار باوامره والانتهاء عن نواهيه، ثم الاستسلام، الذي يمثل الغاية من الاسلام ومعناه الحقيقي، وهذا لا يتجسد إلا بالإيمان المطلق بقدرته تعالى . ثم العلم بالله تعالى ، وهو معرفة شرائعه وأحاكامه، ثم المعرفة به، وهي معرفة الذوق والقلب والبصيرة، بقدرته وخلقه وإرادته وإحاختة بكل شيء، ثم أخيراً الوجود له تعالى أو العبودية المطلقة التي تقابل الالوهية المطلقة وهذا الوجود هو الغاية لأنه : ((إذا كان وجودك له، كان كلك له))[3]. ولا يمكن أن نعرف الفناء عند الإمام عبد القادر باكثر من تعريف هذه العبارة له.

على أن هذا الوجود الجديد، أو المعرفة الجديدة، لا يقتصر على مدة زمنية محددة، ثم يعتزل بعدها المريد السلوك الصوفي، إنه عمل يستغرق العمر كله، إنه عمل الأبد، فاذا كان الزهد عمل ساعة والورع عمل ساعتين، فان المعرفة هي عمل الأبد[1]. لأن الاسرار الربانية لا متناهية ولا تحدها حدود، وكذلك القرب من المولى عز وجل، فانه لا تحصيه القياسات ولا تحده الأبعاد، بل إن العبد لكما زاد خضوعاً لربه تعالى ، زاد قرباً منه.

فناء الذات وفناء الصفات

إن الإمام عبد القادر، يريد أن يؤكد لنا، في أكثر من موضع من مؤلفاته، أن الفناء، هو فناء صفات، وليس فناء ذات، فناء الصفات الذميمة المغروسة في النفس، واستبدالها بالصفات الحميدة التي تقرب العبد من ربه. إن فناء الذات، هو ما يرفضه رفضاً قاطعاً، فالعبد مهما فعل ومهما تقرب، فانه لا يمكنه أن يغادر ساحة عبوديته، ولا يمكن أيضاً، لذات الإنسان، مهما ارتقت في مراقي الروح، أن تذوب في الذات الإلهية، أو تندمج بها، كما يريد أن يفهم ذلك بعض خصوم التصوف، أو بعض الدخيلين عليه، فلا بد إذن من بقاء عين العبد الفاني، ((بل إن العبد كلما تقرب إلى الله عز وجل، بالعبودية، وأظهر العجز والفناء عن جميع الصفات المناقضة للعبودية، وهبه الله تعالى ،

(2) الابتداء بالاسلام هنا، تاتي لتاكيد المنطلق الشرعي في السلوك الصوفي.

(3) الجيلي – المصدر نفسه – ص171.

(1) الجيلي – المصدر نفسه – ص172.

فضلاً منه، من صفات حميدة عوضاً عما فنى منه من الصفات الذميمة))[2]. وهذا هو المستوى الأول من الفناء، الذي يشبهه الإمام عبد القادر، بالموت ، ليس الموت المعهود، بل انه موت خاص، لا يتحقق إلا للخواص من العباد، إنه موت الاهواء والطباع، الموت الذي يحيى بعده القلب، فتورثه هذه الحياة القرب، ويورثه هذا القرب، الحياة الدائمة، ((فيحال بينه وبين ذكر الموت في باخنه))[3]. وهذه العبارة الاخيرة تشير إلى معنى البقاء عند الإمام عبد القادر، فالبقاء عنده، يعد ثمرة من ثمار السلوك الصوفي، لا بل هو الثمرة الاخيرة، إذ ليس بعد الفناء إلا البقاء، فاذا ما حلت الاوصاف الحميدة في النفس، بعد خول المجاهدات، تم الفناء، ثم حصل البلقاء، أي الوجود الحقيقي الذي يس معه فناء ولا انقطاع، ((لأن من علامة أهل البقاء، أن لا يصحبهم في وصفهم شيء فانٍ لأنهما ضدان ...))[4]. اذن ، فالفناء عند الإمام عبد القادر، لا يطلب لذاته، وإنما يطلب للعبور منه نحو المرحلة الجديدة، وهي مرحلة الوجود المحض، التي غادرها الإنسان الأول بنسيانه عهد ربه فصار لزاماً عليه، بعد ذلك، أن يعالج نفسه بالكثير من أنواع المجاهدات والرياضات والعبادات، كي يعود اليها، فلا جديد إذن في هذا الوجود (الجديد) ولا إنسلاخ فيه عن الحقيقة البشرية، ولا هروب من الواقع الإنساني الناقص والمحكوم بالموت، بمحاكاة الوجود الالهي، وإنما هو الوجود الاصلي والحقيقي للبشر، الذي خلط بالكثير من العناصر الارضية والذي حف بالكثير من الشهوات والأهواء.

الفناء عن الإرادة

الفناء بمستواه الثاني، هو فناء الإرادة، أي فناء ارادة العبد في ارادة مولاه، وذلك حين لا يكون له مراد قط ولا غرض ولا مرام، لأنه لا يريد مع ارادته سواها. الفناء عن الإرادة يتحقق، حين يفنى المريد عن الخلق لحكم ربه تعالى وعن هواه بامره تعالى وعن ارادته بفعله تعالى ، فحينئذ يصلح الإنسان، ويتهيا، لأن يكون وعاء لعلم الله تعالى ، من حيث إن العلم والإرادة لا ينفصلان، فاذا ما ذابت ارادة العبد في ارادة مولاه، فهذا يعني، في الوقت نفسه، أنه قد استعد لتلقي العلم الالهي. أما علامة فناء العبد عن إرادته، فهي أن لا يريد مع إرادته سواها، بل يجري فعله فيه وهو ساكن الجوارح مطمئن الجنان، مشروح الصدر عامر الباخن، غني عن الاشياء بخالقها، ((تقلبه يد القدرة،

(2) الجيلي – سير السلوك إلى ملك الملك – مخطوخة.

(3) الجيلي – الفتح الرباني والفيض الرحماني – ص361.

(4) التادفي – قلائد الجواهر – ص91.

ويدعوه لسان الأزل ويعلمه رب الملك ويكسوه من نوره حللاً وينزله منازل من سلف من ألي العلم الأول، فيكون أبداً منكسراً لا تثبت فيه إرادة غير إرادة الله عز وجل))[1] ولنا أن نسمي

هذا الفناء ما شئنا من المسميات المقبولة عقلاً وعرفاً، فهو التوكل على الله تعالى وهو تمام العبودية له وهو الرضا به وهو التقرب إليه تعالى .

أما ثمرة هذا الفناء، أي الفناء عن الإرادة، فهي أن يضاف إلى قدرات العبد، التكوين وخرق العادات، أو بلغة آخرى (الكرامات) لأن من ذابت إرادته في إرادة مولاه، فهو حتماً ستخرق له العادات، ويرى ذلك منه في ا لحكم والعلم، أي في علاقته مع الناس والاشياء وفي علاقته بالمعارف والعلوم الربانية، وهذه الحالة (الجديدة) يعدها الإمام عبد القادر، نشاة آخرى، مجردة عن كل أشكال الإرادات، وكلما وجدت إرادة كسرت وأزيلت حتى يتم اللقاء ويبلغ الكتاب أجله. إذن فحد الفناء هو: أن يبقى الله تعالى وحده، كما كان قبل أن يخلق الخلق، وحد البقاء هو: أن يموت العبد عن الخلق وعن الهوى وعن الإرادة والمنى وعندها فقط، ((يحيى حياة لا موت بعدها ويغنى غنى لا فقر بعده، ويعطى عطاء لا منع بعده، ويعلم علماً لا جهل بعده، ويامن أمناً لا خوف بعده، ويسعد فلا يشقى، ويعز فلا يذل ويقرب فلا يبعد، ويعظم فلا يحقر، ويطهر فلا يدنس))[1]. وتلك من أعظم النعم التي يمكن أن يرجوها العبد من بارئه، فهي تكاد تقترب من صفات أهل جنة الخلد، وأما ما يتعلق منها بخرق العادات، فقد أيد ذلك الإمام عبد القادر، وفصل كثيراً في شرحه، ولكنه اشترط ظهورها فيمن تمكن من نفسه، فهي تظهر عليه، بكونها علامة من علامات القبول ونهاية الطريق، وأما قبل ذلك، أي في حالة وجود الكرامات مع الهوى والنفس، فليس من الكرامة في شيء، وإنما هو استدراج ومكر إلهي.

الفناء وعلم اليقين

ان فناء الإرادة يدل على اكتمال يقين العبد بربه، واليقين، هو أعلى درجات علم العبد، فباليقين يقطع المريد جازماً، ومن دونما شك أو تلفت: أن لا فاعل على الحقيقة إلا الله عز وجل، فلا خير ولا شر ولا نفع ولا ضر ولا موت ولا حياة ولا غنى ولا فقر إلا بيده عز وجل، وهذا هو ما تعارف الصوفية أن يسموه بالتسليم، و يشبهوا صاحبه بالطفل الرضيع في يد مرضعته، أو كالميت بين يدي الغاسل، إذ لا حراك في نفسه، ((لأنه غائب عن نفسه في فعل مولاه، فلا يدري غير

---

(1) الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص77.

(1) الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص77.

مـولاه وفعلـه ولا يسـمع إلا منـه ولا يعقـل إلا منـه))[2]. علـى أن هـذه العبـارة، لا تـدل علـى دعـوة الإمـام عبـد القـادر، إلى تعطيـل الحـواس والـتخلص مـن حكـم العقـل، وإنمـا هـي تـدل علـى دعوتـه إلى حسـن اسـتخدام الإنسـان لحواسـه وقدراتـه العقليـة عـن طريـق توجهـه صـوب مـولاه وتخلصـه مـن جميـع الشواغل والعوائق.

الفناء والخلود

هـذا الفنـاء، إذا تمكـن مـن نفـس المريـد وإرادتـه، فسـيكون وجـوده الحقيقـي، أو معنـاه، كمـا يقـول الإمـام عبـد القـادر، في الآخـرة، أمـا في هـذه الحيـاة الـدنيا، فلـيس لـه فيهـا إلا الصـورة. إنـه الخلـود بمعنـاه الحقيقـي لا المجـازي، لأن مـن فـني عـن نفسـه وعـن جميـع مراحـل الـنفس الـتي مـر بـذكرها، صـار وجـوده حتمـاً في علـم الله عـز وجـل، الأزلـي الابـدي، وفي قبضـته، سـابحاً في بحـر قدرتـه[1]. ومعنـى هـذا القـول، أن حـال الفنـاء الـذي بلغـه العبـد السـالك ألغـى فيـه كـل مناسـبة تربطـه مـع وقـائع الحيـاة الـدنيا فاصـبح لا طمـع لـه في ملـذاتها أو أشـيائها، وأصـبح ضـرورة مرتبطـاً بشـكل أوثـق، بـالآخرة، لأن باطنـه صار أكثر مجانسة لنسق الآخرة.

الفناء والشهود

الفنـاء في مسـتواه الثالـث، يمكـن أن نسـميه، بفنـاء التجلـي، أو فنـاء الشـهود، أو فنـاء المحـو. وبهـذا الفنـاء تتحقـق معرفـة العبـد لربـه عـز وجـل، فيصـير بهـذه المعرفـة حـراً عـن السـوى غريبـاً ي الـدنيا والآخـرة لعـدم مجانسـته لهمـا معـاً، والمجانسـة هـي في حقيقتهـا، وليـدة الرغبـة. إن المريـد هنـا يكـون في حالـة غيبـة عـن الكـل ومحـو عـن الكـل، وهـذه الحالـة يسـميها الإمـام عبـد القـادر بحالـة حـق الحـق، وهـي أرقـى مـن حالـة أهـل الحقيقـة. إنهـا حالـة المحـو والفنـاء، الـتي لا ينالهـا إلا العـارفون الموحـدون، أو خاصـة الخاصـة الـذين جعلـهم ربهـم تعـالى ، أمنـاء علـى خلقـه وقـد ينحصـر هـؤلاء في شـخص واحـد، هـو الوريـث المحمـدي، الـذي لا يكـون لـه مطلـب إلا رضـا ربـه عـز وجـل، لأنـه آخـرج الكـل عـن قلبـه حتـى وصـل إلى الحـق، فاصـطفاه واجتبـاه وأحبـه وحببـه إلى خلقـه، وهـو يشـاء بمشـيئة ربـه ويختـار باختيـاره ويرضـى برضـاه ويتمثـل أمـره دون غـيره لأنـه لا يـرى لغـيره عـز وجـل وجـوداً ولا فعـلاً[2]. إذن ففـي هـذه المرحلـة تلغـى حتـى المجانسـة مـع الآخـرة، ويـزول الطمـع في جوائزهـا، بحيـث لا يكـون للعبـد في هـذا الفنـاء،

---

(2) التونسي – رياض البساتين- ص54 – ونود أن نشير هنا، إلى أن من بعض تعريفات الفناء عند الإمام عبد القادر هو أنه: فعل القدر المحض الجاري على الولي، من غير أن يكون له حظ من إرادة- انظر- فتوح الغيب- ص135.

(1) الجيلي – جلاء الخاخر – ص66.

(2) الجيلي – فتوح الغيب – ص129.

إلا مطمع واحد، وهدف واحد، وهو قربه من مولاه تعالى ، وهذا الحال لا يناله إلا أوحد عصره وفريد دهره، وهنالك الكثير من الاشارات التي وردت على لسان الإمام عبد القادر، والتي يشير فيها إلى بلوغه هذا المقام[3] .

يرى الإمام عبد القادر، أن ابتداء هذا الفناء يكون بفضل من الله تعالى ، فهو موهبة منه دون إرادة أو قصد من العبد، أما أساس ذلك، فهو أن يطلع سر وليه بقبس خفيف من التجلي، فيتلاشى الكون في قلبه، ويفنى تحت تلك الاشارة، على أن البقاء الذي يعقب هذا الفناء، هو فناؤه تحت إشارة ربه تعالى ، فيتقلب في الحق، بين فناء وبقاء، إشارة تفنيه وتجلية تبقيه، بينما هو يكون قد باين خبائعه، واضمحلت فيه الرسوم وفنيت فيه الانانية، انه غارق بشكل دائم في حضرة القرب والتجلي بالحقائق الصمدانية، إنه في حالة شهود دائم للوحدانية، حيث لا حيث ولا أين ولا كيف[1] ولكن الإمام عبد القادر لا يترك لهذه الافكار أن تتدرج إلى نهايتها المحضورة، فيظن سامعه أنه قد تجاوز الخط الأحمر، أو أنه قد تعدى أمر الشرع ونهيه، وهو ما لا يرضى به لغيره، يرى الإمام عبد القادر، أن من وصل إلى هذه المرتبة من القرب والفضل من ربه عز وجل، فهو حتماً قد وهب الحفظ والسلامة و موافقة فعل ربه في كل ما يفعل، بحيث إنه لا يخرق أي قاعدة في الشرع، فينزلق إلى مهاوي الزندقة وإباحة المحارم[2] . إن هذا لا يكون حتماً في حق من إختصه ربه عز وجل، بالاسرار والعلوم اللدنية، والدخول في بحار الانوار، حيث لا تضره ظلمة الطبائع.

إن هذا الرأي الأخير، يؤكد إعتقاد الإمام عبد القادر، بعدم زوال الطبائع الآدمية من البشر، حتى إن نالوا، اعلى درجات القرب من بارئهم عز وجل، فالطبع باقٍ إلى أن تفارق الروح الجسد، ولوزال الطبع، لألتحق الآدمي بالملائكة ولبطلت الحكمة.

الفناء بصورته النهائية، الواضحة والبسيطة، التي -كما عودنا الإمام عبد القادر في تقديمه للمفاهيم الصوفية- لا يمكن الاعتراض عليها، مهما كانت خلفية المعترض الفكرية ومهما كان إنتماؤه المعرفي، إنه المرحلة الأخيرة في تصوف الإمام عبد القادر، وهو الاستعداد الامثل للقاء المولى تعالى ، بعد استكمال مقومات الصلاح واماتة النفوس والأهوية وتصحيح الطباع والاقبال على (الموت الخاص)، إنه الصياغة النهائية لانسانية الإنسان، ومن دون تجاوز (لارض) هذه الإنسانية، بل وانطلاقاً منها نحو آفاق الحضرة الإلهية اللامتناهية.

---

(3) حول ما افصح به عن مقامه- انظر على سبيل المثال- الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار- ص19 فما بعدها.

(1) الجيلي – الصلوات الكبرى – مخطوطة – دار صدام للمخطوطات – رقم 14855.

(2) الجيلي – المصدر نفسه – ص139.

إن الحب وحده، هو الوازع الذي دفع بالإنسان الاعتيادي، إلى سلوك طريق التصوف والحب هو نفسه الذي دفع به، إلى طلب المزيد من القرب من محبوبه، فكان الفناء وكان السعي لمحو الصفات السلبية التي تحملها النفس الإنسانية بين جنبيها، والتي عدها الصوفية من أصعب الحواجز التي تحول بين المحب وبلوغ مراده، وهذا هو ما حدا بالإمام عبد القادر، إلى أن يحث مريديه باستمرار، على طلب الفناء والسعي له، لكونه ((هو الراحة الكبرى والجنة العالية المنفردة في الدنيا، وهو باب الله الأكبر وعلة محبة الله لعبده))[3] . ولأنه أخيراً هو حقيقة الإنسان ومعناه المدفون تحت ركام الغرائز والشهوات والأهواء، فلا جديد ولا تجاوز لحدود البشرية، بل هو عود على بدء.

(3) الجيلي – فتوح الغيب – ص116.

القسم الثاني :

قطوف

من كلام الإمام عبد القادر الجلي

يا غلام .. إنما يقود الناسَ البصير

يا غلام .. عظ نفسك أولاً ثم عظ نفس غيرك ، عليك بخويصة نفسك ، لا تتعدّ إلى غيرك وقد بقيَ عندك بقية تحتاج إلى إصلاحها .

ويحك .. أنت تعرف كيف تخلص غيرك ؟! . أنت أعمى .. كيف تقود غيرك ؟! ، إنما يقود الناسَ البصيرُ ، إنما يخلصهم من البحر السابحُ المحمود ، إنما يرُدُّ الناسَ إلى الله عزَّ وجلَّ من عرفه ، أما من جهله كيف يدل عليه ؟! ..

إذا كان التوحيد بباب الدار والشرك داخل الدار فهو النفاق بعينه ، ويحك .. أنت لسانك يتقي وقلبك يفجر ، لسانك يشكر وقلبك يعترض !! .



المؤمن مجاهد لا ينغمد سيفه

يا غلام .. عليك بالتقوى .. عليك بحدود الشرع ، والمخالفة للنفس ، والهوى ، والشيطان ، وأقران السوء .. المؤمن في جهاد هؤلاء لا ينكشف رأسه عن الخود ، لا ينغمد سيفه ، لا يعرو ظهر فرسه عن قربوس سرجه .



عليك بورع الخلوة ومراقبة الحق

يا غلام .. تحتاج في خلوتك إلى ورع يخرجك عن المعاصي والزلات ، ومراقبةٍ تذكِّرك نظرَ الحق عزَّ وجلَّ إليك . أنت محتاج مضطر إلى أن يكون هذا معك في خلوتك ، ثم تحتاج إلى محاربة النفس والهوى والشيطان ، خراب معظم الناس مع الزلات ، وخراب الزهاد مع الشهوات .



التوبة قلب دولة

يا غلام .. لا تكن مع النفس ، ولا مع الهوى ، ولا مع الدنيا .. حينئذ تجيئك الهداية من الحق عزَّ وجلَّ التي لا ضلال بعدها . تُب عن ذنوبك وهرول عنها إلى مولاك عزَّ وجلَّ إذا تبت فَلْيتبْ ظاهرك وباطنك .. التوبة قلب دولة ، اخلع ثياب المعاصي بالتوبة الخالصة والحياء من الله عزَّ وجلَّ حقيقة لا مجازاً ، وهذا من أعمال القلوب بعد طهارة الجوارح بأعمال الشرع ؛ القالب له عمل والقلب له عمل .



استقبلِ الداءَ بالصبر والشفاءَ بالشكر

يا غلام .. إذا جاءك الداء فاستقبله بيد الصبر واسكن حتى يجيء الدواء ، فإذا جاء الدواء فاستقبله بيد الشكر .



لا تجعل العاجلة أكبر همك

يا غلام .. لا يكن همك ما تاكل وما تشرب ، وما تلبس ، وما تنكح ، وما تسكن ، وما تجمع ، كل هذا همُّ النفس والطبع .. فليكن همّك ربك عزَّ وجلَّ وما عنده .



ما خلقت للبقاء .. فاعمل صواباً خالصاً

يا غلام .. ما خُلقت للبقاء في الدنيا والتمتع فيها ، فغيِّر ما أنت فيه من مكاره الحق عزَّ وجلّ .. الإيمان قول وعمل .. إذا قلت : (لا إله إلاّ الله) فقد ادعيت . يقال : أيها القائل ألك بيِّنة ؟ ما البيِّنة ؟ : امتثال الأمر ، والانتهاء عن النهي ، والصبر على الآفات ، والتسليم إلى القدر ، هذه بينة هذه الدعوى .

وإذا عملت هذه الأعمال ما تُقبل منك إلاّ بالإخلاص للحق عزَّ وجلَّ ، ولا يُقبل قول بلا عمل ، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة .



واسوا الفقراء واشكروا ربكم

واسـوا الفقراء بشيء من أموالكم ، لا تردوا سـائلاً وأنتم تقدرون أن تعطوه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً ، وافقوا الحق عزَّ وجلَّ في حبه العطاء ، واشكروه كيف أهّلكم وأقدركم على العطاء .

ويحك .. إذا كان السائل هدية الله عزَّ وجلَّ وأنت قادر على إعطائه ، فكيف ترد الهدية على مهديها ؟ . عندي تستمع وتبكي ، وإذا جاء الفقير يقسو قلبك ، فدلّ على أن بكاءك وسماعك ما كان خالصاً لله عزَّ وجلّ ..



زهد الظاهر ، وزهد القلب

يا غلام .. ليس الشان في خشونة ثيابك وماكولك ، الشانُ في زهد قلب .



لا تاخذ الرزق بيد الرغبة!

يا غلام .. تناول الأقسام بيد الزهد لا بيد الرغبة ، ليس من ياكل ويبكي كمن ياكل ويضحك ، كُلِ الأقسامَ وقلبُك مع الحق عزَّ وجلَّ ، فإنك تسلم من شرها ، إذا أكلت من يد الطبيب كان خيراً من أن تاكل وحدك ما لا تعلم أصله .



ما أقسى قلوبَكم ، ضيَّعتمُ الأمانة!

ما أقسى قلوبكم! .. الأمانة قد ذهبت من بينكم ، الرحمة قد ذهبت فيما بينكم ، أحكام الشرع أمانة عندكم وقد تركتموها وخنتم فيها! .



قابلوا العسر بالصبر واليسر بالشكر

احفظوا نعمه – عزَّ وجلَّ – بالشكر ، قابلوا أمره ونهيه بالسمع والطاعة ، قابلوا العسر بالصبر واليسر بالشكر ، هكذا كان من تقدمكم من النبيين والمرسلين والصالحين ، يشكرون على النعم ويصبرون على النقم .. قوموا من موائد معاصيه ، وكلوا من موائد طاعته ، واحفظوا حدوده . إذا جاءكم اليسر فاشكروه ، وإذا جاءكم العسر فتوبوا من ذنوبكم وناقشوا أنفسكم ، فإن الحق عزَّ وجلَّ ليس بظلام للعبيد .



تنبهوا ، إلى متى هذا النوم ؟

اذكروا الموت وما وراءه ، واذكروا الرب عزَّ وجلَّ وحسابه ونظرته إليكم .

تنبهوا .. إلى متى هذا النوم ؟ . إلى متى هذا الجهل والتردد في الباطل ، والقيام مع النفس والهوى والعادة؟. لِمَ لَمْ تتادبوا بعبادة الحق عزَّ وجلَّ ومتابعة شرعه ؟.

العبادة ترك العادة ، لِمَ لَمْ تتادبوا بآداب القرآن وكلام النبوة ؟! .



خالط الناس بالبصيرة

يا غلام .. لا تخالط الناس مع العمى ، مع الجهل ، مع الغفلة والنوم ، خالطهم بالبصيرة ، والعلم ، واليقظة ، فإذا رأيت منهم ما تحمده فاتبعه ، وإذا رأيت منهم ما يسؤوك فاجتنبه ، وردهم عنه .



ويحك .. كم تتاوّل وتترخّص ؟!

ويحك! .. كم تتاول وتترخص ؟! ، المتاول غادر ، ليتنا إذا ركبنا العزيمة وتعلّقنا بالإجماع وأخلصنا في أعمالنا تخلصنا من الحق عزَّ وجلَّ! ، فكيف إذا تاولنا وترخصنا ؟ العزيمة ذهبت وذهب أهلها .

هذا زمان الرخص لا زمان العزائم! ، هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق ، قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي ، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق !!

كلكم موتى القلوب .. أحياء النفوس والأهوية ، خالبون للدنيا حياة القلب بامتثال أمر الحق عزَّ وجلَّ والانتهاء عن نهيه .



كن مسلماً في الخلوة والجلوة

ويحك! .. لسانك مسلم أما قلبك فلا ، قولك مسلم أما فعلك فلا ، فَلأنْتَ في جلوتك مسلم ، أما في خلوتك فلا .

أما تعلم أنك إذا صليت وصمت وفعلت جميع أفعال الخير ، إن لم ترد بهذه الأعمال وجه الله عزَّ وجلَّ فانت منافق بعيد من الله عزَّ وجلَّ ؟!

تُب الآن إلى الله عزَّ وجلَّ من جميع أفعالك وأقوالك ومقاصدك الدنية .



العلم لا ينفعك بلا عمل

يا قوم .. هذا العلم لا ينفعكم بلا عمل ، تحتاجون أن تعملوا بهذا السواد على البياض ، وهو حكم الله عزَّ وجلَّ ، تعملون به يوماً بعد يوم وسنةً بعد سنة حتى تقع في أيديكم ثمرتُه.



علمك حجة لك أو عليك

يا غلام .. علمك يناديك : أنا حجة عليك إن لم تعمل بي ، وحجة لك إن عملت بي .



علمك يناديك فاسمعه بقلبك

علمك يناديك ولكنك لا تسمعه لأنه لا قلب لك ، اسمعه باذن قلبك ، واقبل قوله فإنك تنتفع به ، العلم بالعمل يقربك إلى العالِم المنـزِّل للعلم .



زكاة العلم

زكاة العلم نشره ودعوة الخلق إلى الحق عزَّ وجلّ .



لا تاكل بدينك وواس غيرك بمالك

كل بكسبك ولا تاكل بدينك ، اكتسب ، وكُل ، وواسِ منه غيرك .



يا عابد الخلق والأسباب!

يا عابد الخلق والأسباب ناسياً للحق عزَّ وجلّ .. أسلم ثم تب ثم تعلَّم واعمل وأخلص ، وإلا فلا تُهدى .



لست عدوي .. ولا أحابيك

ويحك! .. ما بيني وبينك عداوة ، غير أني أقول الحق ولا أحابيك في دين الله عزَّ وجلّ .



دع عنك الكلام فيما لا ينفعك

يا مسكين ، دع عنك الكلام فيما لا ينفعك ، اترك التعصب في المذهب ، واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة .. فرِّغ قلبك من هموم الدنيا فإنك ماخوذ منها عن قريب .. قصِّر أملك وقد جاءك الزهد في الدنيا ، لأن الزهد كله قصر الأمل .



اهجر قريباً خالحاً وصِل بعيداً صالحاً

اهجر أقران السوء ، واقطع المودة بينك وبينهم ، وواصلها بينك وبين الصالحين ، اهجر القريب منك إذا كان من أقران السوء ، وواصل البعيد منك إذا كان من أقران الخير . كل من وادته صار بينك وبينه قرابة ، فانظر لمن توادد .



احذر بحر الدنيا فإنه عميق!

يا غلام .. احذر من بحر الدنيا فقد غرق فيه خلق كثير ، ما ينجو منه إلا آحاد الخلق ، هو بحر عميق يُغرق الكل ، غير أن الله عزَّ وجلَّ ينجي منه من يشاء من عباده .



أيها المدبر .. عن قريب أنت ماخوذ!

يا مدبر! .. أراك تُرضي الخلق وتسخط الخالق ، تخرب آخرتك بعمارة دنياك ، عن قريب أنت ماخوذ ، ياخذك الذي أَخْذُه أليمٌ شديد ، أَخْذُهُ ألوان كثيرة ، ياخذك بالعزل عن ولايتك ، ياخذك بالمرض والذل والفقر ، ياخذك بتسليط الشدائد والغموم والهموم ، ياخذك بتسليط ألسنة الخلق وأيديهم عليك ، تنبه يا نائم .



لا تاخذ الدنيا كحاخب ليل!

يا غلام .. لا تكن في أخذك الدنيا كحاخب ليل ما يدري ما يقع في يده .. إني أراك في تصرفاتك كحاخب ليل في ليلة ظلماء لا قمر فيها ولا ضوء معه ، وهو في رملة كثيرة الدغل والحشرات القاتلة فيوشك أن يقتله شيء منها ، عليك بالاحتطاب نهاراً فإن ضوء الشمس يمنعك أن تاخذ ما يضرك .

كن في تصرفاتك مع شمس التوحيد والشرع والتقوى ، فإن هذه الشمس تمنعك من الوقوع في شبكة الهوى والنفس والشيطان والشرك بالخلق ، وتمنعك عن العجلة في السير .



من استعجل أخطا أو كاد

ويحك .. لا تعجل ، فإن من استعجل أخطا أو كاد ، ومن تانى أصاب أو كاد ؛ أي ؛ قاربَ أن يصيب . العجلة من الشيطان ، والتؤدة من الرحمن ، أكثر ما يحملك على العجلة الحرص على الدنيا ، اقنع فإن القناعة كنـز لا ينفد .



اغتنموا الأبواب المفتوحة

يا قوم .. انتهزوا واغتنموا باب الحياة ما دام مفتوحاً ، عن قريب يغلق عنكم . اغتنموا أفعال الخير ما دمتم قادرين عليها . اغتنموا باب التوبة وادخلوا فيه ما دام مفتوحاً لكم . اغتنموا باب الدعاء فهو مفتوح لكم .
اغتنموا باب مزاحمة إخوانكم الصالحين فهو مفتوح لكم .



يا قوم .. ارجعوا من إباقكم!

يا قوم .. ابنوا ما نقضتم ، اغسلوا ما نجستم ، أصلحوا ما أفسدتم ، صَفُّوا ما كدَّرتم ، ردوا ما أخذتم ، ارجعوا إلى مولاكم من إباقكم وهربكم! .



الكسلان محروم

يا غلام .. لا تكسل فإن الكسلان يكون أبداً محروماً ، والندامة في ريقه .. جَوِّدْ أعمالك .. وقد جاد الحق عزَّ وجلَّ عليك بالدنيا والآخرة .



ما أحسن عشرة الخلق بآداب الشرع!

حُسْنُ العِشْرةِ مع الخلق والموافقة لهم مع حدود الشرع ورضاه حسنٌ مبارك .. وأما إذا كان ذلك مع خرق حد من حدوده وعدم رضاه فلا ولا كرامة لهم .



لا تَدْعُ بلسانك وقلبُك معترض!

يا غلام .. انصب شبكة الدعاء .. وارجع إلى الرضى .. لا تَدْعُ بلسانك وقلبك معترض ..



ذكر البذر وقت الحصاد لا ينفع

يوم القيامة يتذكر الإنسان ما فعل من خير وشر .. فالندامة هناك لا تنفع .. ذكر الحرث والبذر وقت حصاد الناس لا ينفع .. إذا جاءك الموت انتبهت وقت لا ينفعك الانتباه .



من مفاسد صحبة الأشرار

يا غلام .. صحبتك للأشرار توقعك في سوء الظن بالأخيار .. امش تحت ظل كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد أفلحت .



لا تغفلوا .. زمانكم يضيع!

يا قوم .. استحيوا من الله عزَّ وجلَّ حق الحياء ، لا تغفلوا . زمانُكم يضيع ، قد اشتغلتم بجمع ما لا تاكلون ، وتاملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون ، كل هذا يحجبكم عن مقام ربكم عزَّ وجلّ .



من شرائط حُبّ الله

ويحك .. قد ادعيت محبة الله عزَّ وجلَّ! ، أما علمت أن لها شرائط ؟ من شرائط محبته موافقته فيك وفي غيرك ، ومن شرائطها ألا تسكن إلى غيره ، وأن تستانس به ، ولا تستوحش معه .

إذا سكن حب الله قلب عبد أنس به وأبغض كل ما يشغل عنه .

تب من دعواك الكاذبة ، هذا شيء لا يجيء بالتخلي والتمني والكذب والنفاق والتصنع .. تب واثبت على توبتك ، فليس الشان في توبتك ، الشان في ثبوتك عليها .. ليس الشان في غرسك ، الشان في ثبوته وتغصينه وثمرته .



الزموا الحق في جميع أحوالكم

الزموا موافقة الحق عزَّ وجلَّ في الباساء والضراء .. والفقر والغنى .. والشدة والرخاء .. في السقم والعافية .. في العطاء والمنع .



تمام العبودية

يا غلام .. أنت عبد آبق من مولاك .. ارجع إليه وذلّ له ، وتواضع لأمره بالامتثال ، ولنهيه بالانتهاء ، ولقضائه بالصبر والموافقة .

إذا تمّ لك هذا تمت عبوديتك لسيدك وجاءتك منه الكفاية ، قال الله عزَّ وجلَّ : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ .. } [القصص : 36] .

إذا صحت عبوديتك له أحبك ، وقوّى حُبَّه في قلبك وأنسك به وقرَّبك منه .. فتكون راضياً عنه في جميع أحوالك .



ذهاب دينكم باربعة أشياء

لا تكونوا من الذين إذا وُعِظوا لم يتعظوا ، وإذا سمعوا لم يعملوا . ذهاب دينكم باربعة أشياء :

الأول : أنكم لا تعملون بما تعلمون .

الثاني : أنكم تعملون بما لا تعلمون .

الثالث : أنكم لا تتعلمون ما لا تعلمون .. فتبقون جهالاً .

الرابع : أنكم تمنعون الناس من تعلُّم ما لا يعلمون .



مجالس الذكر للمداواة يا غافل

يا قوم .. إذا حضرتم مجالس الذكر تحضرونها للفرجة لا للمداواة! .. تعرضون عن وعظ الواعظ وتحفظون عليه الخطا والزلل .. وتستهزئون وتضحكون وتلعبون! .. توبوا من هذا ، لا تتشبهوا باعداء الله عزَّ وجلَّ وانتفعوا بما تسمعون.



يا عجباً .. كانكم لا تموتون!

قد غفلتم كانكم لا تموتون! .. وكانكم يوم القيامة لا تحشرون! .. وبين يدي الحق لا تحاسبون! .. وعلى الصراط لا تجوزون! .. هذه صفاتكم وأنتم تدعون الإسلام والإيمان! .. هذا القرآن والعلم حجة عليكم إذا لم تعملوا بهما .



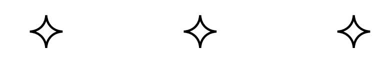
أعقل الناس ، وأجهل الناس

يا غلام .. تَنبه قبل أن تُنبه .. تدَّينْ وخالط أهل الدين فإنهم هم الناس .. أعقل الناس من أطاع الله عزَّ وجلّ .. وأجهل الناس من عصاه .



تربت يداك!

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « .. تَرِبَتْ يَدَاكَ » رواه البخاري ، يعني : افتقرت . وأترب : إذا استغنى . إذا خالطت أهل الدين وأحببتهم استغنت يداك .. وقلبك يهرب من النفاق وأهله .. المنافق المرائي لا عمل له ، اعمل وأخلص ولا تنظر إلى عملك في الجملة ، لا يقبل -سبحانه وتعالى - منك إلا ما أردت به وجهه لا وجه الخلق.



قلِّلْ فرحك وكثِّرْ حزنك

ويحك! .. تعمل للخلق وتريد أن يقبله الحق عزَّ وجلَّ! هذا هوسٌ منك .. دع عنك الشره والبطر والفرح .. قلل فرحك وكثر حزنك فإنك في دار الحزن .. في دار السجن .



إذا صحت خلوتك .. صفا قلبك

يا غلام .. إذا صحت خلوتك مع الله عزَّ وجلَّ .. صفا قلبك . يصير نظرك عبراً ، وقلبك فكراً .. التفكر في الدنيا عقوبة وحجاب .. والتفكر في الآخرة علم وحياة للقلب .. ما أعطي عبد التفكر إلا أعطي العلم باحوال الدنيا والآخرة .



ويحك .. رزقك مقسوم!

ويحك! .. تضيع قلبك في الدنيا وقد فرغ عزَّ وجلَّ من أقسامك منها .. حرصك يفضحك عند الله عزَّ وجلَّ وعند الخلق .



صحبة الأحمق صحبة غبن

يا غلام .. تصحب الجهال فيتعدى إليك من جهلهم ، صحبة الأحمق صحبة غبن ، اصحب المؤمنين الموقنين العاملين العاملين بعلمهم .. ما أحسن أحوال المؤمنين في جميع تصرفاتهم .. ما أقواهم على مجاهداتهم وقهرهم لنفوسهم وأهويتهم! .



اقبل نصح أخيك

اقبل نصح أخيك المؤمن ولا تخالفه . فإنه يرى لك ما لا ترى أنت لنفسك .

المؤمن الصادق في نصحه لأخيه المؤمن يبين له أشياء تخفى عليه .. تُفرّق له بين الحسنات والسيئات .. يعرِّفه ما له وما عليه .



سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق

سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي .. إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء .. ما أنا طالب دنيا .. فرحي بفلاحكم ، وغمي لهلاككم .



يا قوم اعرفوا قدركم

يا قوم .. دعوا التكبر .. اعرفوا قدركم وتواضعوا في نفوسكم ؛ أوّلكم نطفة من ماء مهين .. وآخركم جيفة ملقاة !! .

لا تكونوا ممن يقوده الطمع ، ويصيده الهوى ويحمله إلى أبواب السلاطين في طلب شيء منهم لم يُقسم له ، ويطلب منهم ما قد قسم له بالذل والمهانة !! .



يا جاهلاً بالقدر والمقدِّر

ويحك .. يا جاهلاً بالقدر والمقدر! . أتظن أن أبناء الدنيا يقدرون أن يعطوك ما لم يُقسم لك ؟! . ولكن هذه وسوسة الشيطان الذي قد تمكن من قلبك ورأسك . لست عبد الله عزَّ وجلَّ وإنما أنت عبد نفسك وهواك وشيطانك وطبعك ودرهمك ودينارك .

اجهد حتى ترى مفلحاً

اجهد حتى ترى مُفلحاً .. حتى تفلح بطريقه .. أنت ترى المفلح بعيني رأسك لا بعيني قلبك .. فلا جرم لا يكون لك بصيرة تبصر بها غيرك. قال الله تعالى : { ... فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج : 46]



بائع الدين بالتين!

الطامع في أخذ الدنيا من أيدي الخلق يبيع الدين بالتين ، يبيع ما يبقى بما يفنى ، فلا جرم لا يقع بيده لا هذا ولا هذا .



أصلح معيشتك .. ولا تبذل للناس دينك

ما دمت ناقص الإيمان فدونك وإصلاح معيشتك .. حتى لا تحتاج إلى الناس فتبذل لهم دينك وتاكل أموالهم به .



الزم باب ربك واساله اليقين

يا غلام .. إن قدرت أن تتفرغ من هموم الدنيا فافعل .. وإلا فهرول بقلبك إلى الحق عزَّ وجلّ .. الزم بابه وسله أن يطهر قلبك ويملأه بالإيمان .. والغنى به .

سله أن يعطيك اليقين ويؤنس قلبك به ، ويشغل جوارحك بطاعته ..

اخلب الكل منه لا من غيره .. لا تذل لمخلوق مثلك.



فقه اللسان .. وغفلة القلب!

يا غلام .. فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة .. السير سير القلب .. العمل عمل المعاني مع حفظ حدود الشرع بالجوارح .



لا تفرط في إحكام الأساس!

قد سبق تفريطك في إحكامك للأساس .. ما ينفعك إحكامك للبناء الذي فوقه ؟! .

إذا تغير البناء والأساس محكم قدرت أن تجبر البناء .. أساس الأعمال التوحيد والإخلاص .. فمن لا توحيد له ولا إخلاص له لا عمل له .. أحكم أساس عملك بالتوحيد والإخلاص .. يد التوحيد هي البانية لا يد الشرك والنفاق .



اصبروا .. فالدنيا آفات ومصائب

يا قوم .. اصبروا فإن الدنيا كلها آفات ومصائب .. والنادر منها غير ذلك .. ما من نعمة إلا وفي جنبها نقمة ، ما من فرحة إلا ومعها ترحة ، ما من سعة إلا ومعها ضيق .. أعطوا الدنيا حياتكم وتناولوا أقسامكم منها بيد الشرع .. فإنه هو الدواء في ما يؤخذ من الدنيا .



أنكر على نفسك لتنكر على غيرك

إذا كنت منكراً على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك .



أثر الإيمان في إزالة المنكر

على قدر قوة إيمانك تزيل المنكرات .. وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها .



أقدام الإيمان عند اللقاء تثبت

أقدام الإيمان هي التي تثبت عند لقاء شياطين الإنس والجن .. هي التي تثبت عند نزول البلايا والآفات .



ثوب المرائي نظيف وقلبه نجس

المرائي .. ثوبه نظيف ، وقلبه نجس ، يزهد في المباحات ويكسل عن الاكتساب ، ويأكل بدينه .. يخفى أمره على العوام ولا يخفى على الخواص ، كل زهده وطاعته على ظاهره ، ظاهره عامر وباطنه خراب .



اخلع ثياب توانيك!

اخلع ثياب توانيك في حقوق الله عزَّ وجلَّ ، اخلع ثياب وقوفك مع الخلق وشركك بهم ، اخلع ثياب الشهوات والرعونات والعجب والنفاق ، وحبك للقبول عند الخلق ، وإقبالهم عليك ، وعطاياهم لك ، اخلع ثياب الدنيا والبس ثياب الآخرة .



الطريق إلى الصلاح والنجاح

من أفنى الخلق بيد توحيده ، وأفنى الدنيا بيد زهده .. فقد استكمل الصلاح والنجاح ، وحَظِيَ بخير الدنيا والآخرة .



المؤمن صابر

المؤمن يثبت عنده أن الله عزَّ وجلَّ ما يبتليه بشيء إلا لمصلحة تعقب ذلك .. إما دنيا أو آخرة .. فهو راضٍ بالبلاء صابرٌ عليه غير متهم ربه عزَّ وجلّ .



كن مع الله ودع خدمة السلاخين

يا غلام .. اخدم الحق عزَّ وجلَّ ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاطين الذين لا يضرون ولا ينفعون . أيش يعطونك ؟! ، أيعطونك ما لم يقسم لك ؟ أو يقسمون لك شيئاً لم يقسمه الحق عزَّ وجلّ ؟! ..

أما تعلم أنه لا معطي ولا مانع ، ولا ضار ولا نافع ، ولا مقدم ولا مؤخر ، إلا الله عزَّ وجلّ ؟! .

فإن قلتَ : إني أعلم ذلك . قلت لك : كيف تعلم هذا وتقدم غيره عليه ؟! .



ويحك .. كيف تفسد عملك ؟!

ويحك! .. كيف تفسد آخرتك بدنياك ؟! كيف تفسد طاعة مولاك عزَّ وجلَّ بطاعة نفسك وهواك وشيطانك والخلق ؟! كيف تفسد تقواك بشكواك إلى غيره ؟!

أما تعلم أن الله عزَّ وجلَّ حافظٌ للمتقين ، وناصرٌ لهم ، ورادٌّ عنهم ، ومعلم لهم .. وآخذ بايديهم وينجيهم من المكاره ، وناظرٌ إلى قلوبهم ، ورازقهم من حيث لا يحتسبون ؟! .



عبادة التقي وعبادة المنافق

التقي لا يتكلَّف عبادة الحق عزَّ وجلَّ لأنها صارت طبعه ، فهو يعبد الله بظاهره وباطنه من غير تكلف منه .

وأما المنافق فهو في كل أحواله يتكلف ، ولا سيما في عبادة الحق عزَّ وجلَّ ، يتكلفها ظاهراً ويتركها باطناً ، لا يقدر أن يدخل مدخل المتقين ، لكل مكان مقال ، ولكل علم رجال ، للحرب رجال خُلقتْ .



توبوا من نفاقكم!

يا منافقون .. توبوا من نفاقكم وارجعوا من إباقكم .. كيف تتركون الشيطان يضحك عليكم ؟ ويشتفي بكم ؟. إن صليتم وإن صمتم فعلتم ذلك للخلق لا للحق عزَّ وجلَّ ، وهكذا إن تصدقتم وزكيتم وحججتم ، أنتم (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) [الغاشية : 3] عن قريب تَصْلَون (.. نَارًا حَامِيَةً) [الغاشية : 4] إن لم تتداركوا وتتوبوا وتعذروا .



يسعكم ما وسع سلفكم

عليكم بالاتباع من غير ابتداع ، عليكم بمذهب السلف الصالح ، امشوا في الجادة المستقيمة .. لا تشبيه ولا تعطيل .. بل اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من غير تكلف ولا تنطع ولا تشدد ، ولا تمشدق ولا تمعقل .. يسعكم ما وسع من كان قبلكم .



لأي شيء تفعل ذلك ؟

ويحك .. تحفظ القرآن ولا تعمل به ، وتحفظ سنة رسول الله ولا تعمل بها .. فلأي شيء تفعل ذلك ؟!
تامر الناس وأنت لا تفعل ، وتنهاهم وأنت لا تنتهي! ، قال الله عزَّ وجلَّ : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) [الصف : 3].



الإيمان هو المقاوم للآفات

الإيمان هو المقاوم للآفات ، هو الصابر تحت ثقلنا ، هو المصارع ، هو المقاتل .



باب الخالق .. وباب الخلق!

من فاته باب الحق عزَّ وجلَّ قعد على أبواب الخلق ، من ضيع طريق الحق عزَّ وجلَّ وضل عنها قعد على طريق الخلق! .



كن مع الله تكن غنياً

كن مع الله عزَّ وجلَّ تكن غنياً عزيزاً أميراً مؤمَّراً دليلاً .. من استغنى بالله عزَّ وجلَّ احتاج إليه كل شيء .. وهذا شيء لا يجيء بالتحلي والتمني ، ولكن بشيءً في الصدر وصدَّقه العمل .



ليكن الخرس دأبك

يا غلام .. ليكن الخرسُ دأبَك والخمول لباسك ، والهرب من الخلق كلّ مقصودك .. إلى أن يترعرع إيمانك ، ويقوى قدم إيقانك ، ويتريش جناح صدقك ، وتنفتح عينا قلبك .. فحينئذ أخلق لسانك في الكلام ، واخلع لباس الخمول ، واترك الهرب من الخلق .. فإنك دواء لهم غير مستضر في نفسك .. لا تبالي بقلتهم وكثرتهم ، وإقبالهم وإدبارهم ، وحمدهم وذمهم .

تادبوا مع ربكم

يا قوم .. اعرفوا الخالق .. وتادبوا بين يديه .. ما دامت قلوبكم بعيدة عنه فانتم سيئو الأدب .. وإذا قربت حَسُنَ أدبُها .



الظاهر عنوان الباطن!

كل إناء ينضح بما فيه ، أعمالك دلائل على اعتقادك ، ظاهرك دليل على باطنك ، ولهذا قال بعضهم : الظاهر عنوان الباطن .



تواضعْ .. تُرفعْ

إذا تواضعت للصالحين فقد تواضعت لله عزَّ وجلَّ ، تواضع .. فإن من تواضع رفعه الله عزَّ وجلَّ ، أحسن الأدب بين يدي من هو أكبر منك .



لا تضيع عمرك بحفظ العلم

يا غلام .. قد ضيعت العمر في كتب العلم وحفظه من غير عمل! .



سعة الصدر وطيب القلب

يا غلام .. إن أردت سعة الصدر وطيب القلب فلا تسمع ما يقول الخلق ، ولا تلتفت إلى حديثهم ، أما تعلم أنهم ما يرضون عن خالقهم فكيف يرضون عنك ؟ أما تعلم أن كثيراً منهم لا يعقلون ولا يبصرون ولا يؤمنون ؟ بل يكذبون ولا يصدقون .



اعرف ربك ولا تكن جاهلا !

يا قوم .. اعرفوا الله ولا تجهلوه ، وأطيعوا الله ولا تعصوه ، ووافقوه ولا تخالفوه ،

وارضوا بقضائه ولا تنازعوه ، واعرفوا الحق عزَّ وجلَّ بصنعته ؛ هو الخالق الرزاق ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .. الفعال لما يريد .

{ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء : 23].



لا تنسَ العهد

يا غلام .. اعمل بحكمه وعلمه -عزَّ وجلَّ- ولا تخرج عن الخطة ، لا تنسَ العهد ، جاهد نفسك وهواك وشيطانك وطبعك ودنياك ، ولا تياس من نصرة الله عزَّ وجلّ .. فإنها تاتيك مع ثباتك ، قال الله عزَّ وجلَّ : { ... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : 153] . وقال : { ... فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } [المائدة : 56] . وقال : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت : 69]



يا قوم .. انصحوا القرآن

يا قوم .. انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه .. الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة .. عليكم بالإيمان به .. صدقوا بقلوبكم ، واعملوا بجوارحكم .. اشتغلوا بما ينفعكم .. لا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية .



لا يُترك النص بالقياس

يا قوم .. المنقول لا يُستنتج بالعقل .. والنص لا يُترك بالقياس . لا تترك البينة وتقف مع مجرد الدعوى .

لسانٌ عليم وقلبٌ جاهل!

لا ينفع لسان عليم وقلب جاهل .. يا علماء يا جهال ، يا حاضرون يا غائبون .. استحيوا من الله عزَّ وجلَّ ، وانظروا بقلوبكم إليه ، ذلوا له .. واصلوا الضياء بالظلام في طاعته .



وأداوي عبد الدنيا

ما أحب النظر إلا لطالبي الآخرة وطالبي الحق عزَّ وجلّ .. وأما طالب الدنيا والخلق والنفس إيش أعمل به ؟. غير أني أحب مداواته لأنه مريض .. لا يصبر على المريض إلا الطبيب .



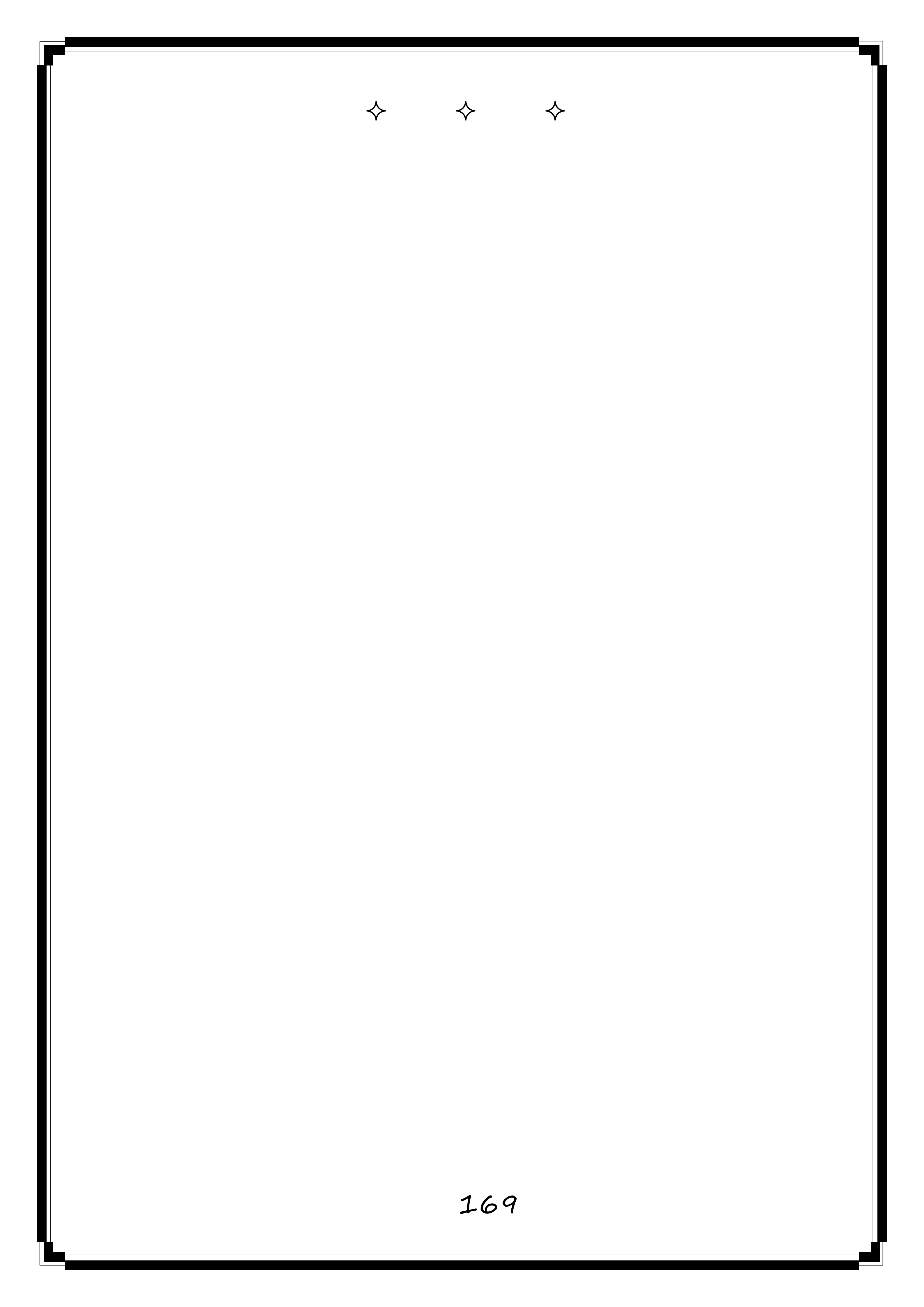
لا يعرف الإخلاص إلا المرائي!

الغالب من المخلصين كانوا منافقين ، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه : « لا يعرف الإخلاص إلا المرائي » . النادر من كل نادر من يخلص من أول أمره إلى آخره .. الصبيان في أوّل أمرهم يكذبون ويلعبون بالتراب والنجاسات ، ويوقعون أنفسهم في المهالك ، ويسرقون من آبائهم وأمهاتهم ، ويمشون بالنميمة ، وكلما دبّ العقل فيهم تركوا شيئاً فشيئاً وتادبوا بالآباء والأمهات والمعلمين .



متى ينفع الدواء ؟

الله عزَّ وجلَّ خلق الدواء والداء ؛ المعاصي داء والطاعة دواء .. الظلم داء والعدل دواء .. والخطا داء والصواب دواء .. ومخالفة الحق عزَّ وجلَّ داء والتوبة من سُكر الذنوب دواء .. إنما يتم لك الدواء إذا فارقت الخلق بقلبك ووصلته بربك عزَّ وجلَّ .



لا تغتر بحلم الله عنك!

يا غلام .. لا تغتر بحلم الله عزَّ وجلَّ عنك فإن بطشه شديد . لا تغتر بهؤلاء العلماء الجهال بالله عزَّ وجلَّ ، كل علمهم عليهم لا لهم ، هم علماء بحكم الله عزَّ وجلَّ جهال بالله عزَّ وجلَّ .. يامرون الناس بامر ولا يمتثلونه ، وينهونهم عن شيء ولا ينتهون عنه .. يدعون إلى الحق عزَّ وجلَّ وهم يفرون منه!! .



من أنيسك في خلوتك وجلوتك ؟!

من أنيسك في الوحدة ؟ من جليسك في الجلوة ؟ يا كذاب .. أنيسك في الوحدة نفسك وشيطانك وهواك والتفكر في دنياك ، وفي الجلوة شياطين الإنس .. الذين هم أقران السوء وأصحاب القيل والقال!.



احذروا ثلاثاً

احذروا من الغيبة .. فإنها تاكل الحسنات كم تاكل النار الحطب .. ما تعودها من أفلح قط ، ومن عُرف بها قَلّت حرمتُه عند الناس .

واحذروا من النظر بشهوة .. فإنه يزرع المعصية في قلوبكم ، وعاقبته غير محمودة في الدنيا والآخرة .

واحذروا من اليمين الكاذبة .. فإنها تترك الديار بلاقع .. تُذهب بركة الأموال .



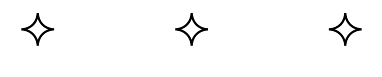
دع اليمين الكاذبة!

ويحك .. تنفق مالك باليمين الكاذبة وتخسر دينك! ، لو كان لك عقل لعلمت أن هذه هي الخسارة بعينها ، تقول : واللهِ عزَّ وجلَّ ما في هذه البلدة مثل هذا المتاع ، ولا عند أحد مثله ، واللهِ إنه يسوي كذا وكذا ، وإنه عليّ بكذا وكذا .. وأنت كاذب في كل ما قلته ، ثم تشهد بالزور وتحلف بالله إنك صادق! .



ستؤدبك النار

تادبوا رحمكم الله تعالى بين يدي الحق عزَّ وجلّ .. من لم يتادب بآداب الشرع أدبته النار يوم القيامة .



أصخور أنتم ؟!

يا غلام .. لعل غداً ياتي وأنت مفقود من ظهر الأرض غير موجود ، أو لعل هذا يكون ساعة أخرى .. إيش هذه الغفلة ؟! ، ما أقسى قلوبكم! ، صخور أنتم ، أقول لكم وغيري يقول لكم وأنتم على حالة واحدة!! .

القرآن يتلى عليكم ، وأخبار الرسول وسِيَرُ الأولين تقرأ عليكم ، ولا تتجنبون ولا تتغير أعمالكم! .



المعاصي بريد الكفر

حاسب نفسك قبل مجيء الآخرة ، ولا تغتر بحلم الله عزَّ وجلَّ عنك وكرمه عليك .. المعاصي بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت ، عليك بالتوبة قبل الموت .. قبل مجيء المَلَكِ الموكل باخذ الأرواح .



يا شباب .. الكذب نقمة

يا شباب .. توبوا ؛ أما ترون الحق عزَّ وجلَّ يبتليكم بالبلاء حتى تتوبوا ، وأنتم لا تعقلون وتصرون على معاصيه ؟ .. الكذب نقمة لا نعمة ، عقوبة للذنوب لا زيادة في الدرجات والكرامات.



الفرج قريب فلا تياس

يا قوم .. لا تياسوا من روح الله عزَّ وجلَّ وفرجه فإنه قريب .. لا تياسوا فإن الصانع الله { ... لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } [الطلاق : 1] .



الصبر أساس لكل خير

لا تهرب من البلاء فإن البلاء مع الصبر أساس لكل خير .. فإذا لم تصبر على البلاء فلا أساس لك .. لا بقاء لبناء إلا باساس .. أرأيت بيتاً ثابتاً على مزبلة ربوة ؟ .



الجاهل .. كل همه الدنيا

يا غلام .. قَدِّمِ الآخرةَ على الدنيا تربحهما جميعاً ، وإذا قدمت الدنيا على الآخرة خسرتهما جميعاً .. عقوبة لك كيف اشتغلت بما لم تؤمر به .

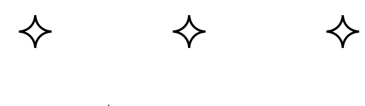
إذا لم تشتغل بالدنيا أمدك الله عزَّ وجلَّ بالمعونة عليها ، ورزقك التوفيق وقت الأخذ منها ، وإذا أخذتَ منها شيئاً وُضعتْ فيه البركة .

المؤمن يعمل لدنياه وآخرته ، يعمل لدنياه بُلْغَتَه ، بقدر ما يحتاج إليه ، يقنعه منها كزاد الراكب ، لا يُحصل منها الكثير ، الجاهل كل همه الدنيا .



إلى متى إقبالك على الخلق ؟

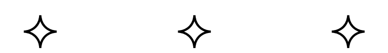
يا معرضاً عن الحق عزَّ وجلَّ وعن الصديقين من عباده .. مقبلاً على الخلق مشركاً بهم .. إلى متى إقبالك عليهم ؟! ، إيش ينفعونك ؟ ليس بايديهم ضرر ولا نفع ، ولا عطاء ولا منع . لا فرق بينهم وبين سائر الجمادات فيما يرجع إلى الضرر والنفع .. المعطي والمانع واحد ، الخالق والرازق هو الله عزَّ وجلّ .. هو خالق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما .



وأسفا عليكم!

وأسفا عليكم يا خلق الله ، ما تعرفون خالقكم حق معرفته ؟! .. وأما أنت

يا عالِمُ فمشتغل بالقال والقيل وجمع المال عن العمل بعلمك ، فلا جرم يقع في يدك من الصورة دون المعنى .



إذا أراد الله بعبد خيراً .. علَّمه

إذا أراد الله تعالى بعبد من عبيده خيراً علَّمه ، ثم ألهمه العمل والإخلاص ، ومنه أدناه ، وإليه قرَّبه ، وعرَّفه وعلَّمه علم القلوب .



اغسل نجاسة الذنب بماء التوبة

يا غلام .. لا تياس من رحمة الله عزَّ وجلَّ بمعصية ارتكبتها ، بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها ، وخيِّبه وبخِّره بطيب المعرفة .

احذر من هذا المنـزل الذي أنت فيه ، فإنك كيفما التفت فالسباع حولك ، والأذايا تقصدك ، تحوَّل عنه وارجع إلى الحق عزَّ وجلَّ بقلبك ، لا تاكل بطبعك وشهوتك وهواك ، لا تاكل إلا بشاهدين عدلين وهما: الكتاب والسنة .



القلب الطيّب هو الحصن

يا غلام .. الدواء في توحيد الله عزَّ وجلَّ بالقلب لا باللسان فحسب ، التوحيد والزهد لا يكونان على الجسد واللسان ؛ التوحيد في القلب ، والزهد في القلب ، والتقوى في القلب ، والمعرفة في القلب ، والعلم بالحق عزَّ وجلَّ في القلب ، ومحبة الله عزَّ وجلَّ في القلب ، والقرب منه في القلب .

كن عاقلاً لا تتهوس ولا تتصنع ولا تتكلف ، أنت في هوس وتَصَنُّعٍ وتكلُّفٍ وكذب ورياء ونفاق ، كل همك استجلاب الخلق إليك . أما تعلم أنك كلما خطوت بقلبك خطوة إلى الخلق بعدت من الحق عزَّ وجلّ ؟ تدعي أنك طالب الحق عزَّ وجلَّ وأنت طالب الخلق! ، مثلك مثل من قال : أريد أن أمضي إلى مكة . وتوجه إلى خراسان فبعد من مكة . تدعي أن قلبك قد خرج من الخلق .. وأنت تخافهم وترجوهم! ، ظاهرك الزهد وباطنك الرغبة ، ظاهرك الحق -عزَّ وجلَّ- وباطنك الخلق!! .



الموحد حجة الله على الخلق

الموحدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق ، منهم من يتعرى عن الدنيا من حيث ظاهرُه وباطنُه ، ومنهم من يتعرى عنها من حيث باطنُه فحسب ، لا يرى الحق عزَّ وجلَّ على بواطنهم منها شيئاً ، تلك القلوب الصافية .



من هو الشجاع ؟

الشجاع من طهر قلبه مما سوى الله عزَّ وجلَّ ، ووقف على بابه بسيف التوحيد وصمصامة الشرع ، لا يخلي شيئاً من المخلوقات يدخل إليه ، يجمع قلبه بمقلب القلوب ، الشرع يهذب الظاهر ، والتوحيد والمعرفة يهذبان الباطن .

يا هذا بين قالوا وقلنا ما يجيء شيء ، تقول : هذا حرام ، وأنت مرتكبه ، وهذا حلال ، وأنت لا تفعله ولا تستعمله !! .



يا مدعي العلم .. أين بكاؤك ؟!

مَثَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ العالِمَ الذي لا يعمل بعلمه بالحمار ، فقال : { ... كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... } [الجمعة : 5] .

الأسفار هي كتب العلم ، هل ينتفع الحمار بكتب العلم ؟ ، ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب ، من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربه عزَّ وجلَّ وطواعيته له .

يا مدعي العلم! أين بكاؤك من خوف الله عزَّ وجلّ ؟ أين حذرك وخوفك ؟ أين اعترافك بذنوبك ؟ أين مواصلتك الضياء بالظلام في طاعة الله عزَّ وجلَّ ؟ أين تاديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعدواتها فيه ؟.



يا نياماً لا يُنام عنهم!

يا نياماً لا يُنام عنهم ، يا معرضين لا يُعرض عنهم ، يا ناسين لا يُنسون ، يا تاركين لا يُتركون ، يا جهالاً بالله عزَّ وجلَّ ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن تقدم ومن تاخر ، أنتم كخشب ممدود نُجِّرَ لا يصلح لشيء .



أما يكفيك نفاقك ؟!

يا منافق! .. خهر الله عزَّ وجلَّ الأرض منك ، ما يكفيك نفاقك حتى تغتاب العلماء والأولياء والصالحين باكل لحومهم! ، أنت وإخوانك المنافقون مثلك ، عن قريب تاكل الديدان ألسنتكم ولحومكم وتقطعكم وتمزقكم ، والأرض تضمكم فتسحقكم وتقلبكم .

لا فلاح لمن لا يحسن ظنه بالله عزَّ وجلَّ وبعباده الصالحين ويتواضع لهم .



لو علمتم لتادبتم

توبوا إلى الله عزَّ وجلَّ واعتذروا إليه ، واعترفوا بذنوبكم بينكم وبينه ، وتضرعوا بين يديه . إيش بين أيديكم ؟! ، لو عرفتم لكنتم على غير ما أنتم عليه ، تادبوا بين يدي الحق عزَّ وجلَّ كما كان يتادب من سبقكم .



لا تستهينوا باهل العلم

لا تستهينوا بكلمات الحكماء والعلماء ، فإن كلامهم دواء ، وكلماتهم ثمرة وحي الله عزَّ وجلَّ ، ليس بينكم نبي موجود بصورة حتى تتبعوه ، فإذا تبعتم المتبعين للنبي صلى الله عليه وسلم ، المحققين في اتباعه ، فكانما قد اتبعتموه .



اصحبوا العالم العامل

اصحبوا العلماء المتقين فإن صحبتكم لهم بركة عليكم ، ولا تصحبوا العلماء الذين لا يعملون بعلمهم ، فإن صحبتكم لهم شؤم عليكم .

إذا صحبت من هو أكبر منك في التقوى والعلم ، كانت صحبتك له بركة عليك ، وإذا صحبت من هو أكبر منك في السن ولا تقوى له ، ولا علم له ، كانت صحبتك له شؤماً عليك .



العمل لغير الله شرك

اعمل لله عزَّ وجلَّ ولا تعمل لغيره ، اترك له ولا تترك لغيره ؛ العمل لغيره كفر ، والترك لغيره رياء . من لا يعرف هذا ، ويعمل غير هذا ، فهو في هوس .



ويحك .. صِلْ قلبك بالله

ويحك .. واصل ربك عزَّ وجلَّ وقاطع غيره من حيث قلبُك .. صفُّوا ما بينكم وبين ربكم عزَّ وجلّ .



لا يفلح من فرق بين غني وفقير

يا غلام .. إن وجدت عندك تفرقة بين الغني والفقير عند إقبالهم عليك فلا فلاح لك .



مواصلتك الفقراء عبادة لله

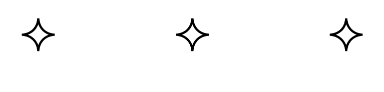
من مواصلة الحق عزَّ وجلَّ أن تواصل الفقراء بشيء من مالك ، أما علمت أن الصدقة معاملة مع الحق عزَّ وجلَّ الذي هو غني كريم ؟ ، وهل يعامل الغني الكريم من يخسر ؟ .

تنفق لوجه الله عزَّ وجلَّ ذرة يعطيك جبلاً ، تنفق قطرة يعطيك بحراً .



كُنْ مع الله تَرَ اللهَ معك

يا قوم .. إذا عاملتم الحق عزَّ وجلَّ يزكو زرعكم ، وتجري أنهاركم ، ويورق ويغصن ويثمر شجركم ، مُرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، وانصروا دين الله عزَّ وجلَّ وعادوا فيه الصديق .



إذا صح القلب

إذا صح القلب امتلأ رحمة وشفقة على الخلق .



من علامات الصِّدِّيق

الصِّدِّيق يترك الكبائر والصغائر ، ثم يدقق ورعه بترك الشهوات ثم المباح المشترك ، ويطلب الحلال المطلق.



أصل البلاء وأصل الدواء

اسمع قول بعضهم رحمة الله عليه : كن في الدنيا كمن يداوي جرحه ويصبر على مرارة الدواء رجاء لزوال البلاء ؛ كلُّ البلايا والأمراض من شركك بالخلق ورؤيتهم في الضر والنفع والعطاء والمنع ، وكلُّ الدواء وزوال البلاء في الخروج عن الخلق من قِبَلِك ، وعزمك عند نزول الأقضية والأقدار ، وأن لا تطلب الرياسة على الخلق والعلوِّ عليهم ، وأن يتجرد قلبك لربك عزَّ وجلّ .



المؤمن يتزود والكافر يتمتع !

المؤمن يتزود والكافر يتمتع ؛ المؤمن يتزود لأنه على طريق يقنع باليسير من ماله ويقدم الكثير إلى الآخرة ، يترك لنفسه بقدر زاد الراكب .. بقدر ما يحمله .. كل ماله في الآخرة ، كل قلبه وهمته هناك .. هو منقطع القلب

هناك من الدنيا .. يبعث جميع طاعاته إلى الآخرة لا إلى الدنيا وأهلها .. إن كان عنده طعام طيب يؤثر به الفقراء ، يعلم أنه في الآخرة يُطْعَمُ خيراً منه .



ويحك .. جسدك يتحرك وقلبك ساكن!

إني أراك في قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وسهر وتعب .. وقلبك لا يبرح من مكانه ، ولا يخرج عن بيت وجوده ، ولا يتحول عن عادته .

اصدق في طلب مولاك عزَّ وجلَّ ، وقد أغناك صدقُك عن كثير من التعب ، أُنقرْ بيضة وجودك بمنقار صدقك ، وانقض حيطان رؤيتك للخلق والتقيد بهم بمعاول الإخلاص وتوحيدك .

اكسر قفص طلبك للأشياء بيد زهدك فيها ، وطِرْ بقلبك حتى تقع على ساحل قربك من ربك عزَّ وجلّ.



قلّلوا حرصكم .. قصِّروا آمالكم !

هذه الدنيا بحرٌ ، والإيمان سفينتها .. يا مصرين على المعاصي!! .. عن قريب يأتيكم العمى والصمم والزمْن والفقر ، وقساوة قلوب الخلق عليكم .. تذهب أموالكم بالخسارات والمصادرات والسرقات . كونوا عقلاء .. توبوا إلى ربكم عزَّ وجلّ .. لا تشركوا بأموالكم وتتكلوا عليها .. لا تقفوا معها .. أخرجوها من قلوبكم واجعلوها في بيوتكم وجيوبكم .. ومع غلمانكم ووكلائكم .. وارتقبوا الموت .. قللوا حرصكم وقصروا آمالكم .



إذا تاب القلب تابت الجوارح

يا غلام .. ارجع بقلبك إلى الله عزَّ وجلّ .. التائب إلى الله هو الراجع إليه ، وقوله عزَّ وجلَّ : { وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ... } [الزمر : 54]. أي : ارجعوا إلى ربكم ، يعني : ارجعوا .. سلموا الكل إليه .



علمٌ بلا صدق ضلال على علم !

إيش ينفعك علم بلا صدق ؟! .. قد أضلك الله على علم .. تتعلم وتصلي وتصوم للخلق حتى يفروا إليك ، ويبذلوا لك أموالهم ، ويمدحوك في بيوتهم ومجالسهم .

قدِّر أنه يحصل لك هذا منهم .. فإذا جاءك الموت .. يحال بينك وبينهم ، ولا يغنون عنك شيئاً .. وما حصلته من أموالهم ياكله غيرك والعقوبة والحساب عليك!! .



في قلبك جماعة من الآلهة !

يا غلام .. ما أنت على شيء .. الإسلام ما صح لك .. الإسلام هو الأساس الذي يبنى عليه . الشهادة ما تمت لك. تقول : لا إله إلا الله .. وتكذب!.

في قلبك جماعة من الآلهة : خوفك من سلطانك ووالي محلتك آلهة ، اعتمادك على كسبك وربحك وحولك وقوتك وسمعك وبصرك وبطشك آلهة ، رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة . كثير من الخلق متكلون على هذه الأشياء بقلوبهم ويظهرون أنهم متكلون على الحق عزَّ وجلّ . قد صار ذكرهم للحق عزَّ وجلَّ عادة بالسنتهم لا بقلوبهم .. فإذا حُوققوا في ذلك حردوا ، وقالوا : كيف يقال لنا هكذا ؟! .. ألسنا مسلمين ؟!

غداً تبين الفضائح وتظهر المخبآت!! .



القلب هو المؤمن

ويحك .. القلب هو المؤمن ، هو الموحد ، هو المخلص ، هو المتقي ، هو الورع ، هو الزاهد ، هو الموقن .. هو الأميـر .. ومن سواه جنوده وأتباعه .

إذا قلت : لا إله إلا الله . فقل أولاً بقلبك ثم بلسانك ، واتكل عليه واعتمد عليه دون غيره . اشغل ظاهرك بالحكم وباطنك بالحق عزَّ وجلَّ . اترك الخير والشر على ظاهرك ، واشتغل بباطنك مع خالق الخير والشر ؛ من عرفه ذلّ له .. وتواضع له ولعباده الصالحين ، وتضاعف همه وغمه وبكاؤه ، وكثر خوفه ووجله ، وكثر حياؤه ، وكثر ندمه على ما تقدم من تفريط ، وتشدد حذره وخوفه من زوال ما عنده من المعرفة والعلم.



الدنيا تطيب بعد إهانتها

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : أهينوا الدنيا ، فإنها والله لا تطيب إلا بعد إهانتها .



الدنيا تُفرح الجاهل!

الجاهل يفرح في الدنيا .. والعالم يغتم فيها . الجاهل يناظر القدر وينازعه .. والعالم يوافقه ويرضى . يا مسكين ! لا تُناظرِ القدر وتُشاققْه فتهلك .



ويحك .. اعرف قدر نفسك !

ويحك .. اعرف قدرك .. أنت كل همك الأكل والشرب واللبس والنكاح وجمع الدنيا والحرص عليها .. عَمّالٌ في أمور الدنيا بطّالٌ في أمور الآخرة !! .



المؤمن يعمل لآخرته

المؤمن له نية صالحة في جميع تصاريفه .. لا يعمل في الدنيا للدنيا .. يبني في الدنيا للآخرة ، يعمر المساجد والقناطر والمدارس والرُّبُط ، ويهذب خرق المسلمين ، وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء .. وما لا بد منه ، يفعل ذلك حتى يُبنى له في الآخرة بدله .. لا يبنى لطبعه وهواه ونفسه .



الذاكر لله حيٌّ أبداً

الذاكر لله عزَّ وجلَّ أبداً حي .. ينتقل من حياة إلى حياة .. إذا تمكن الذكر في القلب دام ذكر العبد لله عزَّ وجلَّ وإن لم يذكره بلسانه .. كلما دام العبد في ذكر الله عزَّ وجلَّ دامت موافقته له ورضاه بافعاله .



عطاء ربك عارية عندك

ويحك .. تعمل عمل أهل النار وترجو الجنان!! ، فانت طامع في غير موضع الطمع .. لا تغتر بالعارية وتظنها لك .. عن قريب تؤخذ منك .. الحق عزَّ وجلَّ قد أعارك الحياة حتى تطيعه فيها .. حسبتها لك وعملت فيها ما أردت!! ، وكذلك العافية عارية عندك ، وكذلك الغنى عارية عندك ، وكذلك الأمن والجاه .. وجميع ما عندك من النعم .. عارية عندك .. لا تفرط في هذه العواري فإنك تطالب بها ، وتسال عنها وعن كل شيء منها .. جميع ما عندكم من النعم من الله عزَّ وجلّ .. فاستعينوا بها على الطاعة .



وافق الحق في الخلق

عن بعضهم أنه قال : وافق الحق عزَّ وجلَّ في الخلق .. ولا توافق الخلق في الحق .. انكسرَ من انكسر وانجبرَ من انجبر .. تعلموا موافقة الحق عزَّ وجلَّ من عباده الصالحين الموافقين .



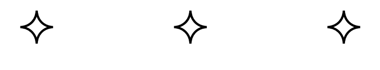
يا غلام .. أراك قليل المعرفة بالله عزَّ وجلَّ وبرسوله صلى الله عليه وسلم .. أنت قفص بلا طائر ، بيت فارغ خراب ، شجرة قد يبست وتناثر ورقها .

عمارة قلب العبد بالإسلام ، ثم بالتحقيق في حقيقته ، وهي : الاستسلام .



يا جاهل .. ما لك ولهذا ؟!

يا جاهل ما لك ولهذا ؟ ، أنت عبد نفسك ودنياك وهواك ، أنت عبد الخلق مشرك بهم ، لأنك تراهم في الضر والنفع .



لا تغتر بطاعتك

يا غلام .. لا تغتر بطاعتك وتعجب بها ، اسال الحق سبحانه وتعالى قبولها ، وخف واحذر أن ينقلك إلى غيرها .. من عرف الله عزَّ وجلَّ لا يقف مع شيء ولا يغتر بشيء ، لا يامن حتى يخرج من الدنيا على سلامة دينه وحفظ ما بينه وبين الله عزَّ وجلّ .



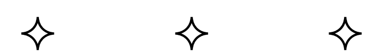
عليكم باعمال القلوب

يا قوم .. عليكم باعمال القلوب وإخلاصها الإخلاص الكامل مما سوى الله عزَّ وجلَّ . ومعرفة الله عزَّ وجلَّ هي الأصل ، ما أرى أكثركم إلا كذابين في الأقوال والأفعال في الخلوات والجلوات ، ما لكم ثبات! ، لكم أقوال بلا أفعال ، وأفعال بلا إخلاص ولا توحيد !! .



انفوا ثم أَثْبِتوا

انفوا ثم أثبتوا ؛ انفوا عنه -تعالى - ما لا يليق به ؛ وأثبوا له ما يليق به ، وهو ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم .



هذا عاقبة حب الدنيا!

دنياكم قد أعمت قلوبكم فما تبصرون بها شيئاً ، احذروا منها فهي تمكنكم من نفسها تارة بعد أخرى حتى تستدرجكم .. وفي الأخيرة تذبحكم ، تسقيكم من شرابها وبنجها ثم تقطع أيديكم وأرجلكم وتسمل أعينكم . فإذا ذهب البنج وجاءت الإفاقة رأيتم ما صنعت بكم ، هذا عاقبة حبِ الدنيا ، والعَدْوِ خلفها ، والحرصِ عليها وعلى جمعها .. هذا فعلها فاحذروا منها .



حظوظ القلب وحظوظ النفس

يا غلام .. حظوظ القلب باخنة ، وحظوظ النفس ظاهرة ، فحظوظ القلب لا تاتي إلا بعد منع النفس حظوظها ، فإذا امتنعت انفتحت أبواب حظوظ القلب ، حتى إذا استغنى القلب بحظوظه من الحق عزَّ وجلَّ جاءت الرحمة للنفس ..

دع مجالسة من يرغبك في الدنيا واخلب مجالسة من يزهدك فيها .. الجنس يميل إلى الجنس .. يطوف بعضهم على بعض ..



التعاون ثمرة الحب في الله

المحبون لله يتحابون فيه ، فلا جرم يحبهم ويؤيدهم ويشد بعضهم ببعض .. يتعاونون على دعوة الخلق ، يدعونهم إلى الإيمان والتوحيد والإخلاص في الأعمال ، ياخذون بايديهم ويوقفونهم على خريق الحق عزَّ وجلّ .. من خَدَم خُدِم ، ومن أحسن يُحْسن إليه ، ومن يعطي يُعطى .



ما العمل بغير مواخاة القلب ؟!

أعمالكم عمالكم ، تعمل عمل أهل النار وترجو من الله عزَّ وجلَّ الجنان ، كيف تتمنى الجنة من غير عمل أصحاب الجنة ؟! . أرباب القلوب في الدنيا الذين عملوا بقلوبهم لا بجوارحهم فحسب . العمل بغير مواخاة القلب إيش يعمل ؟! . المرائي يعمل بجوارحه ، والمخلص يعمل بقلبه وجوارحه .. يعمل بقلبه قبل جوارحه .



عمل المؤمن وعمل المنافق

المؤمن حي والمنافق ميت ؛ والمؤمن يعمل لله عزَّ وجلَّ ، والمنافق يعمل للخلق ويطلب منهم المدح والعطاء على عمله ، عمل المؤمن في ظاهره وباطنه ، في خلوته وجلوته ، في السراء والضراء ، وعمل المنافق في جلوته فحسب ، عمله عند السراء فإذا جاءت الضراء لا عمل له ، لا صحبة له لله عزَّ وجلَّ ، لا إيمان له بالله عزَّ وجلَّ وبرسله وكتبه ، لا يذكر الحشر والنشر والحساب ، إسلامه ليسلم رأسه وماله في الدنيا لا ليسلم في الآخرة من النار .. يصوم ويصلي ويقرأ العلم بحذاء الناس ، فإذا خلا عنهم رجع إلى شغله وكفره .



ارفع بصرك عن عملك

يا غلام .. عليك بالإخلاص في الأعمال ، ورفع بصرك عن عملك ، وخلبِ العوض عليه من الخلق .



أَكْثِرْ أنهارك اليوم

يا من يريد الجنة .. شراؤها وعمارتها اليوم لا غداً ، أَكْثِرْ أنهارك وأجرِ الماء فيها اليوم لا غدا .



تذكروا { يوم يعض الظالم على يديه }

يا قوم .. يوم القيامة تنقلب القلوب والأبصار ، يومٌ تزل فيه الأقدام ، كلُّ واحد من المؤلفين يقوم على قدم إيمانه وتقواه ، ثبات الأقدام على قدر الإيمان ، في ذلك اليوم : { ... يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ... } [الفرقان : 27] كيف ظلم ، ويعض المفسد على يديه كيف أفسد ولم يصلح ، كيف أَبقَ من مولاه!! .



الأعمال بخواتيمها

يا غلام .. لا تغتر بعمل فإن الأعمال بخواتيمها . عليك بسؤال الحق عزَّ وجلَّ أن يصلح خاتمتك ويقبضك على أحب الأعمال إليه .. إياك ثم إياك إذا تبت أن تنقض ثم ترجع إلى المعصية ، لا ترجع عن توبتك بقول قائل .. لا توافق نفسك وهواك وطبعك وتخالف مولاك عزَّ وجلّ .. إذا عصيت الحق عزَّ وجلَّ يخذلك ولا ينصرك .

اللهم انصرنا بطاعتك ولا تخذلنا بمعصيتك .



أي الجهادين أشق ؟

قد أخبرك الله عزَّ وجلَّ بجهادين : ظاهر وباطن :

فالباطن جهاد النفس والهوى والطبع والشيطان ، والتوبة عن المعاصي والزلات والثبات عليها ، وترك الشهوات المحرمات .

والظاهر جهاد الكفار المعاندين له -عزَّ وجلَّ- ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم ، يَقْتُلون ويُقْتَلون .

فالجهاد الباطن أصعب من الجهاد الظاهر ، لأنه لازم متكرر ، وكيف لا يكون أصعب من الجهاد الظاهر وهو : قطع مالوفات النفس من المحرمات وهجرانها ، وامتثال أوامر الشرع والانتهاء عن نهيه ؟! .

فمن امتثل أمر الله عزَّ وجلَّ في الجهادين حصلت له المجازاة دنيا وآخرة ، الجراحات في جسد الشهيد كالفصد في يد أحدكم لا ألم لها عنده .. والموت في حق المجاهد لنفسه التائب من ذنوبه ؛ كشرب العطشان للماء البارد .



ماأكسلكم في الطاعة وأقواكم في المعصية!!

يا قوم .. آمنوا بهذا القرآن ، واعملوا به ، وأخلصوا في أعمالكم .. لا تراءوا

ولا تنافقوا في أعمالكم ، ولا تطلبوا الحمدَ من الخلق والأعواضَ عليها منهم .. آحادٌ أفرادٌ من الخلق يؤمنون بهذا القرآن يعملون به لوجه الله عزَّ وجلَّ ! .. ولهذا قلّ المخلصون وكثر المنافقون .. ما أكسلَكم في طاعة الله عزَّ وجلَّ وأقواكم في طاعة عدوه وعدوكم الشيطان الرجيم !! .



كن صحيحاً تكن فصيحاً

يا غلام .. كن صحيحاً تكن فصيحاً ؛ كن صحيحاً في الحكم تكن فصيحاً في العلم .. كن صحيحاً في السر تكن فصيحاً في العلانية .. كل السلامة في طاعة الحق عزَّ وجلَّ ، وهي امتثال جميع ما أمر به ، والانتهاء عن جميع ما نهى عنه ، والصبر على جميع ما قضى به .. من استجاب لله عزَّ وجلَّ أجابه .



يا قليل التدبير كن عوناً للفقير

إذا أحببت لنفسك : أطايبَ الأطعمة ، وأحسنَ الكسوة ، وأطيبَ المنازل ، وأحسنَ الوجوه ، وكثرةَ الأموال .. وأحببت لأخيك المسلم بالضد من ذلك .. فقد كذبت في دعواك كمال الإيمان .

يا قليلَ التدبيرِ! لك جار فقير ، ولك أهل فقراء ، ولك مال عليه زكاة ، ولك ربحٌ : كل يوم ربحٌ فوق ربح ، ومعك قدر يزيد على قدر حاجتك إليه .. فَمنعُك لهم عن العطاء هو الرضى بما هم فيه من الفقر .. ولكن إذا كان نفسك وهواك وشيطانك وراءك ، فلا جرم لا يسهل عليك فعل الخير .. معك قوةُ حرص ، وكثرةُ أمل ، وحب الدنيا ، وقلة تقوى وإيمان .. أنت مشرك بك وبمالك وبالخلق ، وما عندك خير .

من كثرت رغبتُه في الدنيا ، واشتد حرصُه عليها ، ونسيَ الموت ولقاءَ الحق عزَّ وجلَّ ، ولم يفرق بين الحلال والحرام .. فقد تشبه بالكفار الذين قالوا : { ... مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ... } [الجاثية : 24].



تصوم نهارك وتعصي ليلك!

يا قوم .. إيش ينفعكم الجوع والعطش بالنهار والإفطار على الحرام بالليل ؟! .. تصومون بالنهار وتعصون بالليل .. يا أكلةَ الحرام أنتم تمنعون نفوسكم شرب الماء بالنهار ثم تفطرون على دماء المسلمين .. ومنكم من يصوم بالنهار ويفسق بالليل !! .



لا تاكل وحدك!

يا غلام .. صُم وإذا أفطرت واسِ الفقراء بشيء من إفطارك .. لا تاكل وحدك ، فإن من أكل وحده ولم يُطعم يُخاف عليه من الفقر والكدية .



أتشبعون وجيرانكم جياع ؟!

يا قوم .. تشبعون وجيرانكم جياع ، وتدَّعون أنكم مؤمنون !! .. ما صح إيمانكم . يكون بين يدي أحدكم طعام كثير يفضل عنه وعن أهله ، ويقف السائل على بابه ويُرَدُّ خائبًا! . عن قريب تبصر خيرك .. عن قريب تصير مثله ، وتُرَدُّ كما رددته مع القدرة على عطائه .



اجمع التواضع إلى العطاء

ويحك .. هلا قمت وأخذت ما بين يديك وأعطيته .. تجمع بين الحالين : التواضع في قيامك والعطاء من مالك .. واسِ الخلق اليوم حتى يواسيك الحق عزَّ وجلَّ غداً برحمته ، ارحم من في الأرض حتى يرحمك من في السماء .. ما دمت قائماً مع نفسك لا تصل إلى هذا المقام .. ما دمت توصل إليها حظوظها فانت في قيدها .. وفِّها حقها وامنعها حظها ؛ بإيصال الحق إليها بقاؤها ، وإيصال الحظ إليها هلاكها .. حقُّها ما لا بد من الطعام واللباس والشراب وموضع تسكن فيه .. وحظها اللذات والشهوات . خذ حقها من يد الشرع .. أطعمها المباح لا الحرام .. اقعد على باب الشرع وألزمها بخدمته وقد أفلحت .



اقنعْ ولن يفوتك رزق!

اقنع باليسير ووطِّن نفسك عليه ، فإن جاء الكثير من يد السابقة والعلم كنت فيه ، إذا قنعت باليسير ما تهلك نفسك ، ولا يفوتها ما قسم لها . كان الحسن البصري رحمة الله عليه يقول : « يكفي المؤمن ما يكفي العنيزة : كفٌ من حشفٍ وشربة ماء! » . المؤمن يتقوَّت والمنافق يتمتع ، المؤمن يتقوَّت لأنه في الطريق ما وصل إلى المنـزل ، والمنافق لا منـزل له لا مقصد له .

ما أكثر تفريطكم في الأيام والشهور ؟! ، تقطعون الأعمار بلا نفع! ، أراكم لا تفرحون في دنياكم وتفرحون في أديانكم ، اعكسوا تصيبوا ، الدنيا ما بقيت على أحد ، وهكذا لا تبقى عليكم .



أمعكم توقيع بالحياة ؟!

يا قوم .. أمعكم توقيع من الحق عزَّ وجلَّ بالحياة ؟! . ما أقل تدبيركم! ، من يعمر دنيا غيره بخراب آخرته يجمع الدنيا لغيره بتفرق دينه ، ويوقع بينه وبين الحق عزَّ وجلَّ وسخطه عليه لرضا مخلوق مثله ، لو علم وتيقن أنه ميت عن قريب ، حاضر بين يدي الحق عزَّ وجلَّ ، وأنه محاسب عن جميع تصرفاته لأقصر عن كثير من أعماله ..

أُحذركم وأنهاكم ، ولا تحذرون ولا تنتهون ، يا غائبين عن الخير ، مشغولين بالدنيا ، عن قريب تشب عليكم الدنيا تخنقكم ولا ينفعكم ما جمعتموه من يدها ، ولا ما تلذذتم بها ، بل يكون جميع ذلك وبالاً عليكم .



للكلمات أخوات .. فاحذر!

يا غلام .. عليك بالاحتمال وقطع الشر ، للكلمات إذا كلمك واحد منهم كلمة ثم أجبته عنها جاءت أخواتها ، ثم يحضر الشر بينكما! .



الدعاة الهداة قليلون

آحادٌ أفرادٌ من الخلق يؤهلون لدعوة الخلق إلى باب الحق عزَّ وجلَّ ، وهم حجة عليهم إن لم يقبلوا منهم ، هم نعمة على المؤمنين نقمة على المنافقين أعداء دين الله عزَّ وجلّ .



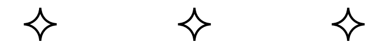
لا تسمنوا نفوسكم فتاكلكم

لا تسمنوا نفوسكم فإنها تاكلكم ، كمن ياخذ كلباً ضارياً فيربيه ويسمنه ، ويخلو معه ، فلا جرم ياكله. لا تطلقوا أعنة النفوس ، وتحدوا سكاكينها ، فإنها ترميكم في أودية الهلاك وتخدعكم ، اقطعوا موادها ولا تطلقوها في شهواتها .



نفوسكم تدعي الإلهية

يا قوم .. نفوسكم تدعي الإلهية وما عندكم خبر ، لأنها تتجبر على الحق عزَّ وجلَّ ، وتريد غير ما يريد .. وإذا جاءت أقضيتُه لا توافق ولا تصبر ، بل تعارض وتنازع! ، ما عندها من الاستسلام خبر ، قد قنعت باسم الإسلام ، وهذا لا ينفعها .



يا غلام .. لازمِ الخوف

يا غلام .. لازم الخوف ، ولا تامن حتى تلقى ربك عزَّ وجلّ .. ويوضع توقيع الأمان في يديك ، حينئذ ينبغي لك أن تامن ..

الحق عزَّ وجلَّ إذا اصطفى عبداً قربه وأدناه ، وكلما غلب عليه الخوف ألقى عليه ما يزيل ذلك ويُسَكِّنُ قلبه .



ويحك يا جاهل!

ويحك يا جاهل ، تعرض عن الحق عزَّ وجلَّ ، وتخلِّيه وراء ظهرك ، وتشتغل بخدمة الخلق !! .



إلى متى تشتغل بالدنيا والخلق ؟!

تواصلون الضياء بالظلام في الكد على النفوس التي هي عدوتكم ، وتُرضون أزواجكم بسخط ربكم عزَّ وجلَّ ، كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق عزَّ وجلَّ .

إنني أرى حركاتك وسكناتك وكلَّ همك لنفسك وزوجتك وولدك ، وما عندك من الحق عزَّ وجلَّ خبر !! .

في فَتِيتِكَ زجاج مُكَسّر!

ويحك! في فَتيتك زجاج مكسر وأنت تاكله ولا تعلم به ، لقوة شرهك ، وشدة حرصك! . بعد ساعة تقطع معدتك وتهلك ، كل بلائك لبعدك عن مولاك عزَّ وجلَّ واختيارك لغيره .



لا تؤذ أحداً إلا أن تؤمر

يا غلام .. اجهد أنك لا تؤذي أحداً ، وأن تكون نيتك صالحة لكل أحد ، إلا من أمرك الشرع باذيته ، فاذيتك له عبادة .



يا أهل هذه البلدة!

يا أهل هذه البلدة! قد كثر النفاق فيكم وقلّ الإخلاص ، وقد كثرت الأقوال بلا أعمال ، قول بلا عمل لا يسوى شيئاً ، بل هو حجة لا محجة ، القول بلا عمل كدار بلا باب ولا مرافق ، كنزٌ لا يُنفق منه ، هو مجرد دعوى بلا بينة ، صورة بلا روح ، صنمٌ لا يدانِ له ولا رجلان ولا بطش! . معظم أعمالكم كجسد بلا روح، الروح هو الإخلاص والتوحيد والثبات على كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا تغفلوا اعكسوا تصيبوا.



لا تحقروا أحداً من المسلمين!

لا تحقروا أحداً من المسلمين! فإن أسرار الحق عزَّ وجلَّ مبلورة فيهم ، تواضعوا في أنفسكم ولا تتكبروا على عباد الله عزَّ وجلّ .



ماهذا الاغترار العظيم ؟!

تنبهوا من غفلاتكم! ما أنتم إلا في غفلة عظيمة ، كانكم حوسبتم .. وعبرتم الصراط .. ورأيتم منازلكم في الجنة .. ما هذا الاغترار العظيم ؟! . كل واحد منكم قد عصى الله عزَّ وجلَّ معاصي كثيرة ، وهو لا يتفكر فيها

ولا يتوب منها ، ويظن أنها قد نُسيت! . هي مكتوبة في صحائفكم بتواريخ أوقاتها ، يحاسب ويعاقب على القليل والكثير منها .

استيقظوا يا غفل! انتبهوا يا نيام! تعرَّضوا لرحمة الله عزَّ وجلّ .



من مفاسد الحرص

ويحك .. الرزق مقسوم لا يزيد ولا ينقص ، ولا يتقدم ولا يتاخر ، أنت شاكٌ في ضمان الحق عزَّ وجلَّ ، حريصٌ على طلب ما لم يقسم لك ، حرصك قد منعك من الحضور عند العلماء ومشاهد الخير ، تخاف أن تنقص أرباحك وأن يقل زبونك !! .



إلهك مَنْ خِفْتَه ورجوتَه

ويحك! من أطعمك وأنت طفل في بطن أمك ؟! . أنت معتمد عليك وعلى الخلق وعلى دنانيرك ودراهمك ، وعلى بيعك وشرائك ، وعلى سلطان بلدك! . كل من اعتمدت عليه فهو إلهك ، وكل من خفته ورجوته فهو إلهك ، كل من رأيته في الضر والنفع ولم ترَ أن الحق عزَّ وجلَّ يجري ذلك على يديه فهو إلهك .

عن قليل ترى خبرك ، ياخذ الحق عزَّ وجلَّ منك سمعك وبصرك وبطشك ومالك وجميع ما اعتمدت عليه دونه ، ويقطع بينك وبين الخلق ، ويُقسِّي قلوبهم عليك ، ويقبض أيديهم عنك ، ويعزلك عن شغلك ، ويغلق الأبواب في وجهك ، يرددك من باب إلى باب ولا يعطيك لقمة ولا ذرة ، وإذا دعوته فلا يجيبك .

كل ذلك لشركك به واعتمادك على غيره ، وطلبك نِعَمَهُ من غيره واستعانتِك بها على معاصيه!! .

هذا قد رأيته جرى على كثير من هذا الجنس ، وهو الأغلب في العاصين ، ومنهم من يتدارك الأمر بالتوبة ، فيقبل الحق عزَّ وجلَّ توبته ، وينظر إليه بالرحمة ، ويعامله بالكرم واللطف .

يا خلق الله توبوا! يا علماء يا فقراء يا زُهَّاد يا عُبَّاد .. ما منكم إلا من يحتاج إلى توبة .



يا غلام! طهِّر قلبك

يا غلام .. احذر أن يرى الحق عزَّ وجلَّ في قلبك غيرهِ فتنتهك ، احذر أن يرى في قلبك خوفَ غيره أو رجاء غيرهِ أو حبَ غيرهِ . طهروا قلوبكم من غيرهِ لا تروا الضر والنفع إلا منه .



من عرف الله دلّ عليه

من كملت معرفته لله عزّ وجلّ صار دالاً عليه ، يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا ، ويعطى القوة حتى يهزم إبليس وجنده ، ياخذ الخلق من أيديهم .



لا تعتزل بزهد مع جهل!

يا من اعتزل بزهده مع جهله تقدم واسمع ما أقول : يا زهادَ الأرض تقدموا ، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل ، ما وقعتم بشيء ، تقدموا والقطوا ثمار الحِكَمِ رحمكم الله .



من نظر النعمة شكر المنعم

يا قوم .. قد غذاكم بنعمه وأنتم في بطون أمهاتكم وبعد خروجكم منها ، ثم أعطاكم العوافي والقوى والبطش ، ورزقكم طاعته وجعلكم مسلمين متبعين لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إذا رأيتم النعم منه ، زالت محبة الخلق من قلوبكم .



ويحك .. خلوتك بلا معنى!

ويحك .. تقعد في صومعتك وقلبك في بيوت الخلق منتظر لمجيئهم وهداياهم ، ضاع زمانك وجعلت لك الصورة بلا معنى .. إذا لم يكن لك باطن صحيح وقلب خال عما سوى الحق عزَّ وجلَّ وإلا فمجرد الخلوة لا ينفعك .



اخرج كالشعرة من العجين!

من أراد الفلاح فليبذل نفسه وماله للحق عزَّ وجلَّ ، ويخرج بقلبه من الخلق والدنيا كخروج الشعرة من العجين واللبن .



عِظِ الناسَ بحالك قبل قالك!

عن الحسن البصري τ أنه كان يقول : « عظ الناس بعلمك وكلامك ، يا واعظاً عظ الناس بصفاء سرك وتقوى قلبك ، ولا تعظهم بتحسين علانيتك مع قبح سريرتك » .



ألا يسعكم ما وسع الأوائل ؟!

أما تستحون .. يصف الحق عزَّ وجلَّ نفسه بصفات يرضاها له تتاولونها وتردونها عليه ؟ ما وسعكم ما وسع من تقدمكم من الصحابة والتابعين ، ربنا عزَّ وجلَّ على العرش كما قال من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم .

اللهم ارزقنا ووقفنا وجنبنا الابتداع .



كيف أُخرج الدنيا من قلبي ؟!

سال سائل : كيف أُخرج حب الدنيا من قلبي ؟ فقال : انظر إلى تقلبها باربابها وأبنائها ، كيف تحتال عليهم وتتلهى بهم ، وتُعَدِّيهم خلفها ، ثم ترقيهم من درجة إلى درجة حتى تعليهم على الخلق وتمكنهم من رقابهم ، وتظهر كنوزها وعجائبها ، فبينما هم فرحون بعلوهم وتمكنهم وخيبة عيشهم وخدمتها لهم ، إذا أخذتهم وقيدتهم وغرتهم ، ورمت بهم من ذلك العلو على رؤوسهم ، فتقطعوا وتمزقوا وأُهلكوا ، وهي واقفة تضحك بهم ، وإبليس إلى جنبها يضحك معها .

هذا فعلها بكثير من السلاخين والملوك والأغنياء ، من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ، بذلك ترفع ثم تضع ، تقدم ثم تؤخر ، تغني ثم تفقر ، تدني ثم تذبح . والنادر منهم من يسلم منها ، ويغلبها ولا

تغلبه ، ويُعان عليها ويسلم من شرها ، وهم آحاد وأفراد . إنما يسلم من شرها من عرفها واشتد حذره منها ومن حيلها .

يا سائل .. إن نظرت بعيني قلبك إلى عيوبها قدرت على إخراجها منه ، وإن نظرت إليها بعيني رأسك اشتغلت بزينتها عن عيوبها ، ولم تقدر على إخراجها من قلبك والزهد فيها ، وتقتلك كما قتلت غيرك!! .
جاهد نفسك حتى تطمئن ، فإذا اطمأنت عرفت عيوب الدنيا وزهدت فيها .



تبرأ من النفاق!

المنافق إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان . من بريء من هذه الخصال التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم فقد بريء من النفاق .

هذه الخصال هي المحك والفرق بين المؤمن والمنافق ، خذ هذا المحك وهذه المرآة وأبصر بها وجه قلبك .. انظر هل أنت مؤمن أو منافق .



اجعل دنياك آخرة

كل الدنيا فتنة ومشغلة إلا ما أُخذ بنية صالحة للآخرة ، إذا صلحت النية في التصرف في الدنيا صارت آخرة .



قيدوا النعم بالشكر

قيدوا نعم الحق عزَّ وجلَّ بشكره .. الشكر للحق عزَّ وجلَّ شيئان :

الأول : الاستعانة بالنعم على الطاعات والمواساة للفقراء منها .

والثاني : الاعتراف بها للمنعم بها والشكر لمنـزلها وهو الحق عزَّ وجلّ .



كل ما شغلك عن الله شؤمٌ

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال : كل ما يشغلك عن الله عزَّ وجلَّ فهو عليك مشؤوم .. إذا شغلتك نِعَمُه عنه فهي عليك مشؤومة .



يا من له ألف معبود!

قلبك لا يوافق لسانك ، فعلك لا يوافق قولك ، قل الله أكبر ألف مرة بقلبك ومرة بلسانك ، ما تستحي أن تقول لا إله إلا الله ولك ألف معبود غيره! . تب إلى الله عزَّ وجلَّ من جميع ما أنت فيه .

وأنت يا من يعلِّم العلم وقد قنع منه بالاسم دون العمل ، إيش ينفعك إذا قلت : أنا عالم ، فقد كذبت ، كيف ترضى لنفسك أنك تامر غيرك بما لا تعمله أنت!



ويحك .. تامر بالتوحيد وتشرك!

ويحك .. تامر الناس بالصدق وأنت تكذب ، تامرهم بالتوحيد وأنت مشرك ، تامرهم بالإخلاص وأنت مراء منافق ، تامرهم بترك المعاصي وأنت ترتكبها ، قد ارتفع الحياء من عينيك ، لو كان لك إيمان لاستحييت، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ » -رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح- .

لا إيمان لك ولا إيقان لك ولا أمانة ، خنت العلم فذهبت أمانتك ، وكُتبت عند الله خواناً ، لا أعرف لك دواء إلا التوبة والثبات عليها .



لا تتعود البطالة والكسل!

لا تتعود البطالة والكسل عن طاعة الحق عزَّ وجلَّ فإنه يبتليك عقوبة .. إلى متى تشتغل بنفسك وأهلك عن الحق عزَّ وجلّ ؟! .



عليك بالقناعة فإنها طوق النجاة

عَلِّمْ أولادك الصنائع وتفرغ لعبادة الله عزَّ وجلَّ ، فإن الأهل والولد لا يغنون عنك من الله شيئاً ، ألزم نفسك وأهلك وولدك القناعة بما لا بد لك منه ، وتفرَّغ أنت وهم لطاعة مولاكم عزَّ وجلَّ ، فإن كان لكم في الغيب سعة الرزق فهي تاتي في وقتها المقدر عند الله ، تراها من الحق عزَّ وجلَّ ، وتتخلص من الشرك بالخلق ، وإن لم يكن لك عند القدر ذلك فعندك غنى عن جميع الأشياء بزهدك وقناعتك .



من بطا به عمله لم يسرع به نسبه!

الرياء والنفاق والمعاصي سبب الفقر والذل والطرد من باب الحق عزَّ وجلَّ ، المرائي المنافق ياخذ الدنيا بدينه وتزييه بزي الصالحين من غير أهلية فيه ، يتكلم بكلامهم ويتلبس بثيابهم ولا يعمل مثل عملهم ، يدعي النسب إليهم وليس هو من نسبهم .



ما البينة على دعواك ؟!

قولك : لا إله إلا الله دعوى ، وتوكلك عليه وثقتك به وإعراض قلبك عن غيره بينة .

يا كذابين اصدقوا ، يا هاربين من مولاهم ارجعوا ، اقصدوا بقلوبكم باب الحق عزَّ وجلَّ وصالحوه واعتذروا إليه .



يا غلام .. ابك على نفسك!

يا غلام .. ما تستحي ؟! ابك على نفسك فإنك قد حُرمت الصواب والتوفيق ،

ما تستحي! تكون اليوم خائعاً وغداً عاصياً ، اليوم مخلصاً وغداً مشركاً .



ذنوبكم مزدحمة .. والعاقبة مبهمة!

يا قوم .. أنتم عن قريب موتى .. ابكوا على أنفسكم قبل أن يُبكى عليكم ، لكم ذنوب مزدحمة على عاقبة مبهمة ، قلوبكم مرضى بحب الدنيا والحرص عليها ، داووها بالزهد والترك والإقبال على الحق عزَّ وجلَّ ، سلامة الدين رأس المال ، والأعمال الصالحة هي الأرباح ، اتركوا الطلب لما يطغيكم واقنعوا بما يكفيكم .. العاقل لا يفرح بشيء حلاله حساب وحرامه عقاب .. أكثركم قد نسوا العقاب والحساب !! .



اصحب أرباب القلوب يكن لك قلب

يا غلام .. اصحب أرباب القلوب حتى يصير لك قلب .. لا بد لك من شيخ حكيم عامل بحكم الله عزَّ وجلَّ يهذبك ويعلمك وينصحك .



يا من باع كل شيء!

يا من باع كل شيء بلا شيء ، واشترى لا شيء بكل شيء ، قد اشتريت الدنيا بالآخرة وبعت الآخرة بالدنيا ، أنت هوس في هوس ، عدم في عدم ، جهل في جهل ، تاكل كما تاكل الأنعام من غير تفتيش ولا احتساب ولا سؤال .. من غير نية من غير أمر من غير فعل !! .



القلب يصدأ وجلاؤه الورع

القلب يصدأ .. فإن تداركه صاحبه وإلا انتقل إلى السواد ، يسْودُّ لبعده عن النور ، يسْودُّ لحبه الدنيا والتحويز عليها من غير ورع ، لأن من تمكن من قلبه حب الدنيا زال ورعه فيجمعها من حلال وحرام ، يزول تمييزه في جمعه ، يزول حياؤه من ربه عزَّ وجلَّ ومراقبته .



يا قوم .. اللسان غلام القلب

يا قوم .. راقبوا ربكم عزَّ وجلَّ في خلواتكم وجلواتكم ، اجعلوه نصب أعينكم حتى كانكم ترونه فهو يراكم . من كان ذاكراً الله عزَّ وجلَّ بقلبه فهو الذاكر .. اللسان غلام القلب وتبع له .



المواعظ حياة القلوب

داوم على سماع المواعظ .. فإن القلب إذا غاب عن المواعظ عمي.



حقيقة التوبة .. تعظيم أمر الله

حقيقة التوبة تعظيم أمر الحق عزَّ وجلَّ ، في جميع الأحوال ، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه : الخير كله في كلمتين : التعظيم لأمر الله عزَّ وجلَّ ، والشفقة على خلقه ، كل من لا يعلم أمر الله عزَّ وجلَّ ، ولا يشفق على خلق الله ؛ فهو بعيد من الله .



ضاع عمركم في أكلوا وأكلنا .. !!

ضاع عمركم في أكلوا وأكلنا ، وشربوا وشربنا ، ولبسوا ولبسنا ، وجمعوا وجمعنا! . من أراد الفلاح فلْيصبِّر نفسه عن المحرمات والشبهات والشهوات ، ويصبر على أداء أمر الله عزَّ وجلَّ والانتهاء عن نهيه والموافقة لقدره .



التوبة .. ولادة جديدة

توبوا بقلوبكم ثم بالسنتكم .. التوبة قلب دولة .. تقلب دولة نفسك وهواك وشيطانك وأقرانك السوء ، إذا تبت قلبت سمعك وبصرك ولسانك من كدر الحرام والشبهة ، وتتورع في معيشتك وبيعك وشرائك ، وتجعل كل همك مولاك عزَّ وجلَّ ، تزيل العادة وتترك مكانها العبادة ، تزيل المعصية وتترك مكانها الطاعة ، فحينئذ يكون ظاهرك محفوظاً وباطنك بربك عزَّ وجلَّ مشغولاً ، فإذا تمّ لك هذا .. فلو جاءت إليك الدنيا بحذافيرها ومكنتك منها ، وتبعك الخلق باجمعهم .. لم يضرك ذلك .



من لا ينفعك لحظُه لا ينفعك وعظه

العلم جُعل للعمل لا لمجرد الحفظ وإيراده على الخلق ، تعلَّم واعمل ثم علِّم غيرك ، إذا علمت ثم عملت تكلم العلم عنك ، وإن سكتَ تكلمَ بلسان العمل أكثر مما يتكلم بلسان العلم . ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه : من لا ينفعك لحظه لا ينفعك وعظه .



يا منافق .. عملك قشر لا لب فيه !

كل عمل لا إخلاص فيه فهو قشر لا لب فيه ، خشبة ممدودة ، جسد بلا روح ، صورة بلا معنى . وهذا عمل المنافقين .



ويحك .. أنت مستظل بشجرة الغفلة !!

ويحك .. قد خرست!! .. استغث إلى الحق عزَّ وجلَّ ، ارجع إليه باقدام الندم والاعتذار حتى يخلصك من أيدي أعدائك ، وينجيك من لجة بحر هلاكك ، تفكر في عاقبة ما أنت فيه وقد سهل عليك تركه ، أنت مستظل بشجرة الغفلة .. اخرج من ظلها وقد رأيت ضوء الشمس وقد عرفت الطريق .. شجرة الغفلة تربى بماء الجهل ، وشجرة اليقظة والمعرفة تربى بماء الفكر ، وشجرة التوبة تربى بماء الندامة ، وشجرة المحبة تربى بماء الموافقة .



جاوزت سن الأربعين .. يا نفس هلا ترعوين ؟!

يا غلام .. قد كان لك بعض العذر ، أنت صبي وشاب إلى الآن ، قد قاربت الأربعين أو قد جاوزتها وأنت تلعب بما يلعب الصغار ، احذر من مخالطة الجهال .. اصحب الشيوخ المتقين ، واهرب من الشباب الجاهلين ، قم ناحية عن القوم ، فمن جاء منهم إليك فكن به كالطبيب لهم ، كن للخلق كالأب الشفيق على أولاده ، أكْثرْ من طاعة الله عزَّ وجلَّ فإن طاعته ذكره .



المؤمن وقَّافٌ عند حدود الله

المؤمن مطيع لربه عزَّ وجلَّ موافق له صابر معه ، يقف عند حظوظه وكلامه وأكله ولبسه وجميع تصرفاته، والمنافق لا يبالي بهذه الأشياء في جميع أحواله .



اخلعوا ثياب الحرص يا أدعياء الزهد

يا مدعين الزهد باقوالكم وأفعالكم .. قد تلبستم بثياب الزهاد وبواطنكم ملأى رغبة وحسرة على الدنيا!! . لو خلعتم هذه الثياب وأظهرتم الرغبة التي في قلوبكم ، لقد كان يكون أحب إليكم وأبعد لكم من النفاق . الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه ويتناولها .. فلبس ظاهره بها وقلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها .



الجاهل بالعلم مستغنٍ برأيه وهواه!

كل جاهل بالعلم مستغنٍ برأيه قابلٌ كلامَ نفسِهِ وهواه وشيطانه ، فهو عبد إبليس تابع له قد جعله شيخه !!. يا جهالاً ويا منافقين ، ما أظلمَ قلوبَكم! .. وما أنتنَ روائحَكم! .. وما أكثرَ لقلقةَ ألسنتكم! . توبوا من جميع ما أنتم فيه .



كُنْ عملاً بلا كلام

يا غلام .. اهجر الكلام عن الخلق ما دمت قائماً مع نفسك وهواك .. كن عملاً بلا كلام ، إخلاصاً بلا رياء ، توحيداً بلا شرك ، خمولاً بلا ذكر .



حذارِ أن يقعد قلبك خلفك!

يا غلام .. ارجع إلى ربك بقلبك قبل أن يقعد خلفك ، قد قنعت من أحوال الصالحين بالكلام فيها والتمني لها .. كالقابض على الماء يفتح يده فلا يرى فيها شيئاً .



التمني وادي الحُمْق

ويحك .. التمني وادي الحمق ؟! .. تعمل أعمال أهل الشر وتتمنى درجات أهل الخير ، من غلب رجاؤه خوفه تزندق ، ومن غلب خوفُه رجاءه قنط ، والسلامة في اعتدالهما .



يا من يشكو إلى الخلق مصائبه ؟!

يا من يشكو إلى الخلق مصائبه! .. إيش ينفعك شكواك إلى الخلق ؟! .. لا ينفعونك ولا يضرونك ، وإذا اعتمدت عليهم وأشركت في باب الحق عزَّ وجلَّ يبعدونك ، وفي سخطه يوقعونك ، وعنه يحجبونك ، أنت يا جاهل تدعي العلم ، من جملة جهلك طلبك الدنيا من غير ربك عزَّ وجلَّ ، تطلب الخلاص من الشدائد بشكواك إلى الخلق .



لا تصحب نفسك قبل أن تتعلم

ويحك .. إذا كان الكلب الشره يتعلم حفظ الصيد ويترك شرهه وطبعه ، وهذا الطائر أيضاً بالتعليم يخالف طبعه ، ويترك ما كان عليه من أكل الصيود التي تُجعل له ، فنفسك أولى بالتعليم .. علِّمها وفهِّمها حتى لا تاكل دينك وتمزقك وتخون في أمانات الحق عزَّ وجلَّ المودعة عندها ، دين المؤمن عنده لحمه ودمه .. لا تصحبها قبل تعليمك لها .. إذا تعلمتْ وفهمتْ واطمأنتْ حينئذ استصحبها أينما توجهتَ .. لا تفارقها في جميع الأحوال . إذا اطمأنت صارت حليمة عاملة راضية بما ياتيها القدر به من الأقسام .



صاحبْ مولاك بادب التسليم

الحق عزَّ وجلَّ لا يُصحب مع الاعتراض والمنازعة ، وإنما يُصحب مع حسن الأدب وسكون الظاهر والباطن والموافقة الدائمة ، كل من وافق القدر دامت له الصحبة مع الحق عزَّ وجلَّ ، العارف بالله العالم به قائم معه لا مع غيره ، موافق له لا لغيره ، حي به ميت مع غيره .



يا غلام .. تكلم أو اسكت بنية صالحة!

يا غلام .. إذا تكلمت فتكلم بنية صالحة ، وإذا سكت فاسكت بنية صالحة ، كل من لم يقدم النية قبل العمل فلا عمل له .



من أنت يا ابن آدم ؟!

من أنت يا ابن آدم ؟! .. أنت مخلوق من ماء مهين .. تواضع لربك عزَّ وجلَّ وذل له .. إذا لم يكن تقوى فلست بكريم عند الله عزَّ وجلَّ ولا عند عباده الصالحين .



يا قوم عليكم رقباء !!

يا قوم .. عليكم رقباء ، أنتم في توكيل الحق عزَّ وجلَّ وما عندكم خبر ، كونوا عقلاء ، افتحوا أعين قلوبكم ، إذا حضر أحدَكم في بيته جماعةٌ فلا يكن مبتدئاً بالكلام ، بل يكون كلامه جواباً ، ولا يسال عما لا يعنيه ، التوحيد فرض ، وطلب الحلال فرض ، وطلب ما لا بد منه من العلم فرض ، والإخلاص في العمل فرض ، وترك العوض على العمل فرض . اهرب من الفاسقين والمنافقين ، والتحق بالصالحين والصديقين .



التوبة عرس الإيمان

يا قوم .. توبوا من ترككم التقوى ، التقوى دواء وتركها داء ، توبوا فإن التوبة دواء والذنوب داء .. التوبة عرس الإيمان ، والمواظبة على مجالس الذكر وطاعة الحق عزَّ وجلَّ شفاء .. ، توبوا بلسان الإيمان وقد جاءكم الفلاح .. تكلموا بلسان التوحيد والإخلاص وقد جاءكم الفلاح .



كن عاقلاً ولا تكذب!

كن عاقلاً ولا تكذب .. تقول : أنا خائف من الله عزَّ وجلَّ ، وأنت تخاف من غيره .. العاقل لا يخاف لومة لائم في جانب الله عزَّ وجلَّ ، هو أصم عن كلام غير الله عزَّ وجلّ . الخلق كلهم عنده عجزة مرضى فقراء ، هذا وأمثاله هم العلماء ، الذين يُنتفع بعلمهم . العلماء بالشرع وحقائق الإسلام هم أطباء .. يا من قد انكسر دينُه تَقدَّمْ إليهم حتى يجبروا كسرك .



لا يعرف الرياء إلا المخلصون

لا يعرف الرياء إلا المخلصون .. كانوا فيه وتخلصوا منه . هو عقبة في طريق القوم لا بد لهم من العبور عليها ؛ الرياء والعجب والنفاق من جملة سهام الشيطان التي يرمي بها القلوب .

اقبلوا من المشايخ وتعلموا منهم السير في الطريق الموصل إلى الحق عزَّ وجلَّ ، فإنه طريق قد سلكوه ، سلوهم عن آفات النفوس والأهوية والطباع ؛ فإنهم قد قاسوا آفاتهم ، وعرفوا غوائلهم .



لا تنهزم من سهام النفس!

لا تغتر بنفخ الشيطان فيك ، ولا تنهزم من سهام النفس ، فإنها ترميك بسهامه ، فإنه لا يقدر عليك إلا بطريقها .



شيطان الجن يتوسل بالنفس

شيطان الجن لا يقدر عليك إلا بشيطان الإنس ، وهي : النفس والأقران السوء . استغث بالله عزَّ وجلَّ واستعن به على هؤلاء الأعداء فإنه يغيثك .

يا غلام .. اعرض عن المنافقين

يا غلام .. أعرض عن المنافقين المتعرضين لمقت الله عزَّ وجلَّ ، كن عاقلاً ولا تقرب أهل الزمان فإنهم ذئاب عليهم ثياب ، خذ مرآة الفكر وانظر فيها ، واسالِ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يبصِّرك بك وبهم .



عليك بالإيمان واليقين!

يا غلام .. تحتاج إلى إيمان يُسيِّرك في طريق الحق عزَّ وجلَّ ، وإلى إيقان يثبتك فيها .



امنع نفسك الشهواتِ تُقْبَل

يا غلام .. امنعها -يقصد النفس- الشهوات واللذات وأطعمها طعاماً طاهراً لا يكون نجساً ، الطاهر الحلال ، والحرام النجس .. غذها من الحلال حتى لا تبطر وتشمخ وتسيء الأدب .



ذهب لبُّ علمك وبقي قشرُه!

يا من يدعي العلم ويطلب الدنيا من أبنائها ويذل لهم ، قد أضلك الله على علم ، ذهبت بركة علمك ، ذهب لبه وبقي قشره !! .

وأنت يا من يدعي العبادة وقلبه يعبد الخلق ويخافهم ويرجوهم ، ظاهر عبادتك لله عزَّ وجلَّ وباطنها للخلق ، كل طلبك وهمك لما بايديهم من الدراهم والدينار والحطام ، ترجو حمدهم وثناءهم ، وتخاف ذمهم وإعراضهم ، تخاف منعهم وترجو عطاءهم بكثرة تماديك وتخادعك ولين كلامك على أبوابهم !! .



ويلك .. يا عابد الخلق!

ويلك .. أنت مشرك منافق هراء مداخل ، ويلك على من تتبهرج ، على من { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } [غافر : 19].

ويلك .. تقف في الصلاة وتقول : الله أكبر .. وأنت تكذب في قولك ، الخلق في قلبك أكبر من الله عزَّ وجلَّ ، تب إلى الله عزَّ وجلَّ ولا تعمل حسنة لغيره .. كن ممن يريد وجهه ، أعط الربوبية حقها ، لا تعمل للحمد والثناء ، لا للعطاء ولا للمنع .



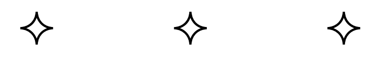
قلِّلْ حرصك .. قصِّر أملك!

ويحك .. رزقك لا يزيد ولا ينقص ، ما قد قُضي عليك من الخير والشر لا بد من مجيئه ، فلا تشتغل بشيء قد فُرِغَ منه واشتغل بطاعته ؛ قلل حرصك وقصر أملك ، واجعل الموت نصب عينيك وقد أفلحت ، عليك بموافقة الشرع في جميع أحوالك .



جدد إسلامك يا هذا!

ارجع إلى الله عزَّ وجلَّ بتجديد الإسلام وحسن التوبة والإخلاص فيها ، قبل أن يجيء الموت فيغلق الباب في وجهك فلا تقدر على الدخول إلى باب التوبة ، ارجع إليه باقدام قلبك حتى لا يغلق في وجهك باب فضله ، ويكلك إلى نفسك وحولك وقوتك ومالك ، ولا يبارك لك في جميع ما أنت فيه .



أما تستحي ؟!

ويحك .. ما تستحي منه عزَّ وجلَّ ، وقد جعلت دينارَك ربَّك ودرهمَكَ همَّك ، ونسيته بالكلية ؟ عن قريب ترى خبرك! .



اجعل دكانك لعيالك وقلبك لربك

ويحك .. اجعل دكانك ومالك لعيالك تكسب لهم بامر الشرع ، ويكون قلبك متوكلاً على الله عزَّ وجلَّ ، اخلب رزقك ورزقهم منه لا من المال والدكان ، فيجري رزقك ورزقهم على يديك ، ويجعل فضله وقربه والأنس به لقلبك .



تُبْ واندمْ وابكِ وواسِ

أغلق باب قلبك ، وأيْئِسِ الكلّ من الدخول إليه ، وأَنزلْ فيه ذكرَ الحق عزَّ وجلّ .. وتب توبة في إثر توبة من أعمالك ، وندامة في إثر ندامة من تجريك وسوء أدبك ، وأكثرِ البكاءَ على ما كان منك ، وواسِ الفقراءَ بشيء من مالك لا تبخل به ، فعن قريب تفارقه ، المؤمن الموقن بالخلف في الدنيا والآخرة لا يكون بخيلاً .



لا تجعل الدنيا أكبر همك!

الشرعُ إنما شَرَعَ الكسبَ ليُستعان به على طاعة الحق عزَّ وجلَّ ، أما أنت إذا اكتسبت : استعنتَ به على المعصية ، وتركتَ الصلاة وفعلَ الخير ، ولم تخرج الزكاة! . فانت في معصية لا في طاعة ، يصير كسبك كقطع الطريق ، عن قريب يجيء الموت فيفرح به المؤمن ويغتم له الكافر والمنافق .



أين الغاضُّ لبصر قلبهِ وقَالبهِ ؟!

أين التائب الثابت على توبته ؟ . أين المستحي من ربه عزَّ وجلَّ المراقبُ له في جميع الأحوال ؟ . أين المتعفف عن المحارم في خلوته وجلوته ؟ . أين الغاض لبصر قلبه وقالبه ؟ .



اصبر على الفقر

يا فقير .. اصبر على فقرك فإن فقر الدنيا ينقطع .



الطاعة تفتح عين قلبك

يا غلام .. ما دام حب الدنيا في قلبك لا ترى شيئاً من أحوال الصالحين ، ما دمت مكدياً من الخلق مشركاً بهم لا تنفتح عينا قلبك .



ارجع بحوائجك إلى الله

ويلك .. الحياء من الله عزَّ وجلَّ يكون لا من الخلق ، هو الكريم وغيره لئيم ، هو الغني وغيره الفقير ، دأبه العطاء ودأب غيره المنع ، استدلّ عليه بصنعته ، حافظ على حدود شرعه ولازم تقواه ، فإنك إذا دُمت على تقواه دلَّك عليه .

ويحك .. عمرُك يذوب

ويحك .. عمرك يذوب وما عندك خبر ، إلى متى هذا الإعراض عن الآخرة والإقبال على الدنيا ؟! .



يا مسكين .. إبك على نفسك!

ويحك .. رزقك لا ياكله غيرك ، موضعك من الجنة والنار لا يسكنه غيرك ، قد مَلَكَتْكَ الغفلة وأسرك الهوى ، كل همك في الأكل والشرب والنكاح والنوم وبلوغ أغراضك ، يا مسكين ابك على نفسك ، يموت ولدك تقوم القيامة عليك ، يموت دينك ولا تبالي ولا تبكي عليه ، مالك عقل! لو كان لك عقل بكيت على ذهاب دينك .



مالك لا تتجر برأس مالك ؟!

معك رأس مال وأنت لا تتجر به ؛ هذا العقل والحياء هما رأس المال ، وأنت ما تحسن أن تتجر بهما ، علم لا تعمل به وعقل لا تنتفع به وحياة لا تفيد ؛ كبيت لا يُسكن ، وكنز لا يُصرف ، وطعام لا يؤكل .



انتبه من غفلة النوم!

انتبه من غفلة النوم ، واغسل وجهك بماء اليقظة ، فانظر ما أنت مسلم أو كافر ، مؤمن أو منافق ، موحد أو مشرك ، مراءٍ أو مخلص ، موافق أو مخالف ، راضٍ أو ساخط ، الحق عزَّ وجلَّ لا يبالي بك رضيت أم سخطت ، ضرر هذا ومنفعته عائدان إليك ، سبحان الكريم الحليم المتفضل ، الكل تحت لطفه وفضله ، لو لم يلطف بنا لهلكنا أجمع .



يا أعداءَ نعمِ الله!

يا قوم .. الدنيا تذهب ، والأعمار تفنى ، والآخرة قريبة منكم ، وما همكم له بل همكم للدنيا وجمعها ، أنتم نعم الله عزَّ وجلَّ ، إذا كتمتم نعم الله عزَّ وجلَّ ولم تشكروه عليها سلبها منكم .



ما فائدة دعواك بلا بَيِّنة ؟!

ويلك! لا تَجيْء بمحض العلم فحسب ، كما لا تنفع دعوى بلا بينة لا ينفع علم بلا عمل .. يا تاركين العمل بالعلم! أحدكم يحذق الشِّعر بعبارته وفصاحته وبلاغته ، وليس عمل ولا إخلاص .. لو تهذَّب قلبُك لتهذبت جوارحك ، لأنه ملك الجوارح ، فإذا تهذب الملك تهذبت الرعية ؛ العلمُ قِشر والعمل لب ؛ إنما يُحفَظُ القِشرُ حتى يُحفظَ اللبُّ ، وإنما يُحفظ اللبُّ حتى يُستخرج منه الدهن ، فإذا لم يكن في القشر لبٌ ما يُصنع به ؟! . وإذا لم يكن في اللب دهنٌ فما يُصنع به ؟! العلم قد ذهب ، لأنه إذا ذهب ، لأنه إذا ذهب العمل به فقد ذهب ، إيش ينفعك حفظه ودراسته بلا عمل ؟! . يا عالم! إن أردت خير الدنيا والآخرة فاعمل بعملك وعلم الناس .



يا غني .. واسِ الناس

يا غني! إن أردت خير الدنيا والآخرة فواس الناس الفقراء بشيء من مالك .



ويلك! .. أنت تعبد الله بغير علم ، وتزهد بغير علم ، وتاخذ الدنيا بغير علم . ذلك حجابٌ في حجاب ، مَقَتٌ في مقت .. لا تميز الخير من الشر ، لا تفرق بين ما هو لك وما هو عليك ، ما تعرف صديقك من عدوك!! . كل ذلك لجهلك بحكم الله عزَّ وجلَّ ، وتركك لخدمة الشيوخ ، شيوخُ العمل وشيوخُ العلم يدلونك على الله عزَّ وجلّ .

القول أولاً والعمل ثانياً ، وبه تصل إلى الحق عزَّ وجلَّ . وما وصل من وصل إلا بالعلم والزهد بالدنيا والإعراض عنها بالقلب والقالب . المتزهدُ يُخرِجُ الدنيا من يديه ، والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه ؛ زهدوا في الدنيا بقلوبهم فصار الزهد طبعاً لهم .. خالط ظواهرهم وبواطنهم .. انطفت ناريةُ طباعهم ، انكسرت أهويتُهم ، اطمأنت نفوسهُم واستحال شرُّها .



اعرفْ حقيقة الدنيا!

يا غلام .. هذا الزهد ليس هو صنعة تعمله ، ليس هو شيئاً تاخذه بيدك وترميه ، بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل .



الزاهد لا يرجو ولا يخشى الخلق

يا غلام .. إذا صح لك الزهد في الدنيا ، فازهد في اختيارك وفي الخلق .. فلا تخافهم ولا ترجوهم ، وفي جميع ما تامرك فيه نفسك ، فلا تقبل منها إلا بعد مجيء أمر الله عزَّ وجلَّ .



ذنوبكم كالأمطار!

ذنوبكم كالأمطار .. فلتكن توباتكم كل لحظة في مقابلتها!



ويحك .. أنظر إلى القبور الدارسة!

ويحك .. أنت بَطِرٌ ، أنت أَشِرٌ ، أنت شَبِقٌ ، أنت هوىً ، أنت عبارةٌ .. أُنظر إلى القبور الدارسة وخاخب أهلها بلسان الإيمان فإنهم يخبرونك عن أحوالهم! .



القلب راعي الجوارح

إذا أخلص القلب أخلصت الجوارح وتخلصت .. القلب راعي الجوارح ، فإذا استقام استقامت ، إذا استقام القلب والجوارح كَمُلَ أمرُ المؤمن وصار راعياً على أهله وجيرانه وأهل بلده ، يرتفع حالُهُ على قدر قوة إيمانه وقربه من مولاه .



النجاة في ثلاثة

يا غلام .. حَصِّلِ العلم ، ثم العمل ، وأَخْلِصْ .



الغضب محمودٌ ومذموم

الغضب إذا كان لله عزَّ وجلَّ فهو محمود ، وإذا كان لغيره فهو مذموم ، المؤمن يحتدُّ لله عزَّ وجلَّ لا لنفسه ، يحتدُّ لدينه لا نُصرةً لنفسه ، يغضب إذا خُرق حدٌّ من حدود الله عزَّ وجلَّ كما يغضب النمر إذا أخذوا صيده . فلا جرم يغضب الله عزَّ وجلَّ لغضبه ويرضى لرضاه .



لا تُظْهِرِ الغضبَ لله وهو لنفسك!

لا تُظهر الغضبَ للهِ عزَّ وجلَّ وهو لنفسك ، فتكون منافقاً وما أشبه ذلك ، لأن ما كان لله عزَّ وجلَّ يتم ويبقى ويزداد ، وما كان لغيرهِ يتغير ويزول ، فإذا فعلت فعلاً فَأَزِلْ نفسك وهواك وشيطانك منه ، ولا تفعله إلا لله عزَّ وجلَّ وامتثالاً لغيره ، لا تفعل شيئاً إلا بامرٍ حزم من الله عزَّ وجلَّ ، إما بواسطة الشرع ، أو بإلهام من الله عزَّ وجلَّ لقلبك مع موافقة الشرع .



ارغبْ في الأنس بالله!

ازهد فيك وفي الخلق وفي الدنيا يُرِحْكَ من الخلق ، وارغب في الأنس بالحق عزَّ وجلَّ والراحة بقربه ، لا أنس إلا الأنس به ، ولا راحة إلا معه ، بعد الصفاء من كدُرات نفسك وهواك .

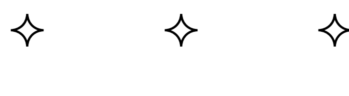


لا تتعامل مع الله بباطنٍ نجس

كما لا يحل أن تدخل على الملوك مع نجاسة ظاهرك ، لِمَ تدخل على مالك الملوك الذي هو الحق عزَّ وجلَّ مع نجاسة باطنك ؟ .. في قلبك معاصي وخوفٌ من الخلق ، ورجاءٌ لهم ، وحب الدنيا وما فيها . وكلٌّ هذا من نجاسة القلوب .

زيادة الإيمان بطاعة الرحمن

إذا صحت التوبة صح الإيمان وازداد عند أهل السنة . إن الإيمان يزيد وينقص : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .



تَعَلَّمْ متى تتكلم

عليك بالصمت والحلم عن جهل الجاهلين وثوران طباعهم ونفوسهم وأهويتهم ، أما إذا ارتكبوا معصية الحق عزَّ وجلَّ فلا صمت فإنه يحرم ، يصير الكلام عبادة وتركه معصية . إذا قدرت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تقصر عنه ، فإنه باب خير قد فُتح في وجهك فبادر بالدخول فيه .



شروط الطمانينة عند الذكر

يا غلام .. إن أردت الفلاح فَأخْرِج الخلق من قلبك ، لا تخفهم ولا ترجهم ، فإذا صح لك هذا فقد صحت لك الطمانينة عند ذكر الله عزَّ وجلَّ .



متى تُسمى مستيقظاً ؟

أدِّ الأمرَ ، وانتهِ عن النهي ، واصبر على هذه الآفات ، وتقرَّب بالنوافل .. وقد سُميت مستيقظاً عاملاً لطلب التوفيق من ربك عزَّ وجلَّ ، سَلْهُ وتذلّل بين يديه حتى يهيء لك أسباب الطاعة .



أزِل القيودَ من أقدام نفسك!

ويحك .. قد قيدت نفسك بالخوف من الخلق والرجاء لهم ، أَزِلْ هذه القيود من رجليها وقد قامت إلى خدمة ربها عزَّ وجلَّ ، وصارت مطمئنة بين يديه ، زَهِّدها في الدنيا وشهواتها .. وجميع ما فيها .



الزم المحبين لله!

من رأى محباً لله عزَّ وجلَّ فقد رأى الله عزَّ وجلَّ بقلبه .. المحبون له رضوا به دون غيره ، استعانوا به ، واقتصروا عمن سواه .



المربي .. يفتل الحبال الرخوة

اسمعوا واعملوا فإني أفتل في حبالكم ، أفتل حبالكم الرخوة وأصل المقطع منها ، ليس لي هم إلا همكم ، ليس لي غم إلا غمكم .



كونوا ذَهّابين وَهّابين!

القومُ .. شُغلهم البذلُ وإيجادُ الراحة للخلق .. نهابون وهابون ، ينهبون من فضل الله عزَّ وجلَّ ورحمته ، ويهبونه للفقراء والمساكين المضَّيق عليهم ، يقضون الديون عن المدينين العاجزين عن قضائه ، هم الملوك لا ملوك الدنيا ، فإنهم ينهبون ولا يهبُون .



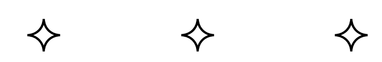
التكبُّر مصدر آثام .. فتنبَّه!

دع منك التكبر على الحق عزَّ وجلَّ وعلى الخلق ، فإنه من صفات الجبابرة الذين يكبهم الله عزَّ وجلَّ على وجوههم في نار الجحيم ، إذا أغضبتَ الله عزَّ وجلَّ فقد تكبرت عليه ، إذا أذَّن المؤذن فلم تجبه بقيامك إلى الصلاة فقد تكبرت عليه ، إذا ظلمت أحداً من خلقه فقد تكبرت عليه ، تب إليه وأخلص في توبتك قبل أن يهلكك بأضعف خلقه ، كما أهلك نمرود وغيره من الملوك لما تكبروا عليه ؛ أذلهم بعد العز ، أفقرهم بعد الغنى ، عذبهم بعد النعيم ، أماتهم بعد الحياة .



تملَّكِ الدنيا ولا تحبَّها

كونوا من المتقين! .. الشرك في الظاهر والباطن ، الظاهر عبادة الأصنام ، والباطن الاتكالُ على الخلق ورؤيتُهم في الضر والنفع! . وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها ، يملكها ولا تملكه ، تحبه ولا يحبها ، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها ، يستخدمها ولا تستخدمه ، يفرقها ولا تفرقه ، قد صلح قلبه لله عزَّ وجلَّ ، ولا تقدر الدنيا تفسده ، فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه . اتركوا الدنيا في أيديكم .. لمصالح عيال الحق عزَّ وجلّ .. وأخرجوها من قلوبكم .. فلا جرم لا يضركم ، ولا يَغُرَّكم نعيمُها وزينتُها ، فعن قريب تذهبون وتذهب بعدكم! .



من استغنى برأيه ضَلّ وذَلّ وزَل

يا غلام .. لا تستغن برأيك فإنك تضل ، من استغنى ضل وذل وزل ، إذا استغنيت برأيك حُرمت الهداية والحماية لأنك ما طلبتها ولا دخلت في سببها ، تقول : أنا مستغن عن علم العلماء ، وتدعي العلم ، فاين

العمل ؟! ما تاثير هذه الدعوى ؟ ما مصداقها ؟ إنما تتبين صحة دعواك للعلم بالعمل والإخلاص والصبر عند البلاء ، وأن لا تتغير ولا تجزع ولا تشكو إلى الخلق .



يا مدعي الفهم .. أين فهمُك ؟!

أنت أعمى كيف تدعي البصر ، أنت سقيم الفهم كيف تدعي الفهم ؟ تُبْ من دعواك الكاذبة إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعليك به دون غيره .



ابدأ بِخُوَيْصَةِ نفسك

عليك بخويصة نفسك إلى أن تطمئن وتعرف ربها عزَّ وجلّ فحينئذ التفت إلى غيرك .



إني أراكم مفاليس!

يا رجالاً ويا نساء! قد أفلح منكم من كان معه ذرة من الإخلاص ، ذرة من التقوى ، ذرة من الصبر والشكر ، إني أراكم مفاليس .



المجلس الخامس والثلاثون

ويحكم .. أعمالكم تصعد إلى السماء!

ويحكم يامتكبرين .. عباداتكم لا تدخل الأرض إنما تصعد السماء قال الله عزّ وجلّ : { ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... } [فاطر : 10] .

ربنا عزَّ وجلَّ على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وعلمه محيط بالأشياء مبدع ، سبع آيات في القرآن في هذا المعنى لا يمكنني محوها لأجل جهلك ورعونتك .



إنما أخاف الله تعالى

فزعني بسيفك ما أفزع ، ترغبني في مالك ما أرغب ، إنما أخاف الله عزَّ وجلَّ وما أخاف غيره ، أرجوه ولا أرجو غيره ، أعبده ولا أعبد غيره ، أعمل له ولا أعمل لغيره ، رزقي عنده وبيده .



الدنيا سوقٌ .. والناقد بصير

هذه الدنيا سوق .. بعد ساعة لا يبقى فيه أحد ، عند مجيء الليل يذهب أهله منه . اجتهدوا أنكم لا تبيعون ولا تشترون في هذا السوق إلا ما ينفعكم غداً في سوق الآخرة .. فإن الناقد بصير. توحيد الحق عزَّ وجلّ .. الإخلاص في العمل له .. هو النافق هناك ، وهو قليل عندكم! .



لا تطلب من الخلق ما ليس لك

يا غلام .. كن عاقلاً ولا تستعجل فإنه ما يقع بيدك شيء بعجلتك ، لا تظلم الخلق وتطلب منهم ما ليس لك عندهم .



إذا كنت ضعيفاً .. فلا تطلب

يا غلام .. الأولى عندي في حال ضعفك ألا تطلب من أحد شيئاً .. وإن قدرت أن تعطي ولا تاخذ فافعل ، وتخدم ولا تطلب الخدمة من غيرك فافعل .



إياك أن تكون ظالماً

اهربْ من الخلق ، واجهد أن لا تكون مظلوماً ولا ظالماً ، وإن قدرت فكن مظلوماً ولا تكن ظالماً ، مقهوراً لا قاهراً ، نصرة الحق عزَّ وجلَّ للمظلوم ، ولا سيما إذا لم يجد ناصراً من الخلق .



الصبر سبب للنّصرة والرفعة والمعزة .. اللهم إنا نسالك الصبر.



لا تستقيم نية إلا بجهاد

اجتهد ألا تاكل لقمة ، ولا تمشي خطوة ، ولا تعمل شيئاً في الجملة إلا بنية صالحة ، تَصْلُحُ للحق عزَّ وجلَّ ، إذا صحَّ لك هذا فكل عمل تعمله يكون له لا لغيره ، تزول عنك الكلفة وتصير هذه النية طبعاً .



ويحك .. خَلقٌ وخالقٌ لا يجتمعان

ويحك .. خلق وخالق لا يجتمعان ، دنيا وأخرى في القلب لا يجتمعان ، لا يُتصور ، لا يصح ، لا يجيء منه شيء ؛ إما الخلق وإما الخالق ، إما الدنيا وإما الآخرة . وقد يُتصور أن يكون الخلق في ظاهرك والخالق في باطنك ، والدنيا في يدك والآخرة في قلبك ، أما في القلب فلا يجتمعان . انظر لنفسك واختر لها ، فإن أردت الدنيا فاخرج الآخرة من قلبك ، وإن أردت الآخرة فاخرج الدنيا من قلبك .



ويحك .. تسترت عن الخلق!

ويحك .. تسترت عن الخلق ، لا عن الخالق ، يا آكل السم عن قريب يتبين فعله في جسدك ، أكل الحرام سم لجسد دينك ، ترك الشكر على النعم سم لدينك ، عن قريب يعاقبك الحق عزَّ وجلَّ بالفقر والسؤال للخلق ورفع الرحمة من قلوبهم لك ، وأنت يا تارك العمل بعلمه عن قريب يُنسيكَ العلمَ ويُذْهِبُ بركته من قلبك ، يا جهالاً! لو عرفتموه عرفتم عقوباته ، أحسنوا الأدب معه ومع خلقه ، قللوا من الكلام فيما لا يعنيكم .



النفس كَدِرَةٌ مُكَدِّرَةٌ .. فاحذرها

يا غلام .. فيما يعنيك شغلٌ عما لا يعنيك . أخرج نفسك من قلبك وقد جاءك الخير ، فإنها الكَدِرَةُ المكدرة . بعد خروجها يجيء الصفاءُ غيرَ كَدِرٍ وقد غُيِّرْتَ .



الشيب نذير الموت .. فتب!

يا غافلاً عما لا بد لك منه ، قد جعلت همك الشهوات واللذات وجمع الدنيا فوق الدينار ، وأشغلت جوارحك باللعب . إنْ ذكَّرك مُذكِّرٌ الآخرةَ والموتَ ، تقول : نغَّصتَ عليَّ عيشي ، وتلوي برأسك هكذا وهكذا! . قد جاءك نذير الموت وهو الشيب في شعرك وأنت تقصمه أو تغيره بالسواد ، إذا جاء أجلك إيش تعمل ؟ إذا جاءك مَلَكُ الموت ومعه أعوانه ، باي شيء ترده ؟ إذا انقطع رزقك ، وانقضت مدتك ، باي حيلة تحتال ؟! . دع عنك هذا الهوس! الدنيا مبنية على العمل ، إذا عملت فيها أُعطيتَ الأجرةَ ، وإن لم تعمل فما تعطى . هي دار الأعمال والصبر على الآفات ، هي دار التعب والآخرة دار الراحة ، المؤمن يتعب نفسه فيها فلا جرم يستريح ، وأما أنت تعجلت بالراحة ، وتماخل بالتوبة وتُسوِّف يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة ، وقد انقضى أجلك ، عن قريب تندم ، كيف ما قبلت النصيحة! وكيف ما انتهيت! وصُدِقْتَ فما صَدَقْتَ! . ويحك .. جذع سقف حياتك قد انكسر ، أيها المغرور .. حيطان حياتك تتواقع ، هذه الدار التي أنت بها تخرب . تحول منها إلى أخرى ، اخلب دار الآخرة وانقل رجلك إليها ، ما هذه الرجل ؟ الرجل هي الأعمال الصالحة . قدم مالك إلى الآخرة حتى تجده وقت وصولك إليه .

يا مغروراً بالدنيا يا مشتغلاً بلا شيء ، يا من ترك السرية واشتغل بالخدمة .



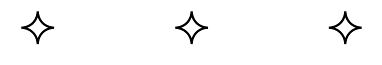
الخلق يريدونك لهم .. فاحذرهم

يا قوم! .. خلُّوا من يعمل عملاً يريد به وجه الخلق وقبولهم له ، فهو عبد آبق محجوبٌ ممقوتٌ ، الخلق يسلبون القلبَ والخيرَ والدينَ ، يجعلونك مشركاً بهم ناسياً لربك عزَّ وجلَّ ، يريدونك لهم لا لك ، والحقُّ عزَّ وجلَّ يريدك لك لا لهم ، فاخلب من يريدك لك واشتغل به ، فإن الاشتغال به أولى ممن يريدك له .



استغِثْ بالغني ودعِ الفقراء !

إنْ كان ولا بد من الطلب ، فاطلب منه لا من خلقه ، فإن أبغض الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ من يطلب الدنيا من خلقه . استغثْ به إليه .. هو الغني والخلق كلهم فقراء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً .



نحِّ هذه الأيدي تُفلحْ

كيف تفلح وقد تركت يد نفسك وهواك وطبعك وشيطانك على عينيْ قلبك ؟! . نَحِّ هذه الأيدي وقد رأيت الأشياء كما هي .. نحِّ نفسَك بمجاهدتك لها ومخالفتك ، نَحِّ يدَ هواك وطبعك وشيطانك .



خُلِقْتَ للعبادة فلا تلعب!

قد خلقك لعبادته فلا تلعب ، لا تحب معه في محبته أحداً ، إن أحببتَ غيره حُبَّ رأفةٍ ورحمةٍ ولطفٍ يجوز ، فاشتغل بالله عزَّ وجلَّ لا بغيره .. لا تسانس بغيره .. اجعل الخلق خارج قلبك .. ناحية منه .. فَرِّغْه له. يا بطّال يا كسلانُ يا قليلَ القَبولِ! إنْ قبلتَ مني وعملتَ بما أقول فلنفسك تعمل ، وإن لم تعمل فعلى نفسك المقتُ والحرمان .



أطعمِ الأتقياء وأَعِنهُم

إذا أطعمت طعامك للمتقي وساعدته في أمر دنيا ، كنت شريكه فيما يعمل ولا ينقص من أجره شيء ، لأنك عاونته في قصده ورفعت عنه أثقاله ، وأسرعت خطاه إلى ربه عزَّ وجلَّ .



أعطِ العلم كُلَّكَ تاخذ بعضَه!

يا جاهل! تعلمِ العلمَ ، فلا خير في عبادة بلا علم ، ولا خير في إيقان بلا علم ، تعلم واعمل فإنك تفلح دنيا وأخرى ، إذا لم يكن لك صبرٌ على تحصيل العلم والعمل به كيف تفلح ؟! . العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه .

قيل لبعض العلماء رحمة الله عليه : بم نلت هذا العلم ؟ فقال : بباكورة الغراب ، وبصبر الجمل ، وبتملق الكب ، كنتُ أُبَكِّر على أبواب العلماء كما يبكر الغراب إلى الطيران ، وكنت أصبر على أثقالهم كصبر الجمل على الأثقال ، وكنت أتملق كتملق الكلب بباب دار صاحبه حتى يطعمه شيئاً ..

يا طالب العلم اسمع مقالة هذا العالم واعمل بها إذا أردت العلم والفلاح . العلم حياة والجهل موت ؛ العالم العامل بعلمه المخلص في عمله الصابر على تعليمه لحق ربه عزَّ وجلَّ لا موت له .



المجلس الثامن والثلاثون

يا قوم أضْنوا شياطينكم بالإخلاص !

يا قوم .. أضنوا شياطينكم بالإخلاص في قول لا إله إلا الله لا بمجرد اللفظ ، التوحيد يحرق شياطين الإنس والجن ، لأنه نار للشياطين ونور للموحدين ، كيف تقول : لا إله إلا الله ، وفي قلبك كم إله ؟ كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك ، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب ، لا ينفعك طهارة القالب مع نجاسة القلب ، الموحد يضني شيطانه ، والمشرك يضنيه شيطانه ، الإخلاص لب الأقوال والأفعال ، لأنها إذا خلت منه كانت قشراً بلا لب .. أن القشر لا يصلح إلا للنار .

اسمع كلامي واعمل به فإنه يخمد نار طمعك ويكسر شوكة نفسك .. لا تحضر موضعاً تثور فيه نار طبعك فيخرب بيت دينك وإيمانك ، يثور الطبع والهوى والشيطان فيذهب بدينك وإيمانك وإيقانك ، لا تسمع كلام هؤلاء المنافقين المتصنِّعين المزخرفين ، فإن الطبع يسكن إلى كلام مُزخرف مُصنَّع .



خذِ العلمَ من أفواه العلماء

العلمُ يؤخذ من أفواه الرجال لا من الصحف ، من هؤلاء الرجال رجال الحق عزَّ وجلَّ ، ما هو غير التقوى هوسٌ وباطل ، الولاية للمتقين دنيا وآخرة ، الأساس والبناء لهم دنيا وآخرة ، الله عزَّ وجلَّ إنما يحب من عباده المتقين المحسنين الصابرين .



علامة طلب العلم لله

يا غلام .. تعلم العلم وأخلص حتى تخلص من شبكة النفاق ، وقَيِّده ، اطلب العلم لله عزَّ وجلَّ لا لخلقه ولا لدنيا . علامةُ طلبك العلم لله عزَّ وجلَّ خوفُك ووجلُك منه عند مجيء الأمر والنهي ، تراقبه وتذِلُّ له في نفسك ، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم لا طمعاً فيما في أيديهم . وتصادق في الله عزَّ وجلَّ وتعادي فيه، لأن الصداقة في غير الله عزَّ وجلَّ عداوة .. الثبات في غيره زوال ، العطاء في غيره حرمان .



أمؤمنٌ .. ولا صبر ولا شكر ؟!

إذا لم تصبر على النِّقَم ، ولم تشكر على النِّعم ، فلست بمؤمن .



إني أرى علماءكم جُهّالاً!

يا غلام .. بَيِّنَتُكَ ملازمة الكتاب والسنة والعمل بهما والإخلاص في العمل . إني أرى علماءكم جهالاً ، زهادكم طالبي الدنيا وراغبين فيها ، متوكلين على الخلق ناسين للحق عزَّ وجلَّ .



كُنْ مع الله تَرَ اللهَ معك!

ويحك! .. إذا خرجت من الخلق صرت مع الخالق ، يعرِّفك مالك وما عليك ، تميز بين ما لَكَ وبين ما لغيرِك ، عليك بالثبات والدوام على باب الحق عزَّ وجلَّ ، وقد رأيت الخير عاجلاً وآجلاً ، هذا شيء لا يتم والخلق والرياء في قلبك ، إذا لم تصبر لا دين لك ، لا رأس لإيمانك .



ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها!

أنت كالحجام تُخرج الداء من غيرك وفيك داء محض ما تخرجه ، إني أراك تزداد علماً ظاهراً وجهلاً باطناً ، إذا لم يكن لك علم تعلَّم ، إذا لم يكن لك علم ولا عمل ولا إخلاص ولا أدب فكيف يجيء منك شيء ، قد جعلت همك الدنيا وحطامها ، عن قريب يحال بينك وبينها .



ما قيمة عمل بلا فَهْم ؟!

افهموا ما أقول واعملوا به ، الفهم بلا عمل لا يساوي شيئاً ، العمل بلا إخلاص طمع فارغ ، الطمع كل حروفه فارغة مجوفة ليس فيها شيء .

مَنْ طلب وَجَدَّ وَجَد

من خلب وجدَّ وجدْ . اجهد في أكل الحلال فإنه ينور قلبك من ظلماته ، أنفعُ العقل ما عرَّفك نعمَ الله عزَّ وجلَّ ، وأقامك في شكرها ، وأعانك على الاعتراف بها وبمقدارها .



الله يغضب إن تركت سؤاله

ويلك! .. ما تستحي ؟! . تطلب من غير الله عزَّ وجلَّ وهو أقرب إليك من غيره ، تطلب من الخلق ما لا حاجة بك إليه ، معك كنز مكنوز وأنت تزاحم الفقراء على حبة وذرة ، إذا مت افْتُضَحْتَ ، تظهرُ مخابيك ومكاتِمُك ، لو كنت عاقلاً اكتسبت ذرة من الإيمان تلقى الله عزَّ وجلَّ بها ، ولكنت تصحب الصالحين وتتادب بهم ، باقوالهم وأفعالهم ، حتى إذا ترعرع إيمانك وتمّ إيقانك استخلصك الله عزَّ وجلَّ له ، وتولى أدبك وأمرك ونهيك من حيث قلبُك .



يا عابد الأصنام ! .. تُبْ

يا عابد صنم الرياء ما تشم قرب الله عزَّ وجلَّ لا دنيا ولا آخرة ، يا مشركاً بالخلق مقبلاً عليهم بقلبه ، أعرض عنهم فليس منهم ضرر ولا نفع ولا عطاء ولا منع ، لا تدعي توحيد الله عزَّ وجلَّ مع الشرك الملازم لقلبك فما يقع بيدك منه شيء .



الرضى آية الإيمان

كل السلامة في الرضى بالقضاء وقصر الأمل والزهد في الدنيا ، فإذا رأيتم في أنفسكم ضعفاً فدونكم بذكر الموت وقصر الأمل .



تارك العمل خامع .. والمُتّكِلُ عليه معجب

من لم يكن الشرع رفيقه في جميع أحواله فهو هالك مع الهالكين ، اعمل واجتهد ولا تتكل على العمل ، فإن التارك للعمل خامع .. والمتكل على العمل معجب مغرور .



فارِقْ قبل أنْ تُفارَق!

فارق قبل أن تفارق ، ودِّع قبل أن تُوَدَّع ، اهجُر قبل أن يهجرك أهلُك وسائرُ الخلق ، ما ينفعوك إذا حصلت في القبر ؟! .



الورع كسوة الدين

يا قوم .. تورعوا في جميع أحوالكم .. الورع كسوة الدين .



عبادة الجاهل مردودة

لا أفكر بحمدك ولا ذمك ، بعطائك ومنعك ، بخيرك وشرِّك ، بإقبالك وإدبارك . أنت جاهل والجاهل لا يُبالى به ، إذا أفلحتَ وعبدتَ الله عزَّ وجلَّ كانت عبادتك مردودة عليك ، لأنها عبادة مقرونة بالجهل ، والجهل كله مفسدة ، لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة .



إبليسُ شيخُ من لا شيخَ له!

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال : من لم يكن له شيخٌ فإبليس شيخه ، اتبع الشيوخ العلماء بالكتاب والسنة العاملين بهما ، أو حسِّن الظنَّ بهم وتعلم منهم ، وأحسن الأدب بين أيديهم والعشرة معهم وقد أفلحت ، إذا لم تتبع الكتاب والسنة ، ولا الشيوخ العارفين بهما .. فما تفلح أبداً ، ما سمعت : من استغني برأيه ضل ، هذّب نفسك بصحبة من هو أعلم منك ، اشتغل بإصلاحها ثم انتقل إلى غيرها .



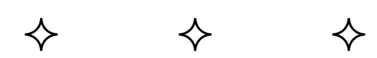
الفقه خوق النجاة

الفقه في الدين سبب لمعرفة النفس ، من عرف ربه عزَّ وجلَّ عرف الأشياء كلها به ، تصح له العبودية والعتق من عبودية غيره ، لا فلاح لا نجاة لك حتى تؤثره على غيره ؛ تؤثر دينك على شهواتك ، وآخرتك على دنياك .. ، هلاكك في تقديم شهوتك على دينك ودنياك على آخرتك .. اعمل بهذا وقد كفاك ، أنت محجوب عن الحق عزَّ وجلَّ لا إجابة لك ، الإجابة إنما تكون بعد الاستجابة ، إذا أجبته بالعمل أجابك في وقت سؤالك له ، وجود الزرع إنما يكون بعد الزراعة ، ازرعْ حتى تحصد .



أنت مشغول بزرع الدنيا!

أنت مشغول بزرع الدنيا لا بزرع الآخرة ، أما علمت أن خالب الدنيا لا يفلح مع الآخرة ؟ لا يرى الحق عزَّ وجلّ .



عليك بسوط مخالفة الأهواء

يا غلام .. اضرب نفسك بسوط الجوع والمنع من الشهوات واللذات والترهات ، واضرب قلبك بسوط الخوف والمراقبة ؛ اجعلِ الاستغفارَ دأب نفسك وقلبك .



عليك بجوهر الجوهر

ويحك .. إيش تعمل بلقلقة اللسان بلا عمل ، أنت تكذب وعندك أنك تصدق ، تشرك وأنت موحد ، وتعتقد الصحة معك بالغش وتعتقد أنه جوهر .. العمل بالعلم تاج العلم ، العمل بالعلم نور العلم ؛ صفاء الصفاء ، جوهر الجوهر ، لب اللب ، العمل بالعلم يصحح القلب ويطهره .. فإذا صح القلب صحت الجوارح، إذا خهر القلب خهرت الجوارح ، إذا صلحت المضغة صحت البنية .



التقوى كرامة .. والمعصية مهانة

من أحب الكرامة دنيا وآخرة فليتق الله عزَّ وجلَّ ، لأنه قال عزَّ وجلَّ : { ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... } [الحجرات : 14] الكرامة في تقواه والمهانة في معصيته .



توكلك على المخلوق جهلٌ بالخالق

من أحب القوة في دين الله عزَّ وجلَّ فليتوكل على الله عزَّ وجلَّ ، لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب ، لا تتكل على درهمك ولا دينارك وأسبابك ، فإن ذلك يُعجزُكَ ويُضعِفُك ، وتوكل على الله عزَّ وجلَّ ، فإنه يقويك ويعينك ، ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب ، ويقوي قلبك ، ولا تبالي بمجيء الدنيا وذهابها ، بإقبال الخلق وإدبارهم ، فحينئذ تكون أقوى الناس .

وإذا توكلت على مالك وجاهك وأهلك وأسبابك ، فقد تعرضت لمقت الله عزَّ وجلَّ ولزوال هذه الأشياء ، لأنه غيور لا يحب أن يرى في قلبك غيره .

ومن أحب الغنى في الدنيا والآخرة فليتقِ الله عزَّ وجلَّ دون غيره ، وليَقِفْ على بابه ويستحي منه أن ياتي باب غيره ، ويُغمضْ عينيه عن النظر إلى غيره ، أعني : عَيْنَيْ القلب لا عَيْنَيْ القالب .

كيف تثق بما في يديك وهو مُعَرّضٌ للزوال وتترك الثقة بالله عزَّ وجلَّ .. جهلك به يحملك على الثقة بغيره . ثِقَتُكَ به كُلُ الغنى ، ثِقَتُكَ بغيره كُل الفقر .

يا تارك التقوى! قد حُرِمْتَ الكرامةَ دنيا وآخرة ، يا متوكلاً على الخلق والأسباب! قد حرمت القوة والتعززَ بالله عزَّ وجلَّ دنيا وآخرة ، ويا واثقاً بما في يديه قد حُرِمْتَ الغنى بالله عزَّ وجلَّ دنيا وآخرة .



الصبر أساس لكل خير

يا غلام .. إن أردت أن تكون متقياً متوكلاً واثقاً فعليك بالصبر فإنه أساسٌ لكل خير ، إذا صحت لك النية في الصبر فصبرت لوجه الله عزَّ وجلَّ ، كان جزاؤهُ لك أن يدخل قلبك حبه وقربه دنيا وأخرى ، الصبر موافقة الحق عزَّ وجلَّ في قضائه وقدره الذي سبق علمه ولا يقدر أحد من خلقه على محوه ، ثبت هذا عند المؤمن الموقن فصبر على ما قدر عليه ولا يقدر أحد من خلقه على محوه ، ثبت هذا عند المؤمن الموقن فصبر على ما قدر عليه اختياراً لا اضطراراً . كيف تَدَّعي الإيمان ولا صبرَ لك ، كيف تدعي المعرفة ولا رضا لك ، هذا شيء لا

يجيء بمجرد الدعوى.



لسان الجاهل أَمام قلبهِ

يا قوم .. دعوا عنكم الهوسات والأماني الباخلة ، واشتغلوا بذكر الله عزَّ وجلَّ ، تكلموا بما ينفعكم واسكتوا عما يضركم ، إنْ أردتَ أن تتكلمَ ففكِّرْ فيما تريد أن تتكلم به وحصِّل فيه النية الصالحة ثم تكلَّم ، ولهذا قيل : لسان الجاهل أمام قلبه ، ولسان العاقل العامل وراء قلبه.



ضيَّعك الحرصُ وخول الأمل

أنت أَشفقُ عليها -أي : النفس- من غيرك وقد ضيعتها ، فكيف يشفق عليها غيرك ويحفظها ؟! قوةُ أملك وحرصُك حملاك على تضييعها ، اجهد في : تقصير الأمل ، وتقليل الحرص ، وذكر الموت ، ومراقبة الحق عزَّ وجلّ .



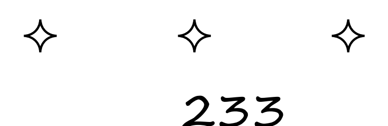
صديقك من نهاك .. عدوك من أغواك

صديقك من نهاك عدوك من أغواك ، إني أراك عند الخلق لا عند الخالق عزَّ وجلَّ ، تشكر غيره على نعمه ، من أعطاك ما أنت فيه من النعم غيره حتى تشكره وتعبده ؟! ، إن كنت تعلم أن ما عندك من النعم من الحق عزَّ وجلَّ فاين شكره ؟ وإن كنت تعلم أنه خلقك فاين عبادته في امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه والصبر على بلائه ؟ جاهد نفسك حتى تهتدي .



صبرك يفنى وجزاء الله باقٍ

يا غلام .. اجهد أن تموت نفسَك قبل خروج روحك من بدنك ، موتها بالصبر والمخالفة ، فعن قريب تحمد عاقبة ذلك ، صبرك يفنى وجزاؤه لا يفنى ، إني صبرت ورأيت عاقبة الصبر محمودة .



أنت عبد من زمامك بيده

ويحك .. تضيع زمانك في طلب العلم ولا تعمل به! فانت على قدم الجهل في هوس ، تخدم أعداء الحق عزَّ وجلَّ وتشرك بهم! . هو غني عنك وعمن أشركت به ، لا يقبل منك شريكاً ، ما علمت أنك عبد من زمامك بيده ؟! . إن أردت الفلاح فاترك زمام قلبك بيد الحق عزَّ وجلَّ ، وتوكل عليه حقيقة التوكل ، واخدمه بظاهرك وباطنك ، ولا تتهمه فإنه غير مُتَّهم ، هو أعرف منك بمصلحتك وهو يعلم وأنت لا تعلم .



فليتك تحلو والحياة مريرة

إذا خرب ما بينك وبين الخلق وعمر ما بينك وبينه -عزَّ وجلَّ- فقد اختار لك فلا تكره خيرته ، من صبر مع الحق عزَّ وجلَّ رأى عجائب من ألطافه .. كلما ذلّ العبد له أعزّه ، كلما تواضع له رفعه ، هو المعز والمذل، الرافع والواضع ، الموفق والمسهِّل .



قف مع القلب لا مع النفس

يا معجبين باعمالهم ما أجهلكم! لولا توفيقه ما صليتم وصمتم وصبرتم ، أنتم في مقام الشكر لا في مقام العجب ، أكثر العُبَّاد معجبون بعباداتهم وأعمالهم ، خالبون للحمد والثناء من الخلق ، راغبون في إقبال الدنيا وأربابها عليهم ، وسبب ذلك وقوفهم مع نفوسهم وأهويتهم . الدنيا محبوبة النفوس والأخرى محبوبة القلوب .



لقمة تُنوِّر القلب ولقمة تُظلمه

يا غلام .. أكل الحرام يميت قلبك وأكل الحلال يحييه ، لقمة تنور قلبك ولقمة تظلمه ، لقمة تشغلك بالدنيا ولقمة تشغلك بالأخرى ، الطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويحبب المعاصي ، والطعام المباح يشغلك بالأخرى ويحبب إليك الطاعات ، والطعام الحلال يقرب قلبك من المولى .



ويحك .. أنزل حوائجك بمولاك!

ويحك .. الخلق يقضون حوائجك يوماً أو اثنين أو ثلاثة أو شهراً أو سنة أو سنتين ، وفي الآخرة يضجرون منك ، عليك بصحبة الحق عزَّ وجلَّ وإنزال حوائجك به ، فإنه لا يضجر منك ولا يسام من حوائجك دنيا وآخرة .

يا واثقاً بالدينار والدرهم اللذين في يدك عن قريب يذهبان .. قد كانا في يد غيرك فسُلبا منه وسُلِّما إليك لتستعين بهما على طاعة مولاك عزَّ وجلَّ فجعلتهما صنمك! ، يا جاهل تعلم العلم لوجه الله عزَّ وجلَّ واعمل به فإنه يؤدبك .. العلم حياة والجهل موت .



اخدمِ العلم يفقه قلبك

اخدم العلم والعلماء العمال واصبر على ذلك ، إذا صبرت على خدمة العلم أولاً لا بد أن يخدمك ثانياً .. إذا صبرت على خدمة العلم أعطيت فقه القلب ونور الباطن .



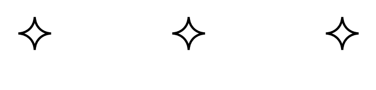
احذر ذلّ النفاق وقيد الشرك

اللهم تب عليَّ وعليهم وخلِّصهم من ذلِّ النفاق وقيد الشرك ، اعبدوا الله عزَّ وجلَّ واستعينوا على عبادته بكسب الحلال ، إن الله عزَّ وجلَّ يحب عبداً مؤمناً مطيعاً آكلاً من حلاله ، يحب من ياكل ويعمل ، ويبغض من ياكل ولا يعمل ، يحب من ياكل بكسبه ويبغض من ياكل بنفاقه وتوكله على الخلق ، يحب الموحد له ويبغض المشرك به ، يحب المسلِّم إليه ويبغض المنازع له ، من شرط المحبة الموافقة ، ومن شرط العداوة المخالفة .



يا طالب الدنيا بنفاقه .. تُب!

يا طالبَ الدنيا بنفاقه افتح يدك فما ترى فيها شيئاً ، ويلك زهدت في الكسب وقعدت تاكل أموال الناس بدينك . الكسب صنعة الأنبياء جميعهم ، ما منهم إلا من كان له صنعة ، وفي الآخرة أخذوا من الخلق بإذن الحق عزَّ وجلَّ ، يا سكران بخمر الدنيا وبشهواتها وهوساتها عن قريب تصحو في لحدك .



لا تقف مع حمد الناس وذمهم!

يا من يدعي العلم! لا عبرة بعلمك من غير عمل ، ولا عبرة بعلمك من غير إخلاص ، لأنه جسد بلا روح . علامة إخلاصك أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم ، ولا تطمع فيما في أيديهم ، بل تعطي الربوبية حقها .



سلِ اللهَ واستعن به وتوكل عليه!

يا قوم .. اتبعوا ولا تبتدعوا ، وافقوا ولا تخالفوا ، أطيعوا ولا تعصوا ، أخلصوا ولا تشركوا ، وحِّدوا الحق عزَّ وجلَّ وعن بابه فلا تبرحوا ، سلوه ولا تسالوا غيره ، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره ، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره .



اتبع الشاهديْن العادليْن

لا تبتدع وتُحدث في دين الله عزَّ وجلَّ شيئاً لم يكن ، اتبع الشاهدَيْن العادلَيْن : الكتاب والسنة ، فإنهما يوصلانك إلى ربك عزَّ وجلَّ ، وأما إن كنت مبتدعاً فشاهداك : عقلك وهواك ، فلا جرم يوصلانك إلى النار، ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودهما ، اجعل سعيك في طلب العلم والعمل ، ولا تجعله في طلب الدنيا ، عن قريب ينقطع سعيك! فاجعل سعيك فيما ينفعك.



عليك بزينة القلب!

من تزيَّن للناس بما ليس فيه مقته الله عزَّ وجلَّ ، زيِّن ظاهرك بآداب الشرع وباطنك بإخراج الخلق منه ، قد اشتغلت بزينة القالب وتركت زينة القلب ، زينة القلب بالتوحيد والإخلاص والثقة بالله عزَّ وجلَّ وبذكره ونسيان غيره .



الصبر ضياء .. والاعتراضُ ظلمة

إذا صبرت خفَّفَ عنك البلاء وأحدث لك أمراً يحبه وتحبه ، وإذا جزعت واعترضت ثقل عليك البلاء وزادك منه عقوبة لاعتراضك عليه ، سبب اعتراضكم عليه عزَّ وجلَّ ومنازعتكم له ؛ وقوفكم مع نفوسكم وأهويتكم وأغراضكم ، وحبكم للدنيا وحرصكم على جمعها .



يا قوم .. عليكم بالكرم والإيثار

يا قوم .. عليكم بالكرم والإيثار في طاعة الحق عزَّ وجلَّ لا في معصيته ، كل نعمة تصرف في المعصية هي معرضة للزوال .



العُجبُ يهلك العمل

لا تعجبنّ بشيء من أعمالك فإن العجب يفسد العمل ويهلكه ، من رأى توفيق الله عزّ وجلّ له انتفى عنه العجب بشيء من الأعمال .



لا تُبهرج .. فإن الناقد بصير

لا تبهرج فإن الناقد بصير .. إن الله عزَّ وجلَّ ينظر إلى قلبك لا إلى صورتك ، ينظر إلى ما وراء الثياب والجلود والعظام ، ينظر إلى خلوتك لا إلى جلوتك ، أما تستحي ؟! جعلت منظر الخلق مزيناً ومنظر الحق عزَّ وجلَّ منجساً ، إن أردت الفلاح فتب من جميع ذنوبك وأخلص في توبتك ، تب من شركك بالخلق لا تعمل شيئاً إلا لله عزَّ وجلّ .



اصحب شيخاً يُنهضك حاله

يا غلام .. اصحب من يعاونك على جهاد نفسك لا من يعاونها عليك ، إذا صحبت شيخاً جاهلاً منافقاً صاحب خبع وهوى كان معاوناً لها عليك ، الشيوخ لا يُصحبون للدنيا بل يصحبون للآخرة ، إذا كان الإمام صاحب خبع وهوى صُحِب للدنيا ، وإذا كان صاحب قلب صُحِب للآخرة .



يا من تمشيخ .. لا تكن صبياً!

يا من تمشيخ وتصدَّر وزاحم الشيوخ المخلصين في أحوالهم ، ما دمت تطلب الدنيا بنفسك وهواك فانت صبي .. ذلك خبع محض .. النادر من كل نادر ، نفس تعرض عن الدنيا وتتركها اختياراً لا اضطراراً ، أو كون النفس تطمئن وتصير قلباً ، نادر من كل نادر ، بعيد من كل بعيد .



لا تطلب الأمن بالمعصية

وأنت يا غافل .. تبارز الحق عزَّ وجلَّ بالمعصية والمخالفة ثم تامنه ، عن قريب ينقلب أمنك خوفاً ، سعتك ضيقاً ، عافيتك مرضاً ، عزك ذلاً ، رفعك وضعاً ، غناك فقراً .



أمنك على قدر خوفك

اعلم أن أمنك يوم القيامة من عذاب الله عزَّ وجلَّ على قدر خوفك منه في الدنيا ، وخوفك في الآخرة على قدر أمنك في الدنيا ، ولكنكم غائصون في بحر الدنيا ساكنون في قعر بئر الغفلة ، الحرص على الدنيا وجمعها وخلب الأرزاق ، قد حجبكم عن خريق الحق عزَّ وجلّ .



الحرص فضَّاح

يا من قد فضحه حرصه .. لو اجتمعت أنت وأهل الأرض على أن تجلب لك شيئاً لم يقسم لك لم تقدر ، فدع عنك الحرص على خلب ما قد قسم لك وخلب ما لم يقسم لك ، كيف يحسن العاقل أن يضيع زمانه فيما قد فُرغ منه ؟! .

الطائع عاقل والعاصي مجنون

الطائعون لربهم عزَّ وجلَّ هم العلماء العُقَّل ، والعاصون لربهم عزَّ وجلَّ هم الجهال المجانين ، العاصي جهل ربه عزَّ وجلَّ فعصاه ، وتابع شيطانه ووافقه ، فلو لم يجهل لما عصى ، لو عرف نفسه وعلم أنها تامره بالسوء لما وافقها .



كم أحذرك من إبليس وأعوانه ؟!

كم أحذرك من إبليس وأعوانه وأنت تصحبه وتقبل منه ؟! أعوانه : النفس ، والدنيا ، والهوى ، والطبع ، وأقران السوء .. احذر الجميع فإنهم كلهم أعداؤك .



اعدل حتى لا يُعدل بك!

لا تظلم أحداً في الدنيا فإنك تؤخذ به في الآخرة ، اعدل في الدنيا حتى لا يُعدل بك عن طريق الجنة ، الظَّلمة لما تركوا العدل عُدِلَ بهم عن طريق دار أهل العدل .



من عرف الله عرف الدنيا!

اشتغل بإصلاحك وصلاحك ودع عنك القال والقيل وهوس الدنيا ، تفرغ من همومها ما استطعت.

يا جاهلاً بالدنيا لو عرفتها ما طلبتها. إن جاءت إليك أتعبتك ، وإن تولت حَسَّرتك ، لو عرفت الله عزَّ وجلَّ لعرفت به غيره .



للبلاء حكمة .. فاصبر

يا قليل العقل! لا تهرب من باب الحق عزَّ وجلَّ لأجل بلية يبتليك بها ، فإنه أعرف منك بمصلحتك ، ما يبتليك إلا لفائدة وحكمة ، إذا ابتلاك فاثبت وارجع إلى ذنوبك وأكثر الاستغفار والتوبة ، واساله الصبر والثبات عليها ، وقف بين يديه وتعلق بذيل رحمته ، واساله كشف ذلك عنك وبيان وجه المصلحة فيه .



اصحب دليلاً خِرِّيتاً!

إن أردت الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله عزَّ وجلّ .. يعلمك ويؤدبك ويعرفك الطريق إلى الله عزَّ وجلَّ . المريد لا بد له من قائد ودليل ، لأنه في برَّية فيها عقارب وحيات وآفات وعطش وسباع مهلكة ، فيحذره من هذه الآفات ويدله على موضع الماء والأشجار المثمرة ، فإذا كان وحده من غير دليل وقع في أرض مسبعة وعرة كثيرة السباع والعقارب والحيات والآفات ..

يا مسافراً في طريق الدنيا لا تفارق القافلة والدليل والرفقاء ، وإلا ذهب منك مالك وروحك ، وأنت يا مسافراً في طريق الآخرة .. كن أبداً مع الدليل إلى أن يوصلك إلى المنـزل .



يا غلام .. احذر قرناء السوء

يا غلام .. هؤلاء الذين تعاشرهم في الدنيا للدنيا ، غداً لا تراهم تقطع بينكم .. كيف لا تقطع بينك وبين أقرانك السوء الذين عاشرتهم في غير الله عزَّ وجلَّ ؟! . إن كان ولا بد لك من معاشرة الخلق .. فعاشر المتورعين المتزهدين العارفين العاملين مريدي الحق عزَّ وجلّ .



خالط الأدباء .. يحسن أدبك

أحسن أدبك بين يدي معلمك ، وليكن صمتك أكثر من نطقك فإن ذلك سبب لتعلمك وقربك إلى قلبه. حسن الأدب يقربك وسوء الأدب يبعدك ، كيف يحسن أدبك وأنت لا تخالط الأدباء ؟ كيف تتعلم وأنت لا ترضى بمعلمك ولا تحسن ظنك فيه ؟



أدعوكم إلى الموت الأحمر!

يا قوم .. إني أدعوكم إلى الموت الأحمر .. وهو : مخالفة النفس والهوى والطبع والشيطان والدنيا .. والخروج عن الخلق وترك ما سوى الحق عزَّ وجلَّ في الجملة .. جاهدوا في هذه الأحوال ولا تياسوا .



لا تكن حماراً يحمل أسفاراً !

من لا يعمل بعلمه فهو جاهل ، وإن كان متقناً لحفظه .. تعلمك للعلم من غير عمل يردك إلى الخلق ، وعملك بالعلم يردك إلى الحق عزَّ وجلَّ ، ويزهدك في الدنيا ويبصرك بباطنك ، يشغلك عن تزيين الظاهر ويلهمك بتزيين الباطن ، فحينئذ يتولاك الحق عزَّ وجلَّ لأنك قد صلحت له .



إنما الميت ميّتُ الأحياء

الميت من مات عن ربه عزَّ وجلَّ وإن كان حيا في الدنيا .. إيش تنفعه حياته وهو يصرفها في تحصيل شهواته ولذاته وترهاته ؟! فهو ميت معنىً لا صورة .



عليك بالكنـز الذي لا يفنى

الكنـز الذي لا يفنى : هو : الصدق والإخلاص ، والخوف من الله عزَّ وجلَّ ، والرجاء له ، والرجوع إليه في جميع الأحوال .



رزقك آتيك .. زهدت أو رغبت!

قسمك ياتيك إن زهدت أو رغبت ، فإذا زهدت وصل إليك قسمك وأنت عزيز ، وإذا رغبت وصل إليك وأنت غير عزيز .



أَنْكِرْ بالشرع لا بهواك !

أنكروا على أنفسكم وعلى غيركم بالشرع لا بالهوى والنفس والطبع ، ما سكت الشرع عنه فوافقوه في سكوته ، وما نطق به فوافقوه في نطقه .



أنت تعبر على قنطرة الموت!

دع عنك الهوس وأخلص في أعمالك ، الموت على رصد منك ، لا بد لك من العبور على قنطرته ، دع عنك هذا الحرص الذي قد فضحك ، ما هو لك لا بد أن ياتيك ، وما هو لغيرك لا ياتيك .



أما في القلب فلا!

ويحك .. الدنيا في اليد يجوز ، في الجيب يجوز ، ادخارها لسبب بنية صالحة يجوز ، أما في القلب فلا يجوز . وقوفها على الباب يجوز ، أما دخولها إلى ما وراء البابَ .. لا ولا كرامة لك .



إلى متى هذا النفاق ؟!

هذا النفاق إلى متى يا علماء ويا زهاد ؟! كم تنافقون الملوك والسلاخين حتى تاخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها ؟! أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمان ظلمة وخونة في مال الله عزَّ وجلَّ وفي عباده .



لا يفلح على يديك أحد

يا جاهل تعلم من جهلك! .. إنك قد تركت التعلم واشتغلت بالتعليم! لا تتعب .. ما يجيء منك شيء ، ولا يفلح على يديك أحد ، لأن من لا يحسن أن يكون معلم نفسه ، فكيف يكون معلم غيره .



أنظرْ إلى الخلق بعين العجز

يا غلام .. لا تنظر إلى الخلق بعين البقاء .. بل انظر إليهم بعين الفناء ، لا تنظر إليهم بعين الضر والنفع .. بل انظر إليهم بعين العجز والذل ، وحِّد الحقَ عزَّ وجلَّ وتوكل عليه ولا تهذي فيما فُرِغَ منه ؛ الدنيا وجميع ما يظهر فيها قد فرغ منه ، والخلق وجميع ما يظهر ما يتقلبون فيه قد فرغ منه ، قلب المؤمن فارغ من هذا كله .



يا جاهل .. لا تغضب من ناصح!

يا جاهل .. ما يكفيك أنك غيرُ مُتَّقٍ حتى إذا قيل لك : اتق الله ، تغضب! .. إذا قيل لك الحق تسمع وتتهاون ، ثم إذا أنكر عليك منكر تغتاظ عليه وتشفي غيظك منه .



أما تستحي يا خادم الظَّلَمة ؟!

أما تستحي ؟! قد حملك حرصك على أنك تخدم الظلمة وتاكل الحرام! . إلى متى تاكل وتخدم ؟! الملوك الذين تخدمهم يزول ملكهم عن قريب .. كن عاقلاً واقنع باليسير من الدنيا حتى ياتيك الكثير من الآخرة .



الجاهل في فساد كلي وظلمة

والجاهل لا تسوي عبادته شيئاً .. بل هو في فساد كلي وظلمة كلية ، والعلم أيضاً لا ينفع إلا بالعمل به ، والعمل لا ينفع إلا بالإخلاص فيه ، كل عمل بلا إخلاص لا ينفع ولا يقبل من عامله . إذا علمت ولم تعمل كان العلم حجة عليك .



اعلمْ .. اعمل .. علِّم

تعلَم واعمل وعلِّم .. فإن ذلك مجمع لك الخير باسره . إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها وعلمتها غيرك كان لك ثوابان : ثواب العلم وثواب التعليم . الدنيا ظلمة والعلم نور فيها ، فمن لا علم له فهو يتخبط في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يُصلح .



وافضيحتاه .. كيف لا أستحي منك ؟!

يا من يدعي العلم! لا تاخذ من يد نفسك وطبعك وشيطانك .. لا تاخذ من يد وجودك .. لا تاخذ من يد ريائك ونفاقك ، زهدُك ظاهر ، ورغبتُك باطن ، هذا زهد باطل ، أنت معاقب عليه .. تدلس على الحق عزَّ وجلَّ ، وهو يعلم ما في خلوتك وما في جلوتك وما في قلبك ؟! ليس عنده خلوة ولا جلوة ولا ستر ، قل : واحياءاه .. واويلاه .. وافضيحتاه! فكيف يطلع الحق عزَّ وجلَّ على جميع أفعالي في ليلي ونهاري وهو ناظر وأنا لا أستحي من نظره ؟! .



لا يبغض المؤمن إلا المنافق

كل من في قلبه إيمان يحب المؤمن ، وكل من في قلبه نفاق يبغضه .



كيف تعلم أنك محجوب ؟

إذا علمت ورأيت أن قلبك لا يدنو من الحق عزَّ وجلَّ ، ولا تجد حلاوة العبادة والأنس .. فاعلم أنك لست بعامل ، وأنك محجوب لأجل الخلل الذي في عملك .

ماذا الخلل ؟ الرياء والنفاق والعجب!! يا عامل عليك بالإخلاص وإلا فلا تتعب ، عليك بالمراقبة للحق عزَّ وجلَّ في الخلوة والجلوة .



غض بصرك .. واشكر ربك

احذر من الحق عزَّ وجلّ .. غضَّ عينيك عن النظر إلى المحرم ، واذكر نظر من لا تبرح من نظره وعلمه ، إذا لم تناظر الحق عزَّ وجلَّ ولم تنازعه تمت عبوديتك له وصرت عبداً حقاً ، وتدخل في زمرة من قال في حقهم : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ... } [الحجر : 42].

إذا تحق شكرك لله عزَّ وجلَّ ، ألهم قلوب الخلق وألسنتهم بالشكر لك والتودد إليك ، فحينئذ لا خريق للشيطان وأعوانه عليك .



عليك بصحبة العبودية

عليك بصحبة العبودية ، وهي : امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات . أساس هذا الأمر التوحيد ، والثبات عليه الأعمال الصالحة . الأساس ما أحكمته! على أي شيء تبني ؟! . النية ما صحت لك ، كيف تتكلم ؟! سكوتك ما تمَّ لك ، كيف تنطق هذا الكلام على الخلق نيابة عن الرسل ؟! . لأنهم هم الذين كانوا خطباء الخلق ، فلما ذهبوا أقام الحق عزَّ وجلَّ العلماء العمال بعلمهم مقامهم وجعلهم ورَّاثهم .



اترك شهواتك تحت أقدامك

يا غلام .. اترك شهواتك تحت أقدامك ، وأعرض عنها بكل قلبك ، فإن كان لك شيء منها في سابقة علم الله عزَّ وجلَّ فهو يجيئك في وقته .. مهنا مكفى مطيباً ، فتاخذه بيد العز لا بيد الذل ، ومع ذلك قد حصل لك عند الله عزَّ وجلَّ ثواب الزهد فيه .. ونظر إليك بعين الكرامة .. لأنك لم تشره وتلح في طلبه .



تدعي العلم وتفرح كالجهال!

ويحك .. تدَّعي العلم وتفرح فرح الجهال وتغضب كغضبهم ، فرحك بالدنيا وإقبال الخلق عليك ينسيك الحكمة ويقسى قلبك .. إن كان ولا بد من الفرح فافرح إذا كان دنيا وبذلتها في طاعة الله عزَّ وجلَّ ، تنفع بها خدام الحق عزَّ وجلَّ وتعينهم على طاعاتهم .



ذكرك الموت يهوِّن المصائب

من أراد أن يحصل له الرضا بقضاء الله عزَّ وجلّ .. فليدم ذكر الموت .. فإن ذكره يهون المصائب والآفات . ولا تتهمه على نفسك وعلى مالك وولدك ، بل قل : ربي أعلم بي مني ، فإذا دمت على ذلك جاءتك لذة الرضا والموافقة ، فتذهب الآفات باصولها وفروعها ، ويجيئك بدلها النعم والطيبات ؛ لما وافقت وتلذذت بالرضا في حال البلاء ، جاءتك النعم من كل جانب ومكان .



شكر النعمة .. وصبر الضيق

سعة الرزق فتنة مع عدم الشكر ، وضيق الرزق فتنة مع عدم الصبر ، الشكر يزيدك من النعم ويقربك إلى ربك عزَّ وجلَّ ، والصبر يثبت أقدام قلبك وينصره ويؤيده ويظفره ، وعاقبته محمودة دنيا وآخرة ، الاعتراض على الحق عزَّ وجلَّ حرام يُظلم به القلب والوجه .



ادع الله أن يصبِّرك

ويحك يا جاهل .. بدل ما تشغل نفسك بالاعتراض اشغلها بالسؤال للحق عزَّ وجلَّ ، شاغلها به حتى تذهب أوقات البلايا وتنطفيء نيران الآفات .. إذا تحيرت قل : يا دليل المتحيرين دلني . إذا ابتليت وعجزت عن الصبر ، قل : إلهي أعني وصبرني واكشف عني .



لا يغرك شبابك ومالك

لا يغرك شبابك ومالك وجميع ما أنت فيه ، عن قريب يؤخذ منك جميع ما أنت فيه ، وتذكر تفريطك وتضييعك لهذه الأيام في البطالات فتندم ، ولا ينفعك الندم .. ما دمت مع غير الله عزَّ وجلّ .. فانت في هم وغم وشرك وثقل .. أخرج من الخلق بقلبك واتصل بالحق عزَّ وجلّ .. هذا الذي أنت فيه لا يصح ولا يتم .. لأن أساسه واه ما هو محكم .. هو مزبلة وقد بنيت على ربوة ، تب إلى الحق عزَّ وجلَّ ، واساله تغيير ما أنت عليه وفيه من خلب الدنيا والإعراض عن الآخرة .



من استغنى برأيه ضل

يا غلام .. أنت فارغ من الآخرة ملآن بالدنيا ، ويغمني حالك ويغمني فراقك للصالحين وترك مجالستهم واستغناؤك بالدنيا ، أما علمت أن من استغنى برأيه ضل ؟!. ما من عالم إلا ويحتاج إلى زيادة علم ، ما من عالم إلا وغيره أعلم منه.



المجلس السادس والخمسون

فرّغت قلبك من الحق فامتلأ بالدنيا!

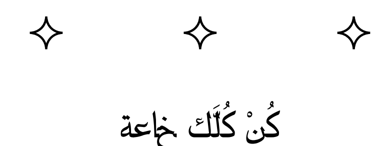
يا غلام .. إني أرى تصاريفك غير تصاريف المراقبين لله عزَّ وجلَّ الخائفين منه ، تواصل أهل الشر والفساد وتفارق الأولياء والأصفياء! . قد فرَّغت قلبك من الحق عزَّ وجلَّ وملأته من الفرح بالدنيا وأهلها وحطامها .. أما علمت أن الخوف شحنةٌ في القلب ، ومنوِّر له ومبيِّن ومفسر ؟! . إن دمت على هذا فقد ودعت السلامة دنيا وآخرة .



من مات قامت قيامته

لو ذكرت الموت قلّ فرحك بالدنيا وكثر زهدك فيها ؛ من أخَّره الموت كيف يفرح بشيء.

آخر الأحزان والأفراح ، والغنى والفقر ، والشدة والرخاء ، والأمراض والأوجاع .. الموت ، من مات قامت قيامته ، وقرب البعيد في حقه .



كُنْ كُلَّك طاعة

اجهد أن تكون كلك طاعة ، فإذا فعلت ذلك صرت بجملتك لربك عزَّ وجلَّ ، المعصية وجود النفس والطاعة فقدانها ، تناول الشهوات وجود النفس ، والامتناع عنها فقدانها ، امتنع عن الشهوات ولا تتناولها إلا موافقة لقدر الله عزَّ وجلَّ لا باختيارك وشهواتك .



تعلقْ بذيل رحمة ربك

يا غلام .. كن أنت واعظ نفسك ولا تحتج إليّ ولا إلى غيري ، وعظي على ظاهرك ، ووعظك على باطنك ، عظ نفسك بدوام ذكر الموت وقطع العلائق والأسباب .. تعلق برب الأرباب الخلاق العظيم العليم ، تعلق بذيل رحمته وتعلق برأفته . لا تشتغل بغيره عنه فإنه يحجبك عنه.



اهجموا على الأعمال!

ويلكم ما تستحون ؟! طاعتكم ظاهرة ومعاصيكم باطنة ، أنتم عن قريب ماخوذون بيد الموت والسقم .. وأنتم مقصرون في الأعمال ، ما تستحون ؟! قد رضيتم بالبطالة في نهاركم وليلكم ، تريدون ما عند الله عزَّ وجلَّ مع التقصير ، اهجموا على الأعمال وقد تعودتها نفوسكم ، لكل داخل دهشة وفي الآخر تصفون وتزول الأكدار ، إذا تبتم لا بد من بداية ونهاية .



خصلتان لا يفلح صاحبهما

ويحك .. قد جمعت بين حب الدنيا وبين التكبر ، وهاتان خصلتان لا يفلح صاحبهما إن لم يتب منهما ، كن عاقلاً! من أنت ؟ ومن أي شيء خلقت ؟ ولأي شيء خلقت ؟ لا تتكبر فما يتكبر إلا جاهل ، يا قليل العقل تطلب الرفعة بالتكبر .. اعكس تُصب.



التواضع وحسن الأدب يقربك

التواضع وحسن الأدب يقربك ، والتكبر وسوء الأدب يبعدك ، الطاعة تصلحك وتقربك ، والمعصية تفسدك وتبعدك .



لا تبع الدين بالتين

يا غلام .. لا تبع الدين بالتين ، لا تبع دينك بدين السلاطين والملوك والأغنياء وأكلة الحرام ، إذا أكلت بدينك اسود قلبك ، وكيف لا يسوّد وأنت تعبد الخلق ؟ يا مخذول لو كان في قلبك نور لفرقت بين الحرام والشبهة والمباح ، وبين ما يسود قلبك وينوره ، وبين ما يقرب قلبك ويبعده .



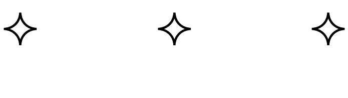
ابنِ بنية .. واقنع بقسمك

يا من يبني القصور والدور ويذهب عمره في عمارة الدنيا! لا تبن شيئاً بغير نية صالحة ؛ فاساس البناء في الدنيا النية الصالحة ، لا يكون بناؤك بنفسك وهواك ، الجاهل يبني في الدنيا بنفسه وهواه وطبعه وعادته ، فلا جرم لا تصح له قرينة صالحة ، ولا يتهنا بما بناه ويسكنه غيره ، ويقال له يوم القيامة : لم بنيت ؟ ومن أين أنفقت ؟ ولم أنفقت ؟ يحاسب على الجميع ، اطلب الرضا والموافقة ، واقنع بقسمك ولا تطلب ما لم يقسم لك .



من معاني الإسلام

ويحك .. تدعي أنك مسلم وأنت معترض على الله عزَّ وجلّ .. كذبت في دعواك ، الإسلام مشتق من الاستسلام لقضاء الله عزَّ وجلَّ مع حفظ حدود كتابه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحينئذٍ يصح لك الإسلام .



شؤم طول الأمل

شؤم طول الأمل هو الذي يوقعك في معاصي الله عزَّ وجلَّ ومخالفته ، متى ما قصرت أملك جاءك الخير ، فتمسَّكْ به إن أردت الفلاح .



لا تصحب موتى القلوب

أنت ميت القلب وصحبتك أيضاً لموتى القلوب ، أنت قبر تاتي قبراً مثلك ، ميت تاتي ميتاً مثلك ، أنت زَمِنٌ يقودك زَمِنٌ مثلك ، أعمى يقودك أعمى مثلك .

اصحب المؤمنين الموقنين الصالحين ، واصبر على كلامهم واقبله واعمل به وقد أفلحت.

كم تتعلم ولا تعمل

كم تتعلم ولا تعمل! . اخوِ ديوان العلم ثم اشتغل بنشر ديوان العمل مع الإخلاص وإلا فلا فلاح لك ، تتعلم العلم فحسب ، أنت مجتر على الحق عزَّ وجلَّ بافعالك ، قد ألقيت جلباب الحياء من عينيك وقد جعلته أهون الناظرين إليك!! . أنت آخذ بهواك ومتحرك بهواك فلا جرم يهلكك هواك ، استح من الله عزَّ وجلَّ في جميع أحوالك واعمل بحكمه ، إذا عملت بظاهر الحكم أدناك العمل إلى العلم بالله عزَّ وجلّ .



اجعل البلية نعمة!

إذا ارتكبت الذنوب جاءت الآفات ووقعت عليك ، فإن تبت واستغفرت ربك عزَّ وجلَّ واستعنت به وقعت حواليك ، لا بد لك من بلية ، فاسال الله عزَّ وجلَّ أن ياتيك معها بالصبر والموافقة ، حتى يسلم ما بينك وبينه ، فيكون الخدش في القالب لا في القلب ، في الظاهر لا في الباطن ، في المال لا في الدين ، فحينئذٍ تكون البلية نعمة لا نقمة .



الكذاب ذليلٌ في نفسه

يا منافق ..! قد قنعت من اتباعك لله عزَّ وجلَّ ولرسوله بالاسم لا بالمعنى ، ذلك كذب ظاهرك وباطنك ، فلا جرم أنت ذليل في الدنيا والآخرة ، العاصي ذليل في نفسه والكذاب ذليل في نفسه .



لا تبعْ عزيزاً بذليل!

يا عالماً! لا تدنس علمك عند أبناء الدنيا ، لا تبع عزيزاً بذليل ، العزيز : العلم ، والذليل : هو الذي في أيديهم من الدنيا ، الخلق لا يقدرون أن يعطوك ما ليس لك مقسوم ، إنما قسمك يجري على أيديهم ، فإذا صبرت جاء قسمك على أيديهم وأنت عزيز .



ذكر القلب أولاً ثم اللسان

ذكر اللسان بلا قلب لا كرامة ولا عزازة لك به ، الذكر هو ذكر القلب ثم ذكر اللسان .. اذكره حتى يذكرك ، اذكره حتى يحط الذكرُ عنك أوزاركْ.



الطامع فارغٌ كالطمع

كلام الطامع لا يخلو من رجة ومداهنة ، لا يمكنه المحاقة ، يكون كلامه قشراً فارغاً لا لب فيه ، صورة بلا معنى . الطامع فارغ كالطمع ، لأن حروف الطمع كلها فارغة : الطاء والميم والعين . يا عباد الله عزَّ وجلَّ أصدقوا وقد أفلحتم ، الصادق همته عالية في السماء ، لا يضره قول قائل .



لا تجعل الدنيا كبيرة في عينيك

يا غلام .. لو كان عندك ثمرة العلم وبركته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها ، العالم لا رجلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق ، والزاهد لا يديْن له ياخذ بهما أموال الناس ، والمحب لله عزَّ وجلَّ لا عينين له ينظر بهما إلى غيره .. لا تكبر في عيني رأسه الدنيا .



أكثركم يتبعون الزاعق الناعق

كونوا عقلاء ما أنتم على شيء! الأكثر منكم يتبعون كل زاعق وناعق ، الأكثر من المتكلمين كلامهم من ألسنتهم لا من قلوبهم ، زعقات المنافق من لسانه ورأسه وزعقات الصادق من قلبه .



كيف تدل على الله يا أعمى ؟!

كيف تدل عليه وأنت أعمى ؟! كيف تقود غيرك ؟ قد أعماك هواك وخبعك ومتابعتك لنفسك ومحبتك لدنياك ورياستك وشهواتك .



قصِّر أملك ولا تكن حريصاً

الأحمق يعصي الله عزَّ وجلَّ والعاقل يطيعه ، الحريص على جمع الدنيا يرائي وينافق والقصير الأمل لا يفعل ذلك ، المؤمن يتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ باداء الفرائض ويتحبب إليه بالنوافل .



لا تفرح بثياب غيرك!

لا تستعر كلمات الصالحين وتتكلم بها وتدعيها لنفسك ، العارية لا تخفى .. ازرع القطن بيديك ، واسقه بيديك ، وربِّه بجهدك ، ثم انسجه وخيِّطه والبسه . لا تفرح بمال غيرك وثياب غيرك ، إذا أخذت كلام غيرك وتكلمت به وادعيته مقتتك قلوب الصالحين ، إذا لم يكن لك فعل فلا قول ، كل الأمر معلق على العمل ، قال الله عزَّ وجلَّ : { ... ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32].



اللسان ترجمان القلب

كلامك يدل على ما في قلبك ، اللسان ترجمان القلب ، فإذا كان القلب مختلطاً ، فتارة يصح الكلام وتارة يبطل ، لا تقدر تغيير الشيء عما هو وأخرى تغير ، وإذا زال تخليطه صح اللسان . إذا زال الشرك منه صح اللسان ، وإذا أشرك يقتدى بالخلق ، تغير وتبدل وتعثر وكذب .



من أحب لله وأبغض لله فاز

إذا وقع حب رجل وبغض آخر ، فلا تحب هذا وتبغض هذا بنفسك وبطبعك ، بل حكِّمهما كليهما على الكتاب والسنة ، فإن وافقا الذي أحببته فدم على محبته ، وإن خالفا فارجع عن محبته ، وإن وافقا الذي أبغضته فارجع عن بغضه ، وإن لم ينفعك ذلك ولم يبن لك فارجع إلى قلوب الصديقين وسلهم عنهما .



قصة لطيفة

اشترى رجل مملوكاً ، وكان ذلك المملوك من أهل الدين والصلاح ، فقال له : يا مملوك إيش تريد تاكل؟ فقال : ما تطعمني . فقال له : ما الذي تريد تلبس ؟ فقال : ما تلبسني . فقال له : ما الذي تحب أن تعمل من الأشغال ؟ فقال ما تامرني . فبكى الرجل فقال : طوبى لي لو كنت مع ربي عزَّ وجلَّ كما أنت معي . فقال المملوك : يا سيدي وهل للعبد مع سيده إرادة أو اختيار ؟! . فقال له : أنت حر لوجه الله .



من أيقن بالموت استقام

اشتغالك بالدنيا يحتاج إلى نية صالحة وإلا فانت ممقوت ، اشتغل بطهارة قلبك أولاً فإنه فريضة ، ثم تعرض للمعرفة ، إذا ضيعت الأصل لا يقبل منك الاشتغال بالفرع ، لا تنفع طهارة الجوارح مع نجاسة القلب ، طهِّرْ جوارحك بالسنة وقلبك بالعمل بالقرآن ، احفظ قلبك حتى تحفظ جوارحك ، كل إناء ينضح بما فيه ، أي شيء كان في قلبك ينضح منك على جوارحك .

كن عاقلاً! ما هذا عمل من يؤمن بالموت ويوقن به ، ما هذا عمل من يرتقب لقاء الله عزَّ وجلَّ ويخاف من محاسبته ومناقشته .



تواضعك دليل صدقك

القلب الصحيح ممتليء توحيداً وتوكلاً ويقيناً وتوفيقاً وحلماً وإيماناً ، ومن الله عزَّ وجلَّ قرباً ، يرى الخلق كلهم بعين العجز والذل والفقر ، ومع ذلك لا يتكبر على طفل صغير منهم ، يصير كالسبع وقت لقاء الكفار والمنافقين والعصاة .. ويتواضع ويذل للصالحين المتقين الورعين وقد وصف الله عزَّ وجلَّ القوم الذين هذه صفاتهم فقال : { ... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... } [الفتح : 29].



المجلس الحادي والستون

خواخرك من جنس همك

ساله سائل عن الخواخر ، فقال : ما يدريك ما الخواخر ؟ خواخرك من الشيطان والطبع والهوى والدنيا ، همك ما أهمك ، خواخرك من جنس همك .

إذا كان الله عزَّ وجلّ وذكره عندك ؛ فلا جرم يمتلئ قلبك من قربه وتهرب خواخر الشيطان والهوى والدنيا من عندك ، للدنيا خاخر والآخرة خاخر ، فتحتاج أيها الصادق إلى دفع جميع الخواخر والسكون إلى خاخر الحق عزَّ وجلّ .



النظر إلى الخلق أصل البلاء

يا غلام! .. ما يقع بيدك من الحق عزَّ وجلَّ شيء بنفاقك وفصاحتك وبلاغتك وتصفير وجهك وترقيع مرقعتك وجمع أكنافك .. كل ذلك من نفسك وشيطانك وشرفك بالخلق وخلب الدنيا منهم .



اخلب العلم والعلماء!

ويلك امشِ في خلب العلم والعلماء العمال حتى لا يبقى مشيٌ ، امش حتى لا تطاوعك ساقاك.



ليكن كلامك جواباً!

اجتهد أن لا تبدأ بالكلام بل يكون جواباً ، إذا سالك سائل عن شيء فإن كان جوابه مصلحة لك وله وإلا فلا تجبه .



اصحب تقياً تكن مثله!

من لا يرى المفلح لا يفلح ، من لا يصحب العلماء العمال فهو من نبض التراب لا دليل له لا أم له ، اصحبوا من له صحبة مع الحق عزَّ وجلّ .



فتش عن مرآة لدينك!

فتّشْ على من يكون مرآة لوجه دينك ، كما تنظر في المرآة وتسوي وجه ظاهرك وعمامتك وشعرك ، كن عاقلاً ، إيش هذا الهوس ، تقول : ما أحتاج إلى من يعلمني !! .



لا يوافقك الشرع ولا العقل

يا غلام .. أنت نفس وخبع وهوى ، تقعد مع النسوان الأجانب والصبيان ثم تقول : لا أبالي .. كذبت! لا يوافقك الشرع ولا العقل ، تضيف ناراً إلى نار ، حطباً إلى حطب ، فلا جرم يشتعل دار دينك وإيمانك! . إنكار الشرع لهذا عام لم يستثن فيه أحداً ، حصِّلِ الإيمان والمعرفة بالله عزَّ وجلَّ وقوة القرب ، ثم أصبح خبيباً للخلق نيابة عن الحق عزَّ وجلّ .



الدنيا دار الآفات

هذه الدنيا فانية ذاهبة ، هي دار الآفات والبلايا ، ما يصفو لأحد فيها عيش ، لا سيما إذا كان حكيماً . كما قيل : الدنيا لا تقر فيها عينُ حكيم .. عينُ ذاكرِ الموت . من كان السبع بحذائه فاتحاً فمه قريباً إليه كيف يستقر قراره وتنام عينه ؟! يا غافلون! القبر فاتح فمه ، سبع الموت وثعبانه فاتحان فمهما.



لا تكن عبد الأمَّارة بالسوء!

يا قوم .. أنتم تعدون خلف الدنيا حتى تعطيكم ، وهي تعدو خلف أولياء الله حتى تعطيهم ، تقف بين أيديهم ورأسها مطاطئ . اضرب نفسك بصمصامة التوحيد ، والبس لها خوذة التوفيق ، وخذ لها رمح المجاهدة وترس التقوى وسيف اليقين ، فتارة مطاعنة وأخرى مضاربة ؛ لا تزال كذلك حتى تذل لك وتصير راكباً لها ، لجامها بيدك تسافر بها براً وبحراً ، فحينئذٍ يباهي بك ربك عزَّ وجلَّ ، ثم تقدم الذين بقوا مع نفوسهم ولم يتخلصوا منها ، من عرف نفسه وغلبها صارت راحلة له ، تحمل أثقاله ولا تخالفه في أمره ، لا خير فيك حتى تعرف نفسك وتمنعها حظها وتعطيها حقها . لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسكم ، لا تغتروا بدواهيها ، لا تغتروا بتناومها ، لا تغتروا بتناوم السبع فإنه يريكم أنه نائم وهو منتظر لفريسة يفترسها . هذه النفس تظهر الطمانينة والذل والتواضع والموافقة في الخير ، وهي تبطن بخلاف ذلك !! . كن على حذر مما يتم منها بعد ذلك .



الشرك بالخلق ظلمةٌ فاحذره !

يا غلام! .. متى يصفو قلبك وأنت مشرك بالخلق ؟! وكيف تفلح وأنت في كل ليلة تعين كل من تمضي إليه وتشكو إليه وتكدى منه ؟ كيف يصفو قلبك وهو فارغ من التوحيد ما فيه ذرة منه ؟! . التوحيد نور والشرك بالخلق ظلمة . كيف تفلح وقلبك فارغ من التقوى ما فيه ذرة ؟ أنت محجوب عن الخالق بالخلق ، محجوب بالأسباب عن المسبب ، محجوب بالتوكل على الخلق والثقة بهم ، أنت دعوى مجردة ، باقة بقل ، ما تُعطى بالدعوى بلا بينة ؟! .



الصالح يعظ الخلق بكل فن

المحب لله عزَّ وجلَّ العارف يعظ الخلق بكل فن ؛ يعظهم تارة بقوله ، وتارة بفعله ، وتارة بهمته .



عليك بخوذة الإيمان!

يا غلام .. عليك بخويصة نفسك عند ضعف إيمانك ، ما عليك من أهلك وجارك وجارتك وأهل بلدك وإقليمك ، فإذا قوي إيمانك ، فابرز إلى أهلك وولدك ثم إلى الخلق ، لا تبرز إليهم إلا بعد أن تتدرع بدرع التقوى ، وتترك على رأس قلبك خوذة الإيمان ، وبيدك سيف التوحيد ، وفي جعبتك سهام إجابة الدعاء ، وتركب حصان التوفيق ، وتتعلم الكر والفر والضرب والطعان ، ثم تحمل على أعداء الحق عزَّ وجلَّ ، فحينئذٍ تجيئك النصرة والمعونة من جهاتك الست ، وتاخذ الخلق من أيدي الشيطان ، وتحملهم إلى باب الحق عزَّ وجلَّ . تامرهم بعمل أهل الجنة وتحذرهم من عمل أهل النار .



بقَةٌ تقيم عليك قيامتك!

إذا دعوت الخلق ولست على باب الحق عزَّ وجلَّ كان دعاؤك لهم وبالاً عليك ، كلما تحركت بركت ، كلما خلبت الرفعة اتضعت ، ما عندك من الصالحين خبر ، أنت لقلقة ، أنت لسان بلا جنان ، أنت ظاهر بلا باطن ، جلوة بلا خلوة ، جولة بلا صولة . سيفك من خشب ، وسهامك من كبريت ، أنت جبان لا شجاعة لك ، أدنى سهم يقتلك ، بقة تقيم عليك قيامتك !! .



يا غلام .. عش حياة مودِّع

يا غلام .. قصِّر أملك وقلل حرصك ، صلّ صلاة مودع ، لا ينبغي لمؤمن أن ينام إلا ووصيته مكتوبة تحت رأسه ، فإن أيقظه الحق عزَّ وجلَّ في عافية كان مباركاً ، وإلا فيجد أهله وصيته ينتفعون بها بعد موته ويترحمون عليه . يكون أكلك أكل مودع ، ووجودك بين أهلك وجود مودع ، ولقاؤك لإخوانك لقاء مودع.



علمك بالمطلوب يهوِّن المبذول

من علم ما يطلب هان عليه ما يبذل من قواه وجهده في طاعة ربه عزَّ وجلَّ ، ما يزال المؤمن في تعب حتى يلقى ربه عزَّ وجلّ .

من ترك الوحي تزندق

الزم ما جاء به الرسول ، وهو الكتاب والسنة ، فإن من تركهما تزندق ومن رقبة الإسلام مرق ، فيكون النار والعقاب موئله آجلاً والمقت له عاجلاً !! .



لولا الامتحان لكثرت الدعاوى

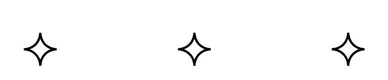
لولا الامتحان لكثرت الدعاوى ، من ادعى الحلم نمتحنه بالإغضاب ، ومن ادعى الكرم نمتحنه بالطلب منه ، وكل من ادعى شيئاً نمتحنه بضده ، دعوا عنكم الهوس والزموا التقى في جميع أحوالكم .. اتقوا الشرك في الأصل والمعاصي في الفرع ، ثم تعلقوا بحبل الكتاب والسنة ولا تخلوهما من أيديكم . الحق عزَّ وجلَّ لا يجمع على عبد خوفين ، قد تقدم خوف القوم في الدنيا عند أكلهم وشربهم ولبسهم ونكاحهم وجميع تصرفهم ، تركوا الحرام والشبهة وكثيراً من الحلال خوفاً من حساب ربهم عزَّ وجلَّ وسوء عذابهم ، تورعوا في ماكولهم ومشروبهم وجميع أحوالهم .



ويحك .. قميص إسلامك مخرق!

ويحك .. قميص إسلامك مخرق! ، ثوب إيمانك نجس ، أنت عريان ، قلبك جاهل .. صدرك بالإسلام غير مشروح ، باخنك خراب وظاهرك عامر ، صحائفك مسودة ، دنياك التي تحبها عنك راحلة ، والقبر والآخرة مقبلان إليك .

تنبه لأمرك وما تصير إليه عن قريب ، ربما كان موتك اليوم أو في هذه الساعة ، يحال بينك وبين آمالك ، ما تؤمله من الدنيا لا تجده ولا تلحقه ، وما قد أنسيته من الآخرة فهو يلحقك ، الاشتغال بغير الله هوس ، والخوف من غيره والرجاء له هوس ، أحد لا يضرنا ولا ينفعنا غير الله عزَّ وجلَّ ، هو الذي جعل لكل شيء سبباً .



أساسك البدع ، وبناؤك الرياء!

يا غلام .. أمرك مبني على غير أساس فلا جرم تقع حيطانك ، أساسك البدع والضلالات ، وبناؤك الرياء والنفاق ، فكيف يثبت لك بناء ؟ ذلك هوى وخبع ، تاكل وتشرب وتنكح وتجمع بالهوى والطبع ، ليس لك نية صالحة في شيء من ذلك ، المؤمن في كل أحواله له نية حسنة في كل أعماله ، لا ياكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينكح إلا بامر الله عزَّ وجلّ .



إني أراكم تلعبون!

إني أراكم تلعبون بكتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصالحين ، تلعبون بذلك بجهلكم ، لو اتبعتم الكتاب والسنة لرأيتم عجباً ، ما زالوا يصبرون معه على ما يريد حتى أعطاهم ما يريدون ، الفقر والبلاء مع عدم الصبر عقوبة ، ومع وجوده كرامة يتنعم المؤمن في بلائه بقرب ربه عزَّ وجلَّ ومناجاته له .



كيف يُطلب جاه من غير الله ؟

ويحك .. كيف تطلب الجاه والمال من هذا الملك وتعتمد عليه في مهماتك ، وهو عن قريب إما معزول أو ميت ، يذهب ماله وملكه وجاهه ، وينقل إلى قبره الذي هو بيت الظلمة والوحشة والوحدة والغم والهم والدود ، لا تتكل على من يعزل أو يموت فيخيب رجاؤك وينقطع مددك ، المؤمن ارتفعت همته عن الأرض وعن الدنيا وأبنائها.



صارت الملوك والدنيا آلهة!

قد صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة ، قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوى آلهة!! . ويحكم! جعلتم الفرع أصلاً ، المرزوق رازقاً ، المملوك مالكاً ، الفقير غنياً ، العاجز قوياً ، الميت حياً . لا كرامة لكم ، لا نتبعكم ولا نتخذ مذهبكم ، بل نكون ناحية منكم على تل السلامة ، على تل السنة وترك البدعة ، على تل التوحيد والإخلاص وترك الرياء والنفاق ، ورؤية الخلق بعين العجز والضعف والقهر . إذا عظّمتَ جبابرةَ الدنيا

وفراعنتها وملوكها وأغنياءها ، ونسيت الله عزَّ وجلَّ ولم تعظمه ، فحكمك حكم من عبد الأصنام ، تُصَيِّرُ من عظمت صنمك .



صلاح القلب باربعة أشياء

أربعة أشياء منها صلاح القلب :

الأول : النظر في اللقمة .

الثاني : الفراغ للطاعة .

الثالث : صيانة الكرامة .

الرابع : ترك ما يشغلك عن الله .



دواء الغفلة والوسواس

أنت إذا قمت إلى الصلاة ، بعت واشتريت ، وأكلت وشربت ونكحت ، بقلبك بوسوستك! .

قيل له : ما دواء ذلك ؟

قال : تصفية لقمتك من الحرام والشبهة ، والدواء الثاني مخالفة النفس فيم تامرك به من ارتكاب المناهي.



مصاحبتك الجاهل دليل جهلك

يا بني! إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، ذهب أمس بما فيه شاهد لك وعليك ، وغداً لا تدري تلحقه أو لا . إنما أنت ابن يومك ..

ما أغفلك ؟! علامة غفلتك مصاحبتك الغَفَلة ، يا أحمق من لا يظهر عليه أمارة الحق لماذا تصحبه ؟! ، لِمَ تصحب من أساسه واهٍ ؟! ظاهره نفس باخنه تجلدٌ وتواقحٌ على الحق عزَّ وجلّ .



أربعة ليست من الدنيا!

ليس من الدنيا : بيت يكنك ، ولباس يسترك ، وخبز يشبعك ، وزوجة تسكن إليها .

الحياة الدنيا : الإقبال على الخلق والإدبار عن الحق .



يا قوم .. الإسلام يبكي ويستغيث!

يا قوم .. الإسلام يبكي ويستغيث! يده في رأسه من هؤلاء الفجار ، من هؤلاء الفساق ، من هؤلاء الظَّلمة ، من اللابسين ثياب الزور ، من المدعين ما ليس فيهم .



مل اعلمْ .. اعمل .. علِّم

تعلَم واعمل وعلِّم .. فإن ذلك مجمع لك الخير باسره . إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها وعلمتها غيرك كان لك ثوابان : ثواب العلم وثواب التعليم . الدنيا ظلمة والعلم نور فيها ، فمن لا علم له فهو يتخبط في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يُصلح .

اعلمْ .. اعمل .. علِّم

تعلَم واعمل وعلِّم .. فإن ذلك مجمع لك الخير باسره . إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها وعلمتها غيرك كان لك ثوابان : ثواب العلم وثواب التعليم . الدنيا ظلمة والعلم نور فيها ، فمن لا علم له فهو يتخبط في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يُصلح .

قائمة باهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

(أ) المخطوطات

1- الالوسي، شهاب الدين أبو الثناء (ت1270هـ/1854م) ، الطراز المذهب في شرح الباز الاشهب، مخطوط في المكتبه القادرية، رقم.1405

2-الإمام الشطنوفي، علي بن يوسف (ت713هـ/1313م)، بهجة الأسرار ، مخطوخة المكتبة القادرية تحت الرقم .1560

3- الإمـام الشـطنوفي، علـي بـن يوسـف(ت713هــ/1313م)، بهجـة الأسـرار، مخطوخـة دار المخطوخات تحت الرقم .3216

4-النــووي، يحــي بــن شــرف (ت676هــ/277م)، بســتان العــارفين، مخطــوط في المكتبــه القادرية، رقم.932

5-الهـروي، علـي بـن سـلطان القـاري(ت1014هــ/1605م)، (مـن علمـاء الدولـة العثمانيـة)، نزهة الخاخر في ترجمة الإمام عبد القادر، مخطوخة المكتبة القادرية تحت رقم .724

6- الكيلانـي (1944-)، فـالح نصـيف الحجيـة الكيلانـي، شـرح ديـوان السـيد الإمـام عبـد القـادر الجيلي ، مخطوخة عند المؤلف .726

7-القادري (؟)، ظهير الدين ، الفتح المبين ، مخطوط محي هلال السرحان.

8- مؤلف مجهول (؟)، انساب الطالبيين ، مخطوط سالم الالوسي.

9-قطـب الـدين موسـى بـن محمـد اليـونيني (هـج726)، مناقـب الإمـام عبـد القـادر ، مكتبـة (الاسكوريال) باسبانيا المحفوظة تحت الرقم (417/2) ، مصورة الدكتور محي هلال السرحان.

10- العمري، ابو الحسن ()، المجدي في النسب ، مخطوط مكتبة الاسكندرية رقم 3742 .

11- الكيلانــي ()، عــلاء الــدين ، تحفــة الابــرار ولوامــع الابــرار ، مخطوخــة جامعــة برنســتون ، مصورة السيد عبدالستار هاشم سعيد الكيلاني (لواء مهندس متقاعد)

12- ابــن الــوردي (ت 749هــج)، مخطــوط خريــدة العجائــب وفريــدة الغرائــب ، نســخة ســالم الالوسي .

13- جــواد، مصــطفى (1996-)، اصــول التــاريخ والادب ، مخطوخــة في 24 مجلــد و أغلبهــا نقـولات مـن مخطوخـات نـادرة ، لـدى ولـده جـواد مصـطفى جـواد ، ومخطوخـة مختصـر الانسـاب وهـي ملـك الـدكتور حسـين علـي محفـوظ . وكتابـه ، في الـتراث العربـي ، تحقيـق : محمـد جميـل شـلش وعبـد الحميد العلوجي ، منشوراة وزارة الاعلام ، بغداد ، 1977

.14- ابــن الجــوزي (ت597 هـــ/1201 م) ، درر الجــواهر مــن كــلام الإمــام عبــد القــادر ، مخطوخـة نـادرة في بضـع صـفحات عنـد العلامـة سـالم الالوسـي ، ص3، وذكـر هـذا الكتـاب ووثقـه ،

التادفي في قلائد الجواهر ، ص21ويوسف زيدان في تحقيقه للديوان ، ص41 ، ودرر العقود ، مخطوط الاسكوريال ، رقم8/582 الورقة 981 مصورة سالم الالوسي .

15- اليافعي ، ابن اسعد ت(768هـج)، خلاصة المفاخر في مناقب الإمام عبد القادر ، مخطوط جامعة برنستون ، مصورة السيدعبد الستار هاشم سعيد الكيلاني.

16- البغدادي ، عباس ()، نيل المراد في تاريخ اهل بغداد ، مخطوط فريد فرغ منه مؤلفه في شعبان سنة1333ه ، مخطوخة محي هلال السرحان .

(ب) المصادرالعربية

1- ابن الأثير، محي الدين المبارك بن محمد الجزري، (ت،630هـ /1208م) ، الكامل في التاريخ، ج9 ، دار صادر، بيروت، 1975.

2- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، (ت 930هـ/1523م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، دار الكتب، القاهرة، 1952.

3- ابن تغرى بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

4- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، (ت 768 هـ/1327 م)، الفتاوى، المكتبة السلفية، الرياض، 1960.

5- ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد (ت833هـ/1429م)، غاية النهاية ، ج1، القاهرة، 1932.

6- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597 هـ/1201 م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، مطبعة حيدر آباد، دائرة المعارف الأسلامي، 1969.

7- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن علي العسقلاني(ت853 هـ/1449م)، الدرر الكامنة، ج3، مطبعة حيدر آباد ، الهند، 1929.

8- ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي(456هـ/1604م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1967.

9- ابن خلكان، أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1972.

10- ابن الدبيثي، محمد بن سعيد بن محمد(ت637هـ/1239م)، المختصر المحتاج اليه من تاريخ بغداد ، انتقاء الذهبي، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، 1952.

11- ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي (ت795هـ/1392م) ، الذيل على طبقات الحنابلة، ج1-2 ، مطبعة الحلبي، القاهرة ، 1952.

12- ابن الصابوني، جمال الدين(ت680هـ/ 1283م)، تكملة إكمال الإكمال، تحقيق، مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد، 1957.

13- ابن عربي، محي الدين(ت638هـ/1240م)، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحي، ج6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1994.

14- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحق الحنبلي(ت1089 هـ/1678م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4-5 ، مكتبة المقدسي، القاهرة ، 1929.

15- ابن الكازروني، ظهيرالدين علي بن محمد(ت697هـ/1297م)، مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970.

16- ابن كثير، إسماعيل بن عمر أبو الفداء (774هـ/1372م)،

أ- البداية والنهاية ، ج6، مطبعة السعادة، مصر، 1968.

ب- تفسير القرآن العظيم، ج13، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1972.

17- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك أيوب الحميدي(ت218هـ/ 820م)، السيرة النبوية، ج3، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1966.

18- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (ت665هـ/1269م)، الروضتين في أخبار الدولتين، المؤسسة المصرية للتاليف والنشر، القاهرة، 1962.

19- البغدادي، ابو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد ين رجب الحنبلي(ت795هـ/1392م)، ذيل خبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1952.

20- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن خاهر(ت429هـ/1031م)، الفرق بين المذاهب، دار الجيل، بيروت، 1965.

21- التادفي، محمد بن عيسى، (ت963هـ/1465م)، قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر، دار الباز، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1998.

22- التنوخي، ابو علي المحسن بن علي(384هـ/994م)، الفرج بعد الشدة، دار صادر، بيروت، 1978.

23- الجيلي ، محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله(ت561هـ/ 1262م).

ا- فتوح الغيب، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1960.

ب-الغنية لطالبي خريق الحق، تحقيق فرج توفيق الوليد، ج3، دار الفكر، بيروت، 1995

ج- الفتح الرباني والفيض الرحماني، دار الجميل، المانيا، 1997.

د-تفسير الجيلي ، باعتناء فاضل جيلاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2007.

ذ- الجيلي ، عبد القادر، ديوان عبد القادر الجيلي ، تحقيق يوسف زيدان، دار الجيل، بيروت، 1983.

24- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله(ت1067هـ/1656م)، كشف الظنون، مكتبة إسماعيليان، خهران، 1947.

25- الحموي، ياقوت ، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، (ت626هـ/1229م)، معجم البلدان، ج5، بيروت، 1956.

26- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1347م).

أ- سير أعلام النبلاء، ج13، 12، دار الرسالة للطباعة، بيروت، ط4، 1986.

ب- العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، وزارة الأرشاد، الكويت، 1963.

ج- المختصر المحتاج اليه، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951.

27- الزبيدي، محمد مرتضى، (ت 1205 هـ/1790م) .

أ- تاج العروس في شرح جواهر القاموس، مطبعة الكويت، الكويت ، 1980.

ب- إتحاف السعادة للمتقين في شرح إحياء علوم الدين، ج1، المطبعة الملكية، المغرب، 1936.

28- سبط ابن الجوزي، يوسف(ت654هـ/1256م)، مرآة الزمان، مطبعة حيدر آباد، الهند، 1936.

29_ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت771هـ /1369م)، طبقات الشافعية، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1965.

30- السهروردي، عمر بن محمد بن عبد الله البكري(ت632هـ /1134م) ، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي للطباعة، بيروت ، 1966.

31- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت911هـ /1505م) .

ا- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1934.

ب- حسن المحاضرة ، ج1، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1900.

32- السمعاني، عبد الكريم بن محمد ، (506هـ/1880م)، كتاب الانساب ، تحقيق مرجليوث، مطبعة بريل، ليدن، 1912.

33- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد(ت1250هـ/ 1834م)، البدر الطالع، ج1، دار الكتب للطباعة، القاهرة، 1946.

34- الطبري، ابوجعفر محمد بن جرير، (ت310هـ/912م) .

أ-جامع البيان في تاويل آي القرآن، ج5، تحقيق محمد احمد شاكر ، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1978.

ب- تاريخ الأمم والملوك، ج5-1 ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج4-5 دار المعارف للطباعة، القاهرة، 1978.

35- الشطنوفي، علي بن يوسف(ت713هـ/1313م)، بهجة الاسرار، تحقيق ، جمال الدين فالح الكيلاني ، مطبعة الحكومة ، الجزائر، 2011.

36- القادري، ابو الظفر ظهير الدين، (ت.م)، الفتح المبين ، المطبعة المركزية، القاهرة، 1888 .

37- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن احمد الانصاري، (ت671هـ /1272م) ، الجامع لأحكام القرىن، ج5، دار احياء التراث العربي ، بيروت، 1985.

38- القرطبي، عريب ابن سعيد، (ت369هـ/971م) ، صلة تاريخ الطبري ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار المعارف للطباعة ، القاهرة، 1971.

39 - الكتبي، محمد بن شاكر (ت764هـ/1362م).

أ- فوات الوفيات، ج2-1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية للطباعة، القاهرة، 1954.

ب- عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشد للطباعة، بغداد، 1983.

40- محمد فؤاد عبد الباقي ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان(البخاري ومسلم)، ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982.

(ج) قائمة المراجع

1- إبراهيم، حبيب جميل، تاريخ متصوفة بغداد، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1988.

2- إقبال، محمد، ديوان إقبال، دار الصحابة للطبع، باكستان، 1996.

3- جـواد، مصـطفى ، و أحمـد سوسـة، خارطةبغـداد، مطبعـة المجمـع العلمـي العراقـي، بغـداد، 1959.

4- الجيلي ، عبدالرزاق ، الإمام عبد القادر الجيلي ، دار القلم بيروت، 1983.

5- الجيلـي ، ماجـد، هكـذا ظهـر صـلاح الـدين، المعهـد العـالي الاسـلامي، الولايـات المتحـدة الامريكية، 1996.

6- حســن، حســن إبـراهيم، تـاريخ الأسـلام السياسـي، ج4، مكتبـة النهضـة المصـرية، القـاهرة، 1986.

7- الخضري، الإمام محمد، الدولة العباسية، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1993.

8- رؤوف، عماد عبد السلام.

ا-الآثار الخطية في المكتبة القادرية، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971.

ب-مدارس بغداد ، بغداد ، 1985.

ج-معالم بغداد في العصور المتاخرة، بغداد ، 2002.

9- زامبـاور، معجـم الأنسـاب والأسـر الحاكمـة في التـاريخ الإسـلامي ، ترجمـة زكـي محمـد حسـن، مطبعة فؤاد الأول، القاهرة ، 1951.

10- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج5، مطبعة النهضة، القاهرة ، 1949.

11- السـامرائي، عبـدالله سـلوم، عبـد القـادر الجيلـي قطـب الاوليـاء، مخطـوط مصـور لـدى الإمام عفيف الدين الكيلاني.

12- السـامرائي، يـونس بـن ابـراهيم، الإمـام عبـد القـادر الجيلـي ، حياتـه و آثـاره، مكتبـة الشـرق الجديد للطباعة، بغداد، 1988.

13- الشرقاوي، حسن، معجم الفاظ الصوفية، دار مختار للنشر، القاهرة ، 1987.

14- شـعبان، محمـد عبـد الحـي محمـد، التـاريخ الإسـلامي : تفسـير جديـد ، دار الأهليـة للنشـر، بيروت، 1983.

15- شوقي، ضيف، العصر الاسلامي، الكويت، 1995.

16- عاشور، سعيد عبد الفتاح، مصر في عهد المماليك، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1966.

17- عطية الله، احمد، القاموس الاسلامي، ج1، 2، 3، دار مكتبة النهضة للطباعة، القاهرة، 1976.

18- عفيفي، ابو العلا، التصوف والثورة الروحية في الإسلام، دار جامعيون ، مصر، 1997.

19- عنان، محمد عبد الله، المعارك الحاسمة في التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953.

20- عمر ، فاروق ، الدولة العباسية ، دار الشروق ، الاردن ، 2000.

21- اللامي ، علاء ، السرخان المقدس ، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، 2004.

22- المدرس، عبد الكريم، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج5، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1997.

23- المودودي، ابو الاعلى، تفسير سورة النور، المكتبة الاسلامية، القاهرة، 1958.

24- النجار، محمد رجب، حكايات الشطار والعيارين، عالم المعرفه، الكويت ، 1981.

25-شابي، بروفسورة جاكلين، (1998). عبد القادر الجيلي بين الحقيقة التاريخية و الأسطورة الأدبية (ترجمة الدكتور حسن سحلول)، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، السنة (18) كانون الثاني (70)، دمشق. نسخة الكترونية خبعت بتاريخ 14 / 9 / 2004.

26- محمد اركون، الفكر الاسلامي ؛نقد واجتهاد ، ترجمة هاشم صالح ؛دار الساقي، بيروت، 2009.

27- جعيط ، هشام، في السيرة النبوية، دار الطليعة ، بيروت، 1990.

28-الخيون ، رشيد ، الاديان والمذاهب في العراق ، دار الجمل ، المانيا ، 2004.

29- جواد، الدكتور مصطفى، سوسة، الدكتور احمد (1958). دليل خارخة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، المجمع العلمي العراقي، بغداد

(د) الرسائل الجامعية

1-التـل، عمرسـليم عبـد القـادر، متصـوفة بغـداد في القـرن السـادس الهجـري، رسـالة ماجسـتير ، الجامعه الاردنية، 2009.

2- سـهيل، جعفـر صـادق ، عبـد القـادر الجيلـي ومذهبـه الصـوفي، رسـالة ماجسـتير ، كليـة دار العلوم، جامعة القاهرة، 1975.

3- القحطـاني، سـعيد، الإمـام عبـد القـادر الكيلانـي وآرائـه الاعتقاديـة والصـوفية، اخروحـة دكتـوراه ، كلية الدعوة، جامعة أم القرى، الرياض، 1997.

4-المهـداوي ، ايمـان كمـال مصـطفى، عبـد القـادر الجيلـي اديبـا، رسـالة مجاجسـتير، كليـة التربيـة ابـن رشد، جامعة بغداد، 1996.

5-عليـوي ، جعفـر موسـى، عبدالقـدرالجيلي والتصـوف ، اخروحـة دكتـوراة ، كليـة الاداب جامعـة بغداد2002.

6-البلاخـي ، علـي محمـود علـي ، الـدر الفـاخرفي ترجمـة الإمـام عبـد القـادر ، دراسـة وتحقيـق ، علـي محمـود علـي البلاخـي، رسـالة ماجسـتير، معهـد التـاريخ للدراسـات العليـا 1999(نسـخة البلاخـي الشخصية).

7-ماجد عرسان الكيلاني، نشاة القادرية، رسالة ماجستير، جامعة بيروت العربية، 1996.

سيرة الباحث : جمال الدين فالح الكيلاني

بقلم أ.د.إبراهيم خليل العلاف

أستاذ التاريخ الحديث –جامعة الموصل

صديق عزيز ، أتابع منذ فترة طويلة ، نشاطاته العلمية، ولي معه علاقة تبادل علمي .... هو جمال الدين بن فالح بن نصيف بن جاسم بن أحمد الحجية بن عبد الكريم بن عبد الرحيم بن خميس بن ولي الدين محمد بن عثمان بن يحيى بن حسام الدين بن نور الدين بن ولي الدين بن زين الدين الكبير بن شمس الدين بن شرف الدين بن محمد الهتاك بن عبدالعزيز بن الباز الاشهب الإمام عبدالقادر الجيلي بن ابي صالح موسى بن عبدالله الجيلي بن يحيى الزاهد بن محمد المدني بن داود امير مكة بن موسى الثاني بن عبدالله الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبى بن اسدالله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم اجمعين،من الأسرة الكيلانية، ذرية الإمام عبدالقادر الجيلي....

من مواليد 1972، ومنذ طفولته أولع بحب التاريخ ،و قراءة الكتب المتنوعة ،تاثر بوالده الأستاذ فالح الحجية الكيلاني –الأديب والشاعر،وأخذ عنه حب الأدب والمعرفة وتذوق الشعر،وبحكم نشاته في الخالص وعلاقة القرابة التي تربطه بالعلامة سالم عبود الالوسي ،تعرف بالعلامة مصطفى جواد وتراثه ،واهتم منذ بواكير حياته العلمية بالتراث القادري والذي بات تخصصه الدقيق،ويعد نفسه من تلاميذ الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ومدرسته التاريخية،مارس التدريس في التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي ، كما حاضر في جامعة بغداد والجامعة المستنصرية واتحاد المؤرخين العرب وجامعات القادسية والبصرة وواسط حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية -ابن رشد -جامعة بغداد . كما نال شهادة (دبلوم)في اللغة الانكليزية من معهد المعلمين .

لم يقف عند هذا الحد ، بل غذ السير ، وأكمل دراسته وحصل على شهادة (دكتوراه) فلسفة في التاريخ الإسلامي من جامعة سانت كلمنتس العالمية. ولحبه التاريخ والدراسات التاريخية انتمى إلى" معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد " ، وحصل على شهادة ماجستير آداب في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية . حصل على لقب "باحث علمي" من مركز دراسات التاريخ والوثائق والمخطوطات سنة 1998

.والدكتور الكيلاني عضو اتحاد المؤرخين العرب 1996وعضو الهيئة العربية لكتابة تاريخ الانساب1998 وعضو جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق1995 وعضو (شرف) لجنة الدراسات القادرية المغرب1997.

مشرف مركز دراسات الإمام عبد القادر الجيلاني المتخصص بالتراث والتاريخ والأنساب القادرية 2011 . كرم بالعديد من الشهادات التقديرية من المجمع العلمي العراقي1996 والهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب 2000 ،والهيئة العامة للاثار1997 وجامعة بغداد1999 وغيرها .

اهتم بتاريخ الأنساب وشغل نفسه بهذا اللون المهم من الدراسات التي تحتاج إلى معرفة بامور كثيرة .وقد أجيز في مجال دراسة وتدقيق الأنساب من ثلة من الأساتذة العراقيين المعروفين أمثال الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف والأستاذ سالم عبود الالوسي والأستاذ اللواء احمد خضر العباسي والأستاذ الإمام خليل الدليمي والأستاذ جمال الراوي ، ويفخر بانه حضر دروس للعلماء الأعلام كل من الإمام العلامة عبد الكريم محمد المدرس-مفتي الديار العراقية-والعلامة الدكتور حسين علي محفوظ والعلامة الدكتور علي الوردي و العلامة الدكتور حسين أمين-والعلامة صالح احمد العلي والعلامة عبد الرزاق الحسني وغيرهم

كما أن لديه العديد من البحوث والدراسات والكتب .من كتبه المنشورة

كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني -تفسير جديد مراجعة الأستاذ الشاعر فالح الحجية الكيلاني ،مكتبة المصطفى ، القاهرة ،2009.

كتاب الإمام عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ،مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي – بغداد 2011. وهو بالاصل رسالة باشراف الدكتورة لقاء الطائي والدكتور رؤوف

وكتاب " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي , دراسة وتحقيق " ،تقديم الدكتور حسين أمين شيخ المؤرخين –نشر على نفقة السيد احمد الكيلاني ،الجزائر2011 .

وكتاب " أصول التاريخ الإسلامي " ،مراجعة الدكتور حسين علي محفوظ (مخطوط) 1999.

وكتاب " تنقيحات دراسة تحليلية لنسب الإمام عبدالقادر الجيلاني" ، مراجعة الدكتور عبد القادر المعاضيدي (نشر محدود) منه نسخة محفوظة في المكتبة القادرية1996.

وكتاب" دراسات في التاريخ الأوربي" ، تقديم الدكتوركمال مظهر احمد (معد للنشر) وكتاب ،الرحلات والرحالة في العصر العباسي : دراسة تاريخية وهو بالأصل أطروحته للدكتوراة (معد للنشر)
،. وكتاب التاريخ العثماني تفسير جديد تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف
وكتاب التاريخ الاسلامي رؤية معاصرة تقديم الدكتور صالح احمد العلي وكتاب الاستشراق وكتاب المدخل في تاريخ الفلسفة الاسلامية وغيرها .

ومن بحوثه ودراساته :

عرض كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد في مجلة فكر حر 2009.

وعرض مخطوطة مهجة البهجة ومحجة اللهجة (كتاب) منشورة في جريدة الصباح 2005.ومقالة مصطفى جواد ومخطوطة نادرة عن الكيلاني جريدة الصباح 2006.

ومقالة رشيد عالي الكيلاني ابن ديالى المشورة في جريدة العراق 2002.ومقالة المقدادية أصل التسمية المنشورة في جريدة العراق 2002.

ومقالة" الشرق الأوسط واصل التسمية" المنشورة في مجلة كلية الاداب جامعة عين شمس 2009.ومقالة عن " براغماتية السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب "مجلة فكر حر2009.

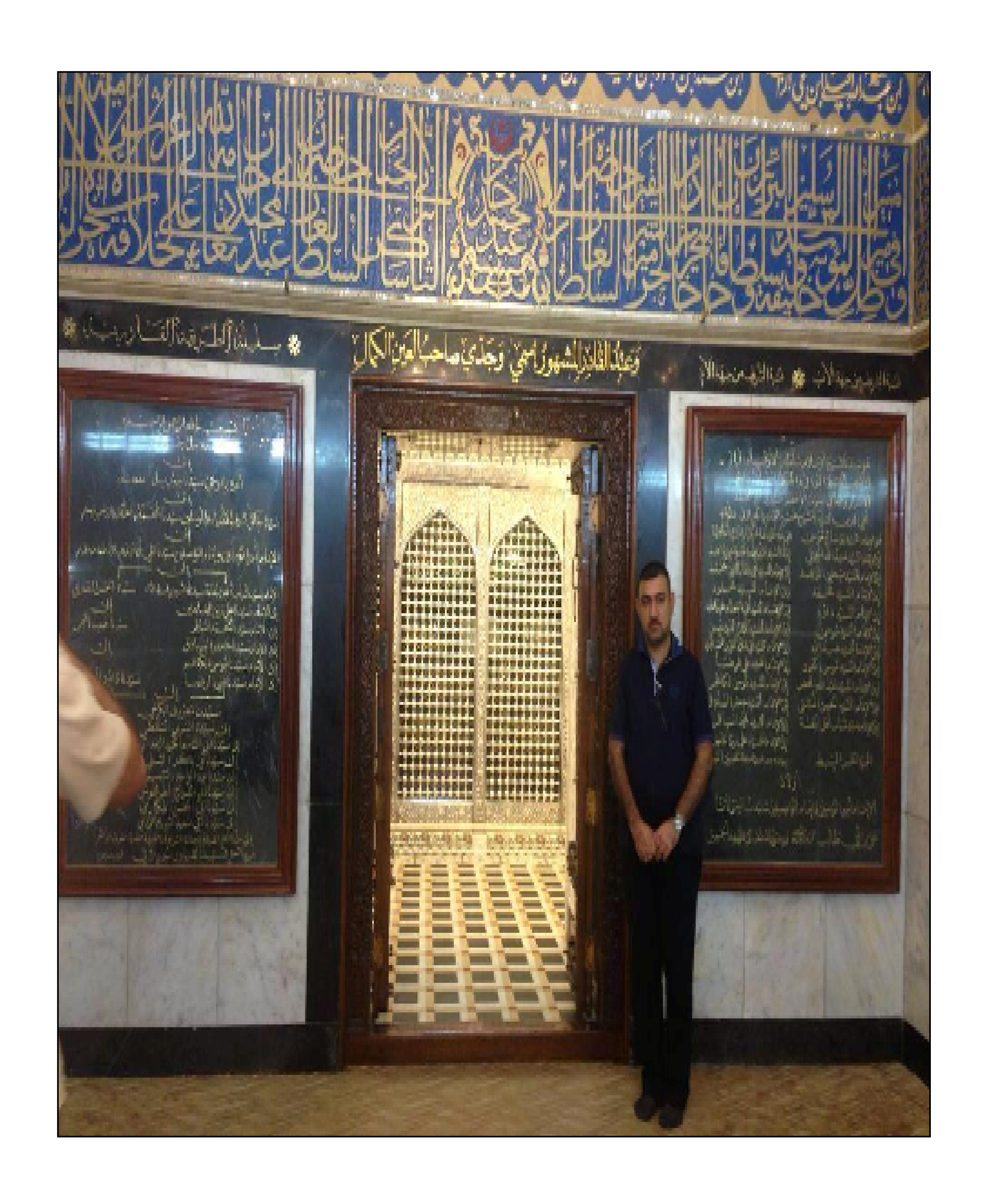
مقالة عن "الإمام عبدالقادر الكيلاني: جيلان العراق لا جيلان طبرستان،مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس 2009.وتفسير الجيلاني – دراسة في نسبة التفسير للمؤلف، مجلة رؤى 2010. و"المؤرخ هشام جعيط – دراسة في رؤيته للسيرة النبوية " ، مجلة رؤى 2010 .

هذا فضلا عن عشرات المقالات المنشورة على شبكة الانترنت وضمن مواقع كثيرة ومن الموضوعات التي كتبها موضوعات ،عن عصر الرسالة وعصور الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين والعصر الحديث والمعاصر والشخصيات العربية والإسلامية وبعض الشخصيات الغربية ،مثل مقالات تدور حول الإمام عبد القادر الجيلاني وذريته في العالم ،وأهمية ثورة الحسين في التاريخ العربي الإسلامي، و إبان بن عثمان المؤرخ المبكر،والإمام الغزالي، والإمام الرفاعي، والإمام أبو مدين ،والإمام البخاري ،والإمام ابن تيمية وقوميته، والشريف البعقوبي،الامين والمامون والميكافلية ،والطريقة القادرية المبكرة ،و معنى الباز الاشهب،و التراث الصوفي – دراسة أولية والإمام أبو إدريس البعقوبي، والمغول، وجنكيز خان، وهولاكو خان، وتيمورلنك، والدولة الفاطمية وخلفاءها، وبغداد، وسمرقند، وكابول، ودلهي، والمقدادية أصل التسمية، والناصرية العراقية، والصويرة العراقية، والعزيزية العراقية، وال بابان، وال السعدون، ومحمد الفاتح ،وسليمان القانوني ،ومراد الرابع، وعبد الحميد

الثـاني، والشـرق الأوسـط ،والمكنـا كارتـا، وعبـد القـادر الجزائـري، وجمـال الـدين الافغـاني ،وعبـد الكـريم قاسـم ،والحبـوبي الشـاعر والإمـام، والسـيد محمـد بـاقر الصـدر، والمـؤرخ الـدروبي وجهـوده في تـدوين تـاريخ الأسـرة القادريـة في العهـد العثمـاني، والرينسـانس ،ومترنـيخ، وبسـمارك، وهتلـر، وميكـافللي والميكافليـة، وونسـتون تشرشـل، وجـان جـاك روسـو ،والثـورة الفرنسـية، ولـويس الرابـع عشـر ،ولـويس السـادس عشـر، ومـاري انطوانيـت ،ونـابليون الأول ،ونـابليون الثالـث، وقـراءة في كتـاب-ليـنين-خطـوة إلى الإمـام خطوتـان إلى الـوراء، وتلخـيص كتـاب قصـة الفلسـفة للمـؤرخ ويـل ديورانـت، وتـاج محـل ،والأزهـر، والقـرويين، وبـدر شـاكر السـياب، و" الصـراع السياسـي والـديني في الـيمن قبـل الإسـلام -نجـران نموذجـا . "درس التـاريخ علـى أيـدي العديـد مـن أسـاتذة التـاريخ في العـراق مـنهم الأسـاتذة الـدكاترة عمـاد عبـد السـلام رؤوف وكمـال مظهـر احمـد وفـاروق عمـر ,وعبـدالرزاق الانبـاري وعبـد القـادر المعاضـيدي وخاشـع المعاضـيدي وعبـد القـادر الشـيخلي وجعفـر عبـاس حميـدي ويقظـان سـعدون العـامر وحمـدان الكبيسـي وقحطـان عبـد السـتار الحـديثي وهاشـم يحيـى المـلاح وعبـد الامـير العكـام وصـادق ياسـين الحلـو ومفيـد كاصـد الزيـدي ومحمـد احمـد الشـحاذ وعبـد الامـير دكسـن وعبـد الجبـار نـاجي وفـاروق عبـاس وهيـب وخضـير الجميلـي وخـارق نـافع الحمـداني ومحمـد جاسـم المشـهداني ومحمـد يـاقر الحسـيني ومـزاحم علي عشيش البعاج وناهض عبدالرزاق القيسي ومحي هلال السرحان .

مـن آراءه" أن التـاريخ لايعـرف اليـوم والأمـس والغـد وإنمـا هـو نهـر الحيـاة يمضـي الى الاجـل المضـروب الـذي قـدره عـلام الغيـوب، فالتـاريخ كلـه تـاريخ معاصـر ،نعـم لـه تقسـيمات علميـة، ولكنـه يعـيش معنـا ويهمنـا وعلينـا أن نسـتفاد منـه في حياتنـا كلـها ويسـتند في هـذا الـرأي علـى أن اسـتقراء التـاريخ خـير مـن التجـارب ،وان اختيـار سـنة بعينهـا أو حـدث بذاتـه لتحديـد نهايـة عصـر مـن عصـور التـاريخ أو بدايـة عصـر آخـر ،يبـدو ، امـرا بعيـدا عـن الحقيقـة والواقـع لان التطـور التـاريخي يمتـاز دائمـا بالتـدرج والاسـتمرار وتـداخل حلقاتـه بعضـها بـبعض ، وان وقـائع التـاريخ الكـبرى عائمـات جليـد خرفهـا ظـاهر فـوق المـاء ، وكتلتهـا الرئيسـية تحـت سـطحه ومـن يريـد استكشـافها عليـه أن يغـوص في الأعمـاق،والفرق بيننـا وبـين الغـرب اننـا نعـيش في التـاريخ فقـط وهـم يفهمونـه ويسـتغلونه لتحقيـق مصـالحهم،و التـاريخ هـو خريـق الإنسـانية الى الحضـارة، لأنـه ضـوء يـنير الماضـي لرؤيـة الحاضـر و المسـتقبل ، فجـذور أنظمتنـا السياسـية ،والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية ،تمتد عميقا في تربة الأجيال الماضية.".

هذا وتم تنسيق الكتاب واعادة نظمه بجانب مرقد الغوث سيدي أبي مدين شعيب دفين تلمسان المحروسة الجزائر على يد العبد الفقير الحقير مورد العجز والتقصير أبو أويس نصرالدين أجدير التلمساني حقق الله له الأماني في دار التهاني



الباحث/ جمال الدين فالح الكيلاني في حضرة جده الباز الأشهب قدس الله سره ..